الرحلات الهندية:

نظرات في شمال الهند

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

الجزء الثاني

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

ⓒ **محمد ناصر العبودي ، ١٤٢٤هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد ناصر

نظرات في شمال الهند / محمد ناصر العبودي .- الرياض ، ١٤٢٤هـ

٤٤٨ ص ؛ ١٧ × ٢٤ سم

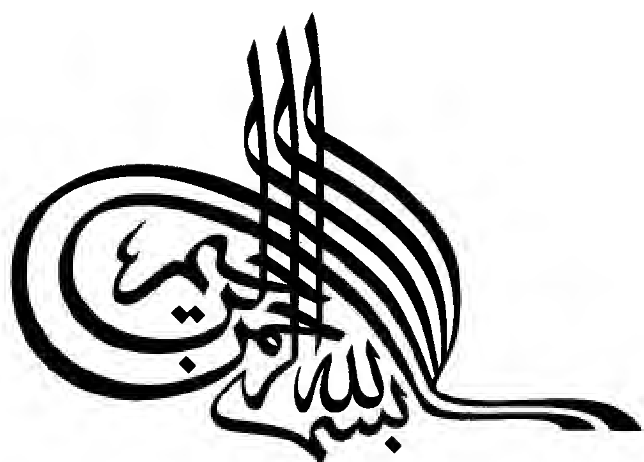
ردمك : ١ - ٧٠٥ - ١٠ - ٩٩٦٠

١ - الهند - وصف ورحلات أ- العنوان

ديوي ٩١٥,٤٠٤ ١٤٢٤/٤٦٣٦

رقم الايداع ١٤٢٤/٤٦٣٦

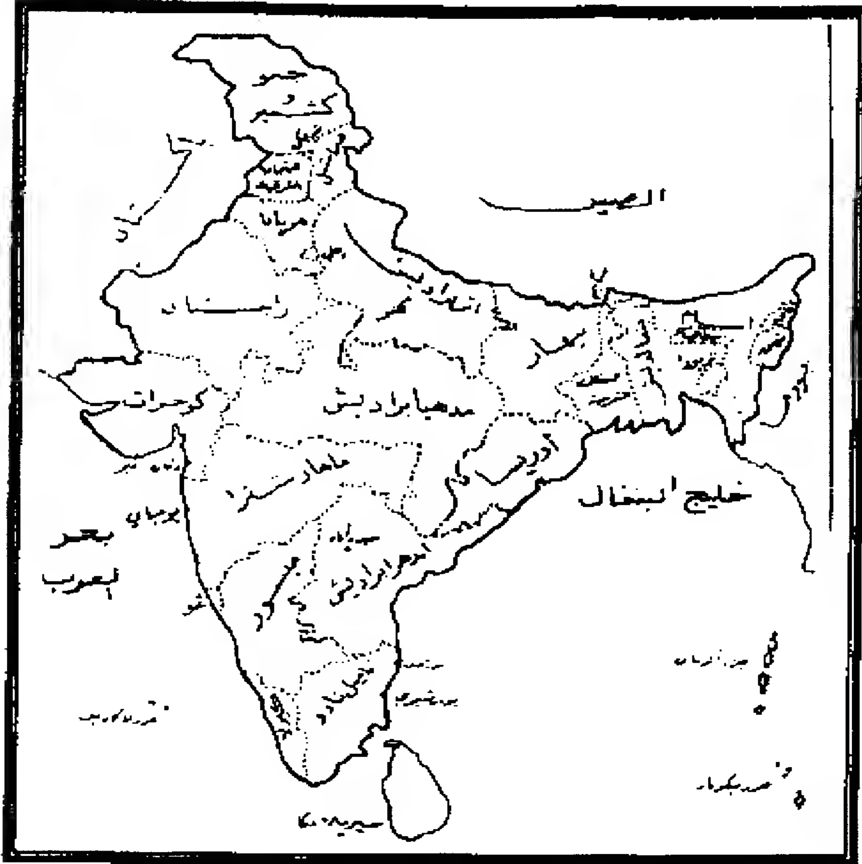
ردمك ١-٧٠٥-١٠-٩٩٦٠


بسم الله الرحمن الرحيم

ولاية إترابراديش

معلومات عن ولاية (إترابراديش):

إترابــراديش يعني الولاية الشمالية وهي أكثر ولايات الهند سكاناً، رغــم كونها ليست أوسعها مساحة، وهذه المعلومات مستقاة من أوساط هندية ولكنها قديمة، مع ذلك آثرنا إيرادها منبهين القارئ الكريم إلى أنه ينبغــي أن يحســب للــزيادة الســكانية في الهند عموماً حساباً، ولزيادة المسلمين الذين هم أكثر من غيرهم تناسلاً حساباً أيضاً.



الولايات الهندية

كانـــت ولاية (إترابراديش) تسمى الولاية المتحدة: آكره و(اوده) ثم سميت باسم (الولايات المتحدة) فقط في عهد الحكم الإنكليزي، وهي أهم ولايـــات الهـــند لبعض الأسباب والعلل، وهي تحتل المكانة الرابعة في ولايـــات الهـــند مساحة، ولكن سكانها هم أكثر من سكان أية ولاية من ولايـــات الهند الأخرى، مع كون ولاية مدهيا براديش هي أوسع ولايات الهند فهي أوسع من اترابراديش بكثير.

وعدد سكان هذه الولاية وفق إحصاء سنة ١٩٩١م ٩٠,٣١١,٣٦١ نسمة، تسكن فيها ٤٧٢ نفس في كل كيلومتر مربع، فيها ١٢ قومسيارية، و٣ مديـــريات، ويوجـــد فـــيها أكبر عدد للمسلمين من أي ولاية هندية، ويسكن فيها ¼ أي ٢٤ نفساً من كل مئة من سكان الهند، ونذكر فيما يلي عدد المسلمين ونسبتهم في السكان من ١٩٥١م إلى ١٩٨١م.

العام	عدد المسلمين	النسبة في السكان
١٩٥١م	٩,٠٢٨,٩٩٢	١٤,٢٨
١٩٦١م	١٠,٧٨٨,٠٨٩	١٤,٦٣
١٩٧١م	١٣,٦٧٦,٥٣٢	١٥,٤٨
١٩٨١م	١٧,٦٥٧,٧٣٥	١٥,٩٣

وقد زادت نسبة ٢٥,٤١./. في سكان ولاية إترابراديش في إحصاء ١٩٩١م، وكانـــت زادت نسبة ٢٩,١١./. في عدد المسلمين في إحصاء ١٩٨١م، لأجـــل ذلـــك يقدر أن تزيد نسبة ٣٠./. في عدد المسلمين في إحصاء ١٩٩١م، وهكذا يبلغ عددهم إلى ٢٢,٩٥٥,٠٥٥ نسمة في ولاية إترابراديش، ونذكر فيما يلي سكان المديريات الأربع لولاية إترابراديش

التي يوجد فيها أكبر عدد للمسلمين في سنتي ١٩٧١م و ١٩٨١م.

المديريات	السكان عام١٩٧١م	النسبة المئوية	السكان عام ١٩٨١م	النسبة المئوية
مرادآباد	٩٢٦,٦٦٨	٣٨,١٥	١,١٩٨,٨٠٧	٣٨,٠٦
سهارنبور	٦٣٩,١٧٠	٣١,١١	٨٤٣,٩٩٩	٣١,٥٧
بجنور	٥٤٦,٤٨٢	٣٦,٦٦	٧٦٥,٠٦٣	٣٩,٤٥
رامفور	٤١٢,٣٩٥	٤٥,٧٦	٥٥٦,٥٣٢	٤٧,٢٢

والمســـلمون في مديرية مظفر نقر ٢٨,٧٤./. وفي مديرية بريلي ٢٧,١٢./. وفـــي ميرته ٢٥,٣٠./.، وفي بهرائج ٢٥,٢٠./.، وهم أكثر مـــن ٢١./. فـــي مديـــريات غوندا وغازي آباد، وديوريا، وباره بنكي، وبستي، وهم أكثر من ١٥ ./. في لكنؤ، وبلند شهر وبدايون، وسيتافور، وشاه جهان فور، وكهيري.

والمســـلمون أقـــل عـــدداً في المناطق الجبلية التي تقع في شمال اترابـــراديش وأقل نسبة للمسلمين في السهول هي في مديرية مين فوري بآغـــره، إذْ تبلغ مديرية بانده ٥,٥١./. بجهانسي، وفي مديرية لت فور ٢,١١./.، وفي مديرية بليا ٥,٢٥./.، وفي مديرية مرزافور ٥,٤٢./..

اليوميات في شمال الهند

هــذه اليومــيات فـــي شمال الهند مختلفة التواريخ، فبعضها قديم وبعضـــها حديـــث، وبعضـــها مختصر، وبعضها مبسوط، تبعاً لطريقة المؤلـــف في الكتابة، حيث كتابته في القديم تتسم بالإيجاز، وفي الحديث بالإيضاح والتبسط.

وقــد أوردتها كما كتبتها، لأن ذلك أدنى إلى صدق الصورة، وهو واقـــع الرحلة، ولكنها يجمع بينها أنها كلها تتحدث عن أماكن في شمال الهند من ولاية (إترابراديش) ومن دلهي العاصمة.

من بنارس إلى دلهي:

كـــنا فـــي زيارة لمدينة بنارس المقدسة عند الهنادك، وقد ذكرت ذلك فـــي كـــتاب (الشـــمال الشرقي من الهند) بدعوة من الجامعة السلفية فيها، فركبـــنا طائـــرة الخطوط الهندية من طراز بوينج ٧٣٧ في الساعة الثانية عشـــرة والثلث ظهراً إلى مدينة دلهي، ولكن الطائرة تنزل أولاً في كاجورا، واســـتمر الطـــيران ٣٠ دقيقة ثم هبطت في مدينة آقرا بعد طيران استغرق ٣٠ دقيقة أيضاً، ثم طارت إلى دلهي فوصلنا لها بعد (٢٠) دقيقة.

ووجدنـــا الجو في دلهي مقبولاً لأنه غبّ مطر، لاسيما إذا قورن بجـــو بـــنارس الحار، وقصدنا فندق أشوكا الذي اعتدت النزول فيه قبل ذلـــك، ولكنـــنا لم نجد فيه مكاناً خالياً، فذهبنا إلى فندق آخر من الدرجة الأولى اسمه (أكبرهوتيل) وهو غير بعيد عن أشوكا.

يوم الأحد ١٣/٥/١٩٩٧م

انتقلـــنا إلـــى فندق أشوكا في هذا الصباح، وهو فندق كبير من الدرجة الممـــتازة علـــى الطـــراز الهـــندي ففيه من المطاعم أربعة، أحدها متخصص بالطعـــام الهندي وفيه على العشاء غناء هندي، والثاني: فيه الطعام الأوروبي، والثالـــث: فـــيه نادٍ ليلي، والرابع: للأطعمة الخفيفة مفتوح طول الليل والنهار، أمـــا المـــتاجر فهـــي فـــيه كثيرة لجميع أنواع البضائع، وفيه بنكان، ومكاتب لشركات الطيران كما في معظم فنادق الدرجة الممتازة الفاخرة.

وفـــوق ذلـــك فهو هادئ لسعته وجمال تصميمه، وتملكه الحكومة الهندية، وسمي على اسم (اشوكا) ملك من ملوك الهند القدماء، حكم الهند قـــبل مـــيلاد المسيح عليه السلام بنحو قرنين ونصف، وكانت له أعمال عمرانية مذكورة، وهو بوذي الديانة، ومعلوم أن البوذية نشأت في الهند نتـــيجة للمظـــالم والتمييز العنصري الذي قام به أتباع الديانة الهندوكية، وعـــدت من صميم تلك الديانة، مثل نظام الطبقات في المجتمع الهندي، الـــذي كان لا يزال معمولاً به حتى حكم الإنكليز البلاد، فأبطلوه رسمياً، ولكـــنهم سكتوا عن تطبيقه فعلياً، وبعد ذلك استمر العمل به على نطاق معيـــن، وإن كانـــت قواعـــده القديمة قد اختلت بعض الشيء مثل اعتقاد البراهمة في القديم أن المنبوذ من المنبوذين إذا وقع ظله على واحد منهم نجســـه نجاسة لا يمكن إزالتها، لذلك كانوا يقتلونه حتى يعتبر به أمثاله، ومـــثل كون المنبوذين ينظفون بيوت البراهمة من البراز كل يوم بحمله إلى خارج المساكن، وربما يأتي شيء من الحديث عن ذلك في المستقبل في هذا الكتاب.



ضاحية في دلهي الجديدة كما تبدو من الفندق الذي سكنت فيه

وكنت قد نزلت في فندق (اشوكا) هذا عام ١٣٨٥هـ وشاهدت فيه احتفالهم بما يسمونه عيد النور، وذلك في شهر نوفمبر، وقد اختصر الاحتفال على اطلاق بالونات النور، بأشكال معينة جميلة، ثم احضروا فرقة من الراقصين الهنود، وأخذوا يرقصون رقصات معبرة تصاحبها الموسيقى الهندية، ولم يكن معهم أحد من النساء.

عرس سيخي:

السيخ طائفة من الطوائف في الهند يتبعون قرونانك وقد تحدثت عنهم عند الكلام على زيارة المدينة الرئيسية لهم في الهند وهي مدينة (امرتسر) في كتاب: (الشمال الغربي من الهند).

وهم مثل بقية الطوائف في الهند يتمسكون بشعائرهم وعاداتهم المميزة لهم عن غيرهم وبخاصة ما يتعلق بالمظهر فترى السيخي الواحد

بيـــن مئات، وربما ألوف من الناس وتستطيع تمييزه عنهم بسهولة، لأن لهم عمـــائم يعـــتمرونها على هيئة خاصة لا يشركهم فيها غيرهم، ويحرصون علـــى اتخاذ العمامة في جميع أحوالهم، كما أنهم لا يحلقون شيئاً من الشعر لذلك تراهم قد تركوا لحاهم وعوارضهم فتعرفهم بذلك أيضاً.

وهناك علامات أخرى لهم قد يشركهم فيها غيرهم مثل قلة السواد أو السمرة الشديدة فيهم، ومثل قوة أبدانهم بالنسبة إلى الأكثرية في الهند، وذلك بسبب طيب الجو في منطقتهم وهي البنجاب في شمال الهند.

ولقد شاهدت اليوم ومن غرفتي في الفندق موكباً لعرس من هؤلاء القوم قد اركبوا العريس- أي الرجل- على فرس ومعه على الفرس طفل لا أدري أهـــو صـــبي أم بنت، وأمامه فرقة موسيقية تعزف ألحاناً شبه راقصـــة وهـــو يـــتحرك بـــبطأ، ويقف أحياناً، وحواليه طائفة من قومه الســـيخيين من رجال ونساء، وإذا وقفوا أخذ الشبان منهم يرقصون على أنغام الموسيقى، كل ذلك في الشارع ليلفتوا أنظار الناس إلى الحفل، وهذا ما لفت نظري أيضاً وأنا في غرفتي من الفندق.

وعـــندما وصلوا إلى الفندق ترجل من الحصان وأخذوا يرقصون وفـــي أثـــناء ذلك حمل العريس عروسه بين يديه، ونساؤهم على درجة كبـــيرة من الجمال والنظافة واللباس الحسن إلاّ أن كبارهن كالهندوكيات ثقيلات الأوزان، متهدلات الأبدان.

ثـــم دخلوا إلى قاعة كبيرة للاجتماعات في الفندق (اشوكا هوتيل) وأخذ رجل منهم يتلو أشياء من كتاب مقدس عندهم.

ثـــم لا نـــدري شـــيئاً مـــن أمرهم إلاّ أنهم اخذوا يتناولون بعض المأكولات فيه.

يوم الاثنين ١٤/٥/١٣٩٧هـ - ٢/٤/١٩٧٧م:

جولة في دلهي الجديدة:

ذهبنا للسفارة السعودية وكان السفير الشيخ صالح بن عبدالله الصقير غائباً عن دلهي وقد أخبر الموظفين المسئولين في السفارة عن قدومنا وأمرهم بإكرامنا فصدعوا بأمره جزاه الله خيراً، وكان أول ذلك إعطاءنا سيارة من السفارة جالت بنا في نواح من دلهي، ولم تكن هذه أول مرة أزور فيها هذه المدينة بل سبقتها مرتان ولكني في ذلك الوقت لم أدون شيئاً من يومياتي فيها لأنني لم أكن قد رأيت فائدة من تسجيلها.

والحقيقة أن الجزء المسمى منها (دلهي الجديدة) هو جميل حقاً فشوارعه واسعة وأشجاره وارفة، وأبنيته منسقة، ولكن إذا تذكر المرء أن مدينة دلهي هي عاصمة سبعمائة مليون من البشر[١] فإنه لا يستنكر ذلك وإذا تذكر أيضاً بقية أحياء مدينة دلهي فإنه يستقله، وإذا تذكر أيضاً تلك الأرياف البائسة في الهند، كادت نفسه ترفض هذا الجمال الذي هو مستخرج من عصارة عيش ذلك الشعب الريفي البائس.

وكان من بين ما مررنا به مقبرة (حلاق السلطان) وهي بناء فخم إذا قيس بمقابر بعض الملوك العاديين كان منها أفخم، وإذا قيست مرتبة الحلاق بمرتبة الوزير تساءل المرء عما تكون عليه مقبرة الوزير.

ومقبرة الحلاق هذه قاومت القرون حتى أصبحت الآن أثراً من الآثار التي تستحق أن تزار في مدينة دلهي، وغير بعيد منها مقبرة أخرى صغيرة ربما كانت لحلاق الحلاق.

---

[١] زاد عدد سكان الهند في آخر إحصاء في عام ٢٠٠١ عن ألف مليون إنسان.

ثم مررنا ببوابة تسمى (انديان قيت) أي: بوابة الهند، وقد بناها الإنكليز وسموها بوابة عموم الهند وهي جزء من منطقة رائعة البناء والتخطيط تضم منزل رئيس الجمهورية، وكان مقراً للحاكم الإنجليزي قبل ذلك، وأمام منزل رئيس الجمهورية تنتصب مسلة سموها (مسلة آشوكا)، والبرلمان المركزي أي مجلس الأمة، ومقر عدد من الوزارات مثل وزارتي الخارجية والداخلية.

وبعد الحرب مع الباكستان أشعل الهنود داخل البوابة ناراً لا تطفأ وقالوا إنها لذكرى الشباب الذي قتلوا في هذه الحرب، وأكثر الأبنية فيه هي على طراز هندي مغولي.

وخلف بناء مجلس الأمة مسجد يسمى (مسجد البرلمان) وقد دفن آخر رئيس لجمهورية الهند وهو فخر الدين علي أحمد في فنائه وبني عليه قبة صغيرة، وكنت في آخر سفرة لي قبل هذه قد اجتمعت به في حيدر آباد، وبقينا معه مدة تناولنا خلالها طعام الغداء، وكانت تصحبه زوجته وابنته، ولم أكن أتوقع أن أرى قبره في سفرة تالية لتلك السفرة وفي وقت غير بعيد.

وإلى ذلك المسجد الحديث مسجد البرلمان يرى المرء مسجداً أثرياً يحتاج إلى ترميم ذا قبة صغيرة جميلة.

وهذه المباني في ميدان واسع منسق التشجير مزروع بالحشائش المهذبة.

وبعد ذلك مررنا بأحد البنوك الهندية فرأينا على جانبي مدخله تمثالين قالوا: إنها لإحدى آلهتهم ، وتدعى (لاكشمي) ويقولون: إنها (إلهة المال) وهي غير آله الرزق بزعمهم الذي جسمه جسم إنسان ورأسه رأس فيل- وهو المسمى عندهم (جانيش).

وأخيراً ذهبنا إلى مطعم لأحد المسلمين اسمه (كريم نعمت كدا) أي: محل (نعمة الكريم) وهو الله سبحانه وتعالى، وتترجم هذه الجملة العربية بلفظ (مطعم).

وعندما دخلناه سألنا المضيف ماذا عندكم؟ فأجاب: فخذ خروف فظننا أنه يقصد قطعة من لحم فخذ الخروف مشوية، فطلبنا ثلاثة منها وكان معنا أخوان من الهنود، أحدهما الشيخ عبدالحميد عبدالجبار الأمين العام للمجلس الاستشاري الأعلى الإسلامي في الهند، وقد طلبا دجاجاً مشوياً.

ومـــا كان أشد دهشتنا عندما أحضر إلينا الخادم ثلاثة أفخاذ كاملة، أي: لكل شخص رجل خروف كاملة مشوية، وعرفنا أن الأمر جدٌّ ولكن بعد فوات الأوان، وقال لنا صاحب المطعم إننا شوينا هذه الأرجل الثلاث لكم ولا يمكن إعادة النظر في الأمر، فتعاونا على أكل رجل واحدة، أما الباقيتان فأعطيناهما السائق يحملهما لأهله.

قال الرحَّالة الشهير ابن بطوطة المغربي:

وصف مدينة دهلي:

وفـــي غـــد ذلك اليوم وصلنا إلى حضرة دهلي، قاعدة بلاد الهند، وهـــي المدينة العظيمة الشأن، الضخمة، الجامعة بين الحسن والحصانة، وعلـــيها الســـور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير، وهي أعظم مدن الهند، بل مدن الإسلام كلها بالمشرق.

ومديـــنة دهلي كبيرة المساحة كثيرة العمارة، وهي الآن أربع مدن متجاورات متصلات، إحداهما: المسماة بهذا الاسم دهلي، وهي القديمة، مـــن بناء الكفار، وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة، والثانية:

تمســـى ســـيري، وتسمى أيضاً دار الخلافة، وهي التي أعطاها السلطان لغـــياث الديـــن حفيد الخليفة المستنصر العباسي لما قدم عليه، وبها كان ســـكنى الســـلطان عـــلاء الدين وابنه قطب الدين، وسنذكرهما، والثالثة: تسمى تغلق آباد، باسم بانيها السلطان تغلق، والد سلطان الهند الذي قدمنا علـــيه، وكان سبب بنائه لها أنه وقف يوماً بين يدي السلطان قطب الدين فقال له: "يا خوند عالم! كان ينبغي أن تبني هنا مدينة"، فقال له السلطان متهكماً: "إذا أصبحت سلطاناً فابنها".

فكـــان مـــن قدر الله أن كان سلطاناً، فبناها وسماها باسمه، والرابعة: تســـمى جهان بناه، وهي مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن الـــذي قدمـــنا عليه، وهو الذي بناها، وكان أراد أن يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد، فبنى منه بعضاً، وترك بناء باقيه لعظم ما يلزم في بنائه.

والسور المحيط بمدينة دهلي لا يوجد له نظير، عرض حائطه أحد عشـــر ذراعاً، وفيه بيوت يسكنها السُمَّار وحفاظ الأبواب، وفيها مخازن للطعـــام، ويســـمونها الأنـــبارات، ومخـــازن للعدد، ومخازن للمجانيق والـــرعادات، ويبقى الزرع بها مدة طائلة، لا يتغير ولا تطرقه آفة، ولقد شاهدت الأرز يُخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود، لكن طعمه طيب، ورأيت أيضاً الكذرو[١] يخرج منها، وكل ذلك من اختزان السلطان بلبن[٢] منذ تسعين سنة، ويمشي داخل السور الفرسان والرجالة، من أول المديـــنة إلـــى آخرها، وفيه طيقان[٣] مفتحة إلى جهة المدينة، يدخل منها الضـــوء، وأسفل السور مبني بالحجارة، وأعلاه بالآجر، وأبراجه كثيرة

---

[١] نوع من الحبوب.
[٢] بلبن: اسم السلطان.
[٣] نوافذ.

متقاربة، ولهذه المدينة ثمانية وعشرون باباً، وهم يسمون الباب دروازة، فمنها دروازة جُل وهي موضع البساتين، ودروازة شاه، اسم رجل، ودروازة بالم، اسم قرية ذكرناها، ودروازة نجيب، اسم رجل، ودروازة كمال كذلك، ودروزاة غزنة، نسبة إلى مدينة غزنة التي بطرف خراسان، وبخارجها مصلى العيد وبعض المقابر، ودروازة البَجالصَة.

وبخارج هذه الدروازة مقابر دهلي، وهي مقبرة حسنة يبنون بها القباب، ولا بد عند كل قبر من محراب[1]، وإن كان لا قبة له، ويزرعون بها الأشجار المزهرة، مثل قل شَنْبَه وديبول والنسرين وسواها، والأزاهير هناك لا تنقطع في فصل من الفصول.

وجامع دهلي كبير الساحة، حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة أبدع نحت ملصقة بالرصاص أتقن إلصاق، ولا خشبة به أصلاً، وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة، ومنبره أيضاً من الحجر، وله أربعة صحون، وفي وسط الجامع العمود الهائل الذي لا يدري من أي المعادن أيضاً هو، ذكر لي بعض حكمائهم أنه يسمى هّفت جوش، ومعنى ذلك سبعة معادن، وإنه مؤلف منها، وقد جُلي من هذا العمود مقدار السبابة، ولذلك المجلو منه بريق عظيم، ولا يؤثر فيه الحديد، وطوله ثمانون ذراعاً، وأدرنا به عمامة فكان الذي أحاط بدائرته منها ثمانية أذرع، وعند الباب الشرقي من أبواب المسجد صنمان كبيران جداً من النحاس، مطروحان بالأرض، قد ألصقا بالحجارة، ويطأ عليها كل داخل إلى المسجد أو خارج منه، وكان موضع هذا المسجد بُدْخانة، وهو بيت الأصنام، فلما افتتحت جُعل مسجداً.

---

[1] يريد به مبنى شبيه بالمحراب، والبناء على القبور لا يجوز سواء أكان على هيئة محراب أو غيره.

وفي الصحن الشمالي من المسجد الصومعة التي لا نظير لها في بلاد الإسلام، وهي مبنية بالحجارة الحُمر، خلافاً لحجارة سائر المسجد فإنها بيض، وحجارة الصومعة منقوشة، وهي سامية الارتفاع، وفحلها من الرخام الأبيض الناصع، وتفافيحها[١] من الذهب الخالص، وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة.

حدثني من أثق به أنه رأى الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة إلى أعلاها، وهي من بناء السلطان معز الدين بن ناصر الدين بن السلطان غياث الدين بلبن، وأراد السلطان قطب الدين أن يبني بالصحن الغربي صومعة أعظم منها، فبنى مقدار الثلث منها، واخترم[٢] دون تمامها، وأراد السلطان محمد إتمامها، ثم ترك ذلك تشاؤماً، وهذه الصومعة من عجائب الدنيا في ضخامتها وسعة ممرها، بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة، وهذا الثلث المبني منها مساو لارتفاع جميع الصومعة التي ذكرنا أنها بالصحن الشمالي، وصعدتها مرة فرأيت معظم دور المدينة، وعاينت الأسوار على ارتفاعها وسموها منحطة، وظهر لي الناس في أسفلها كأنها الصبيان الصغار، ويظهر لناظرها من أسفلها أن ارتفاعها ليس بذلك لعظم جرمها وسعتها.

وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبني أيضاً مسجداً جامعاً بسيري، المسماة دار الخلافة، فلم يتم منه غير الحائط القبلي والمحراب، وبناؤه بالحجارة البيض والسود والحمر والخضر، ولو كمل لم يكن له مثل في البلاد، وأراد السلطان محمد إتمامه، وبعث عرفاء البناء ليقدروا

---

(١) جمع تفاحة.
(٢) مات.

النفقة فيه، فزعموا أنه ينفق في إتمامه خمسة وثلاثون لكا[1]، فترك ذلك استكثاراً له، وأخبرني بعض خواصه أنه لم يتركه استكثاراً، لكنه تشاءم به لما كان السلطان قطب الدين قتل قبل تمامه.

وبخارج دهلي الحوض العظيم المنسوب إلى السلطان شمس الدين ألتمش، ومنه يشرب أهل المدينة، وهو بالقرب من مصلاها، وماؤه يجتمع من ماء المطر، وطوله نحو ميلين، وعرضه على النصف من طوله، والجهة الغربية منه من ناحية المصلى مبنية بالحجارة، مصنوعة أمثال الدكاكين، بعضها أعلى من بعض، وتحت كل دكان درج يُنزل عليها إلى الماء، وبجانب كل دكان قبة حجارة، فيها مجالس للمتنزهين والمتفرجين، وفي وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة، مجعولة طبقتين، فإذا كثر الماء في الحوض لم يكن سبيل إليها إلاّ في القوارب، فإذا قل الماء دخل إليها الناس، وداخلها المسجد، وفي أكثر الأوقات يقيم بها الفقراء المنقطعون إلى الله المتوكلون عليه، وإذا جفّ الماء في جوانب هذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار والقثاء والبطيخ الأخضر والأصفر، وهو شديد الحلاوة صغير الجرم.

وفيما بين دهلي ودار الخلافة حوض الخاص، وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين، وعلى جوانبه نحو أربعين قبة، ويسكن حوله أهل الطرب وموضعهم يسمى طرب آباد، ولهم سوق هناك من أعظم الأسواق ومسجد جامع، ومساجد سواه كثيرة، وأخبرت أن النساء المغنيات الساكنات هناك يصلين التراويح في شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات، ويؤم بهن الأئمة.

انتهى كلام ابن بطوطة.

---

[1] اللك: مائة ألف.

وقال السيد عبدالحي الحسني:

أمـــا مدن الهند فمنها مدينة دِهلِي- بكسر الدال المهملة وسكون الهاء وكسر اللام، قاعدة بلاد الهند، وهي المدينة العظيمة الشأن، الفخمة الجامعة بين الحسن والحصانة، وهي كانت بضع مدن متجاورات متصلات.

إحداها: المسماة بهذا الاسم "دهلي"، و يقال لها "دِلي" بتشديد اللام، وهـــي القديمة من بناء الهنادك القدماء قيل إنها مصَّرها "أننكبال" بمقربة "إندريـــت" ســـنة أربعين وأربعمائة بكرمية، وقيل مّصرها "دهلو" وكان ســـلطان قنوج قبل غزو الإسكندر بن فيلقوس المقدوني على الهند، وبنى القلعـــة الحصـــينة المتيـــنة بها "برتهي راج" سنة مائتين وألف بكرمية، وفتحها قطب الدين أيبك سنة تسع وثمانين وخمسمائة هجرية، فجعلها دار ملكه، وبنى بها "كوشك سفيد" معناه القصر الأبيض، وبنى الجامع الكبير الـــذي ســـموه قـــوة الإسلام، وبنى المدرسة المعزية، وبنى غياث الدين القصـــر الأحمر يسمونها "كوشك لعل" سنة ٦٦٤هـــ، وبنى خارج البلدة غياث بور سنة ستين وستمائة هجرية بمقربة القلعة.

والثانـــية: "كـــيلوكهري" بناها معز الدين كيقباد، والقائم عليه جلال الديـــن الخلجـــي علـــى ساحل "جمنا" وبنى بها "كوشك لعل" أي القصر الأحمر، نحوسنة ٦٨٨هـــ، وهي التي كانوا يسمونها "معز آباد".

والثالثة: "سيري" بكسر السين المهملة، وتسمى أيضاً دار الخلافة، بـــناها عـــلاء الدين الخلجي نحو سنة ٧٠٣هـــ، وله بها مسكن يسمونه "كوشك سبز" أي القصر الأخضر.

والـــرابعة: "تغلـــق آبـــاد" بناها غياث الدين تغلق، نحو سنة ثلاث

وعشرين وسبعمائة على ستة أميال من دهلي القديمة في الجهة الجنوبية.

والخامسة: "جهان بناه" بناها محمد شاه تغلق سنة ٧٢٨هـ، وأراد أن يضم هذه المدن بحيث يحيط بها سور واحد، فبنى منه بعضاً، وترك بناء باقيه لعظم ما يلزم في بنائه، وبنى القصر "هزار استون" أي ذا ألف أسطوانة.

والسادسة: "فيروز آباد" بناها فيروز شاه على ساحل "جمنا" سنة خمس وخمسين وسبعمائة.

والسابعة: "شير كده" بناها شير شاه السوري بيرى، التي كانت خاوية على عروشها نحو سنة ٩٤٨هـ.

والثامنة: "شاهجهان آباد" ويسمونها "جهان آباد" وهي المسماة "دهلي" في العصر الحاضر، وهي مدينة جامعة بين الحسن والحصانة، فوق ربوة على ساحل "جمنا" حيث الطول الشرقي (٧٧) درجة، و (٥) دقائق، والعرض الشمالي (٢٧) درجة و(٤١) دقيقة، ولها سور محيط، وبرج مشيدة من الحجارة، بناها شهاب الدين محمد شاه جهان الدهلوي في سبع سنين، وبذل عليه أربعمائة ألف ربية، وطول ذلك السور ستة آلاف وستمائة وأربع وستون ذراعاً، وعرضه أربعة أذرع، وارتفاعه تسعة أذرع، وفيه سبعة وعشرون برجاً، قطر كل واحد منها عشرة أذرع، وفي الجهة الشرقية من المدينة بنى سور القلعة مشرفاً على نهر "جمنا" من حمر الحجارة في تسع سنين، وهي على الشكل المثمن، طولها ألف ذراع، وعرضها ستمائة ذراع على ستمائة ألف ذراع من الأرض، وارتفاع السور خمس وعشرون ذراعاً، وعرضه عشرة أذرع، وحوله خندق عرضه أربع وعشرون ذراعاً، وعمقه عشرة أذرع، ومحيطه ثلاثة آلاف وستمائة ذراع، وبذل عليه وعلى الأبنية التي بناها في السور خمسة آلاف

ألف من الروبيات، وفي مرآة "آفتاب نما": بذل على السور والخندق وغير ذلك خمسة آلاف ألف، وعلى الأبنية التي فيها خمسة آلاف ألف أخرى.

وأما الأبنية التي في القلعة فهي من عجائب الدنيا ومفاخر أهلها، لا يكاد يوجد نظيرها في الأرض، منها "دربار عام" وهو إيوان كبير مسقف على السواري كلها من حمر الحجارة، و"دربار خاص" وهو مبني من بيض الحجارة، منقوش بأبدع ما يكون، مزين بالأحجار الثمينة، وحمام ومسجد، وكثير من الأبنية الفاخرة.

والجامع الكبير في المدينة لا يوجد له نظير في الدنيا، وفيه قال شيخ مشايخنا الشيخ عبدالعزيز بن ولي الله الدهلوي:

يا من يسائل عن (دهلي) ورفعتها ... على البلاد وما حازته من شرف
إن البلاد إماء وهي سيدها ... لأنها درة والكل كالصدف
فاقت بلاد الورى عزاً ومنقبة ... غير الحجاز وغير القدس والنجف
سكانها{هم[1]} جمال الأرض قاطبة ... خَلقاً وخُلقاً بلا عجب ولاصلَف
بها مدارس لو طاف البصير بها ... لم ينفتح عينه إلا على الصحف
كم مسجد زخرفت فيها منارته ... لو قابلته شموس الصحو تنكسف
لا غرو إن زينت الدنيا بزينتها ... كم من أب قد علا بابن ذوي شرف
وماء جون جرى من تحتها فجلى ... أنهار خلد جرت من أسفل الغرف

وأما الأبنية القديمة خارج المدينة فكثيرة، لا يحصيها البيان، منها منارة عظيمة، ارتفاعها (٢٤٢) قدماً، وهي منارة مسجد "قوة الإسلام".

انتهى كلام السيد عبدالحي.

(1) زيد ليستقيم الوزن.

وقـال الزبـيدي صاحب تاج العروس، وهو هندي الأصل: (دِهْلِي)- بالكسـر- أعظـم مـدن الهند الإسلامية لها عدة تواريخ مختصة بأحوالها وملوكها، وما امتازت به عن غيرها من البلاد، وقد ذكرها ابن بطوطة في رحلـته وأوسع فيها الكلام، وهي على نهر جارٍ كالنيل والنسبة إليها دِهْلَويٌّ ودِهْلَـيٌّ، وقد انتسب إليها أكابر العلماء في كل فنّ قديماً وحديثاً منهم سراج الديـن عمـر بـن إسحاق الدهلوي أحد أئمة الأصول، والسيد أصيل الدين عبدالرحمـن بن قطب الدين حيدر بن علي بن أبي بكر الشيرازي الدِّهْلَوي المحـدِّث المتوفى بكنبابت سنة ٨١٧هـ ووالده أحد الحفاظ ولد بدهلي سنة ٧١٤هـ، والشـيخ قطـب الديـن بختـيار بن أحمد بن موسى الفرغاني الدِّهْلَـوي أحـد مشـايخنا المشهورين المتوفى سنة[1]، والشيخ نظام الدين محمد بن أحمد بن دانيال الخالدي البدارني الدهلوي المتوفى سنة ٧٢٥هـ، والسـيد نصير الدين محمود المعروف بسراج دِهْلي المتوفى سنة ٧٥٧هـ، وسـعيد بن عبدالله الدهلي البغدادي الحافظ نزيل دمشق، سمع الكثير وجمع وأفاد واستدرك على الذهبي وغيره من الشيوخ.

قـال الحـافظ: قـد لقيه جماعة من شيوخنا ورأيت له وقعة بغداد قد حـررها مـات سـنة ٧٤٩هـ، قلت: وهو نجم الدين أبوالخير ويعرف بـالجلال، وكـان حنبلياً، ومن المتأخرين الإمام المحدث أبومحمد عبدالحق بـن سـيف الدين البخاري الدهلوي من كبار أئمة الحديث، شرح المشكاة: عربـي فارسي ومدارج النبوة فارسي: ترجم فيه المواهب اللدنية، وأخيار الأخـبار وغـيرها، ووفـد إلى الحرمين، فأخذ عن الشهاب أحمد بن حجر المكي وطبقته كالشيخ عبدالوهاب المتقي، وملا علي فارسي وغيرهما[2]".

---

(١) كذا الأصل.
(٢) تاج العروس، مادة.... دهل..

يوم الثلاثاء ١٥/٥/١٣٩٧هـ - ٥/٤/١٩٧٧م:

من دلهي إلى أقرا:

أقـــرا: مدينة أثرية مهمة، قديمة العمارة، تقع على الضفة الغربية لـــنهر جمنى أحد الأنهار المقدسة عند الهندوك، ورغم كونها مدينة قديمة فإنها اكتسبت أهميتها من وجود الآثار العظيمة من البناء الذي خلفه ملوك المغول، وأهم ذلك كله (تاج محل).

غادرنا فندق أشوكا في دلهي في الساعة السابعة صباحاً على سيارة السفارة السعودية من أحدث طراز مكيفة الهواء، مريحة الركوب، وكان مرافقـــنا الشيخ عبدالحميد عبدالجبار السلفي ومررنا ببناء أثري إسلامي فقـــال: إنه مدرسة صغد رجنك وتقع في موضع يسمى (جور باغ) أي: حي البستان، وهو مضاف إلى أحد وزراء المغول.

ثـــم بمقابـــر نظام الدين وهو أحد المتصوفين الذين عاشوا في القرن الثامـــن الهجري، وهناك حي سمي باسمه أي: حي نظام الدين وهناك قبره، وسوف يأتي الكلام عليه عند ما نراه فيما بعد، بإذن الله.

فريد آباد:

بعـــد أن قطعنا عشرين كيلاً ونحن متجهون جهة الجنوب إلى أقرا وصلنا إلى مدينة فريد آباد نسبة إلى رجل من الصوفية اسمه (فريد شكر قـــنج) فهـــي الآن مدينة صناعية فيها عدد من المصانع، وهي واقعة في منطقة واسعة تسمى (فريد آباد) أيضاً، ومع قربها من دلهي فإنها تقع في ولاية هاريانا إذ تنتهي حدود الأرض التي تقع فيها مدينة دلهي قبل ذلك، وآبـــاد معـــناه: بلـــد، ويقال: إن (قرونانك) مؤسس مذهب السيخ كان قد تتلمذ علـــى فريد هذا وأنه تأثر بالديانة الإسلامية، وكان قبل ذلك هندوكياً لذا جاءت في مذهبهم أشياء من الدين الإسلامي، وإن كانت مبادئه مخالفة للإسلام.

مدينة تغلق آباد:



برج في قلعة تغلق أباد قرب دلهي

مـــر بنا الطريق على مدينة (تغلق آباد) وهي منسوبة إلى السلطان تغلق شاه.

وكانت مدينة إسلامية مهمة وظهرت لنا إلى جهة الغرب على بعد قلعـــة السلطان (تغلق) على رأس تل من الحجارة لا تزال سليمة المظهر، أما المديـــنة التـــي كانـــت الأغلبـــية فيها للمسلمين قبل تقسيم القارة الهندية، فقد انخفضـــت نسبتهم بعد التقسيم إذ هاجر كثير منهم إلى باكستان فأصبح الباقون أقلية، إلاّ أن عدد المسلمين الآن ارتفع كثيراً عما كان عليه قبل سنوات.

قال الشيخ سليمان الندوي:

وكـــان مـــن أشهر الملوك في هذه الأسرة محمد بن تغلق (٧٢٥-٧٥٠هـــ/ ١٣٢٥-١٣٥١م) ذلـــك الـــذي وفـــد علـــى بلاطـــه الـــرحالة العربي الشهير ابن

بطوطـــة، ثم ظهرت الدولة اللودية على يد القائد التركي الكبير (بهلول لودي) في ٩٥٦هـــ- ١٤٥١م، واستمرت إلـى سنة ٩٣٣هـ- ١٣٢٦م حتى قضى عليها الملـك المغولـي العظيم ظهير الدين بابر مؤسس الدولة المغولية أو التيمورية التي دامت إلى استيلاء الإنجليز عليها في القرن التاسع عشر الميلادي.

وفـي العصر المملوكي كانت الخلافة العباسية في بغداد تلفظ آخر أنفاسـها، ومع ذلك وطّد ملوك المماليك علاقتهم الدبلوماسية الوثيقة مع خلفاء العباسيين في بغداد.

ويـرجع الفضل في ذلك إلى السلطان شمس الدين التمش (٦٠٧-٦٣٣هـ) الذي بعث رسوله إلى المستنصر الخليفة العباسي في بغداد في ٦٢٦هـــ يطلـب مـنه وثيقة الاعتراف بحكمه في الهند، فسرّ الخليفة العباسـي بدوره بهذه السفارة وبعث إلى التمش وثيقة الاعتراف به، فلما وصـلت سفارته تحمل الوثيقة إلى "دهلي" رحب بها الملك ترحيباً حاراً، وأقام لها احتفالاً كبيراً احتشدت فيه جماهير أبناء الهند.



قرد طليق في تغلق آباد قرب دلهي

ومدينة بلْول:

وهذه مدينة أخرى مررنا بها بعد أن قطعنا ٥٥ كيلو من دلهي وهي المديـــنة التـــي تدعى بلْول وكانت مدينة للمسلمين الذين قل عددهم بعد التقســيم، وبعد أن هاجروا إلى باكستان، ويشهد لذلك عدد المساجد فيها التي هي باقية حتى الآن.

أبراج البريد:

شاهدنا ما يشبه المنارات الصغيرة متناثرة على أبعاد شبه متساوية ويبدو من شكلها على البعد أنها أثرية البناء، وهذا صحيح، إذْ هي أبراج الـــبريد بناها المغول في زمنهم يجعلون عند كل واحد منها فارساً جاهزاً يتســـلم الرسائل من فارس آخر وصل لتوه إليه فيعود بها مسرعاً بأقصى مـــا يحتمله الفارس والحصان من جهد حتى يسلمها إلى آخر عند البرج الـــذي يليه، وأغلبها مبنى أسفله بالحجارة وأعلاه بالآجر، وهو في حالة ســـليمة رغـــم تطـــاول الزمن، ومضي وقت لم تكن العناية بالآثار فيه معهودة إلاّ أن قوة بنائها أبقتها بهذه الحالة وهي على شكل مدور واسعة الأسفل تستدق تدريجياً حتى تصبح دقيقة الأعلى.

وأبراج أخرى:

كمـــا رأيـــنا أبـــراجاً صنعها الفلاحون والريفيون الهنود في هذه المنطقة، ولكنها من نوع آخر وهي في أغلب الأحيان مربعة الشكل غير مســـتديرة، وفـــي بعض الأحيان تكون مستديرة وهي حديثة البيان، ولم تصنع إلا لتكون قريبة النهاية فهي لا تطاول الزمن، ولا تصمد.

ألا وهـــي أبـــراج الأخـــثاء، أي: أبراج صنعوها من أخثاء البقر والجـــاموس، والأخثاء إن لم تكن تعرفها- هي جمع خثي البقرة ونحوها بمعنى رجيعها، أو برازها كما يقول المحدثون.

جمعوها ثم بنوها ثم صنعوها على هيئة أبراج قائمة، كل برج مثل قامـــة الـــرجل أو أكثر من ذلك لكي يبيعوها ممن يريد أن يوقد بها ناره لعشائه أو لغدائه، لأن الغاز بنوعه السائل وغير السائل غير موجود عند أكثر سكان المدن الهندية، فأنى له أن يكون موجوداً عند أهل الأرياف.

هذا ونحن الآن نسير على طريق اسفلتي جيد جداً بالنسبة إلى حالة الطرق الأسفلتية في خارج المدن الهندية، لاسيما إذا قيس بالطريق الذي ســـلكناه بين مدينة بتنه ودرمنقها في ولاية بيهار والعربات التي تجرها الثيران، والحيوانات السائبة، والفلاحون الذين كان النظر لا يخطئهم أبداً، كل أولئك هنا قليل لذلك كان معدل السير هنا أسرع منه هناك، وربما في أكثر الأمكنة في الهند.

ذلك بأن هذه الطريق طريق مسلوكة عامرة بالسياح الذين يذهبون لرؤية الآثار الرائعة فيها مثل "تاج محل" و(فتح بورسكري) ومقبرة أكبر شاه والقلعة الحمراء.

وفـــي هذه النقطة بالذات وبعض المناطق الأخرى هي سائرة على الطريق الذي كان يسمى (جتى رود) أطول طريق في الهند إذ يبتدئ من مدينة (بشاور) في الشمال التي تقع الآن في باكستان إلى مدينة (دكا) في الشـــرق التـــي هـــي الآن عاصمة (بنغلاديش)، وقد بناه الملك شير شاه ســـوري أحـــد ملـــوك المغـــول، وعَـــبَّده بأن أزال العوائق فيه، وردم

المستنقعات، وسهل العقبات، بحيث أصبح كله صالحاً لطريق العربات التي تجرها الخيل والعربات التي تجرها الثيران والدواب، فضلاً عن سير الآدميين، وجعل على طول هذا الطريق الذي أخبرني أحدهم أنه يبلغ زهاء ثلاثة آلاف كيلومتر محطات للراحة، ففي كل مسافة معينة منزل مؤلف من بناء بالحجر والآجر، أو بالآجر فقط مسقف يقي المسافر الحر والبرد، بجانبه بئر محفورة يستقى منها الماء.

قالوا: ولهذا السبب كان أهل الهند على مختلف دياناتهم وطوائفهم يحبون هذا الملك المسلم ويترحمون عليه كلما ذكروه.

حدود الولايات:

وقد عدنا إلى تخطي حدود الولايات الهندية، فرأينا حاجزاً على الطريق عليه خشبة معترضة كالتي توضع على الطرق الأسفلتية تمنع مرور السيارات، ولكنهم لم يوقفوا سيارتنا مع أننا رأينا السيارات الأخرى من الحافلات قد أوقفت، وربما كان ذلك لأنها سيارة (دبلوماسية).

والولاية التي وصلنا إليها هذه المرة هي ولاية (إترابراديش) أكثر الولايات الهندية عدداً في السكان، كما تقدم، وتسمى اختصاراً ولاية (يو، بي) وهما الحرفان الأولان من اسمها المؤلف من كلمتين.

وقد استرحنا في محطة لراحة المسافرين في قرية (كوسى).

ثم واصلنا السير حتى حاذينا مدينة (متهرا) إلى جهة اليد اليسرى من الطريق، أي جهة الشرق، وهي مدينة مقدسة عند الهندوكيين، فيها كثير من معابدهم القديمة، ومع ذلك يوجد فيها مسلمون كثير، وعدد من

المساجد بعضها ترى مآذنها على البعد، ولذلك وقعت فيها اضطرابات طائفية في الماضي، لقد كان السائق يخبرنا عنها، وأنا أفكر أين سمعت بما يشبه هذا الاسم، ووجدته في ذهني أنه في قصة فتح الهند على يد الفاتح العظيم الملك محمود بن سبكتكين الغزنوي فقد ذكر المؤرخون أنه وصل في إحدى غزواته إلى مدينة مقدسة للهنود اسمها (مترا) وإنهم دافعوا عنها ما وسعهم الدفاع، ولكن الحق أقوى ففتحها السلطان الفاتح العظيم محمود الغزنوي ودك حصونها.

مدينة أقرا:

بعد مسير مائة وثلاثة وتسعين كيلاً من دلهي وصلنا مدينة (أقرا) التي كانت تسمى في القديم (أكبر آباد) وعندما علمت بهذه التسمية تذكرت أبياتاً من المجون لصفي الدين الحلي أنشدتها أخانا ومرافقنا الشيخ عبدالحميد عبدالجبار السلفي، وهو فصيح بالعربية بل معجب بها أشد الإعجاب، ويهوى الأدب العربي، بل يعشقه ويحرص على أن يسمع منه، ويقرأ فيه كل ما يستطيع، وعندما أنشدته الأبيات المذكورة كما علقت بذاكرتي، ولم أعرف أين هي (أكبر آباد) قبل ذلك طرب لذلك وقال: إنه سيترجمها للأوردية ويبني عليها مقالاً ينشره في إحدى المجلات الأدبية.

أما أبيات صفي الدين الحلي فهي مجونية وقحة، ولكنه ذكر أنها رؤيا منام، ويريد بذلك أنها أضغاث أحلام، فما يترتب من الإثم على من يفعل شيئاً في المنام يمكن أن تكفره عقوبة في المنام أيضاً، كما حكى عن أحد العلماء الظرفاء أنه سئل عن رجل زنى في المنام أيجب عليه الحد؟ فأجاب: نعم، يجب عليه أن يحد في المنام!!!

وهذه هي الأبيات:

وليلـــة طـــال ســــــهادي بهـــــا فزارنــــي إبليـــس بعـــد الرقـــــاد

فقال لي: هل لك في (زوجـــة[1]) هـــندية مـــن أهـــل (أكـــبر آباد)؟

قلت: نعـــم، قال وفـــي شـــــادن إذا غَـــنَّى يرقـــص لـــه الجمـــاد؟

قلت: نعـــم، قـــال، وفـــي قهـــوة عتقـــها العاصر مـــن عهـــد عاد؟

قلـــت: نعـــم، قـــال: فـــنم آمـــناً ياكعـــبة الفســـق، وركـــن الفســـاد

علـــى أننـــي لا أحق أن تكون (أكبر آباد) التي ذكرها صفي الدين الحلـــي هي هذه المسماة (أقرا) إذ ربما كانت أقرا سميت أكبر آباد على اسم أكبر شاه الذي هو متأخر عن صفي الدين الحلي بطبيعة الحال، وإنما ذكرت هذه الأبيات من قبيل قولهم (إن الشيء بالشيء يذكر).

مقبرة السلطان أكبر:

اشـــترينا تذكـــرة بروبيتيـــن للشـــخص الواحد أي: أقل من ريال، واستأجرنا دليلاً بخمس روبيات، وهو هندوكي من أهل المنطقة.

وأول شيء تفقدناه في هذه المدينة هو (مقبرة أكبر شاه) الذي توفي عـــام ١٦٠٥م من أشهر ملوك المغول، وتتألف من مساحة واسعة تحيط بها الحدائق والأشجار الوارفة الظلال، وتسمى (باغ بهشت) أي: حديقة الجنة.

أول ما يشاهده المرء منها هو قبة المدخل التي يشبه بابها باب القلاع القديمـــة العظيمة، ،عليه قبة وبأركانه أربع منابر شاهقة، ومن هذا المدخل يـــنطلق ممر مرصوف رصفاً جميلاً بأحجار ضخمة متقنة كل أفاريزه وما

---

[1] وضعت هذه الكلمة بدلاً من كلمة أخرى فاحشة.

يحددها في أطرافه قد صنعت من الحجارة المنقوشة ليس فيها ملاط.

وهذا الممر يقودك في وسطه إلى نقطة تقع في قلب مدخل القبر الرئيسي بحيث أن الذي يكون في المقبرة يقع نظره على وسط البوابة الخارجية، وقد بنيت المقبرة بإشراف مهندس يسمى قاسم خان واستغرق بناؤها ثلاث عشرة سنة، ويلاحظ أننا نذكر ما شاهدناه في هذه المقبرة وأمثالها من باب ذكر الواقع، وليس من باب استساغتها شرعاً، وهذا ظاهر.

وعلى قبة المدخل على المقبرة الرئيسية كتابة آيات قرآنية كريمة.

أما هندستها فهي الهندسة المغولية المتميزة التي هي في الواقع تعتمد أكثر ما تعتمد على فن تركستاني أصله عربي ولكنه مختلط بفن هندي.

وأما القبر فهو في القبة الرئيسية ذات أربع منائر شاهقة، وأروقة عظيمة كل شيء في هذه القبة، أو قل: في هذه القباب المتجاورة مبني بالحجارة الحمراء، ومزين بآيات قرآنية كريمة، بعضها بخط فارسي وبعضها بخط نسخي جميل، وبجانب قبر أكبر قبر لبنته المسماة (آرام بانو) من زوجة له فارسية، وقبر ابن له صغير ليس على ظهر قبره سنام قالوا: إنه لم يسم لأنه مات قبل ختانه وتسميته لأنهم كانوا يسمون المولود الذكر يوم ختانه، وفي رواق من قبة أخرى قبر ابنة له تسمى (شاكر النساء بيقم) كما أن هناك أمكنة مخصصة للدفن ولكن لم يدفن فيها أحد.

طوق من الحيات:

عند باب المخرج رأينا حاوياً معه ثعبان عظيم أرقط في غلظ يد الرجل القوي، لا يكاد يحمله وعندما رأيناه بادر فطّوق نفسه بذلك الثعبان ليرينا مقدرته، ثم قربه منا ليجعله طوقاً لأحدنا فنفر الأصحاب، أما أنا

فقــد وجدتها فرصة سانحة لأثبت شجاعتي لإخواني فتقدمت منه وتركته يجعلــه كالطوق حول رقبتي وقد أحسست بثقله على كتفي، وبحرارةٍ من جسمه حول رقبتي.

وأهمس للقارئ الكريم أنه لم يكن الذي يحملني على فعلي ذلك هو الشــجاعة، وإنمــا هو شيء من الاعتياد إذ كنت قد رأيت بعض الناس يفعلونه من قبل.

فتح بورسكري:

قــال السيد عبدالحي الحسني: فتح بور: مدينة كبيرة مصَّرها أكبر شــاه التيموري على جبل شاهق بمقربة سيكري- بكسر السين المهملة، وكانــت قــرية جامعة، و بنى بها القصور العالية له، وبنى جامعاً كبيراً ومدرســة وحمامــاً، وبنى أصحابه قصوراً عالية لهم بأمره، ثم هجرها السلطان فهجروها.

توجهنا بالسيارة من (أقرا) إلى قرية تبعد عن أقرا مسافة ٣٧ كيلاً، ذكــروا أن فيها آثاراً مهمة تستحق الزيارة، على أمل أن نعود إلى أقرا بعــد ذلــك لنستكمل رؤية معالمها الأثرية التي أهمها تاج محل والقلعة الحمراء فوصلنا قرية تسمى (شاه قنج) وهي قرية أول ما رأينا منها هو جزؤها الشعبي أو قل القروي مبني بالطين، وبالآجر فيها مستنقعات آسنة خضراء اللون رأيت امرأة قد أضناها الهزال من المرض، وربما الجوع وهــي تغرف من هذا المستنقع الآسن بجرة من الفخار وتحمله إلى بيتها ولا أدري مــاذا تصنع به وهو هكذا، وعندما تصورت أنها ربما تشرب مــنه تقززت نفسي إلاَّ أنني رأيت بعد ذلك بئراً قد ازدحم عليه عدد من النسوة للاستقاء، ثم أكثر من بئر مثله يجلب منها الماء.

أمـــا الأهالي والقرية ففي غاية التخلف، ومن الغريب أنني لاحظت في أكثر أنحاء الهند أن هذه المستنقعات تحفر في الأرض حفراً فيه شيء مـــن العمـــق على مسافة متر أو متر ونصف أو نحو ذلك، وينزل إليها نـــزولاً طبيعـــياً فتـــترك مياه الأمطار تتجمع فيها يمنعها تشبع الأرض بالرطوبة من أن تمتصها، ويستعملها الأهالي وهي هكذا آسنة متغيرة لا تنزح ولا تغير.

ثـــم وصلنا إلى الجزء الحديث من القرية وفيه سوق البيع والشراء فوجدناه أحسن حالاً حافلاً بالفاكهة والخضروات، وفي هذه القرية وحولها آثار إسلامية مهمة من مبانٍ وبقايا مقابر، وقلاع ونحوها.

ثـــم واصلنا سيرنا حتى وصلنا إلى حاجز للسيارات هو حد ولاية راجســـتان من ولاية (إتر براديش) التي كنا فيها، وكنا نرى على يميننا آثـــار سور ضخم من الحجارة والفخار ممتد لمسافة طويلة، إلاَّ أن أكثر حيطانه قد تهدمت مع أن بعض أبراجه لا يزالَ قائماً.

هذه فتح سكري:

ودخلـــنا تلـــك القرية أو قل تلك المدينة الأثرية العجيبة من بوابة عظيمة سورها كلها وما حولها من الحجارة الحمراء المنقوشة كأنما فرغ مـــنها الصانع أمس، وسرنا في طريقنا إلى قصر السلطان ومقبرة شيخه سليم الشستي، فصعدنا تلاً مرتفعاً تقع عليه تلك الأبنية.

ومـــن العجائب أننا وجدنا عند باب القصر قطعة من عمود من الصخر إمـــا أن تكون قد سقطت من إحدى البنايات أو تكون قد أحضرت للبناء ولكنهم اســـتغنوا عـــن البـــناء بها، ويستعملها الهنود المحدثون الآن رَصَّاصة للزفت الـــذي تـــبلط بـــه الطريق، وقد رأيت تحتها دعامتين من الحديد لكي تتدحرج

فوقهمـــا، وهكـــذا يعـــود المسؤولون عن الطريق إلى الأدوات القديمة في هذا العصر لعجزهم عن إحضار رصاصة حديثة للأسفلت.

وفتح بور سيكري: قرية صغيرة لم ندخل وسطها، ولم نتجول فيها لأن رؤية هذه الآثار شغلتنا عن غيرها.

قصر الشاه:

بعد حروب وقعت عام ١٥٢٧م بين السلطان المغولي محمد ظهير الديـــن بابر أول ملوك المغول في الهند وأحد أعدائه المسمى (راناسانقا) فـــي هـــذه المنقطة أسس هذا المكان وسماه (فتح بور) أي: بلد الفتح أو موضـــع الفتح، وبنى فيه بعض الأبنية، ولما ولى حفيده الملك أكبر شاه بنى هذا القصر، والمسجد الجامع القريب منه، وقبر شيخه الصوفي سليم الشستي، وجعل (فتح بور) عاصمة له. وتأنق في هذا البناء.



منظر من فتح بور سكري

أمـــا القصـــر فإنـــه كلـــه مبني بالحجارة الحمراء المنحوتة قبابه وممـــراته، وسقفه وعمده، والدعائم التي تقوم عليها السقوف والبلاطات الأرضـــية حتى أفاريز البركة، ونقوش الرواشن وتزيينات الجدران حتى لو كان ذلك عمل من الخشب لعد من الفن الدقيق الباهر فكيف به وهو قد قُدّ من الحجارة قدّاً؟

وقـــد بقي الملك أكبر وهو يتخذ هذه البلدة عاصمة لملكه مدة ١٦ سنة، قبل أن ينتقل عنها ويضم ذلك القصر ديوانه الخاص، ويسمونه الآن (ديوان خاص) أي كما هو بالعربية وديوان عام بهذا اللفظ العربي أيضاً، ومســـاكن لـــزوجاته الثلاث اللائى هن من أديان ثلاثة إحداهن مسلمة، والثانـــية نصـــرانية، والثالثة: هندوكية، المسلمة: اسمها (سلطانة رقية)، والمسيحية: مريم، والهندوكية: اسمها مريم الزماني.

إلى جانب بركة جميلة وساحات واسعة مفتوحة إلاّ أنها كلها مبلطة بالحجارة للاستعمالات الخاصة.

هذا إلى جانب المرافق الأخرى اللازمة والتي لا يمكن وصفها في هـــذه العجالة القصيرة، إلاّ أنه مما يلفت النظر في بنايات القصر منارة قصيرة بناها على قبر فيله الخاص عند ما مات الفيل، وقبة صغيرة مبنية على قبر نديمه المدعو (راجه بيربل) وعلى هذا فقس.

المسجد الجامع:

وبـــنى فـــي جنوبـــي القصر مسجداً جامعاً هائلاً على مرتفع من الأرض الجبلـــية تطل أرضه على ما حوله فكيف بها بعد بنائه؟ وجعل بوابته الجنوبية على مرتفع متدرج وهي فيما يقال أعرض بوابة في آسيا

ذات ثلاثـــة أبـــواب، وقد قست عرضها فبلغ أربعين متراً، تصور بوابة مسجد بعرض أربعين متراً.

وفي هذا الجامع أروقة واسعة وبلاطات عديدة، وأكثر من محراب فـــي قبلـــته، أما قبابه العجيبة فإن كل واحدة منها تخالف الأخرى في تفاصـــيل الصنعة والنقش بالحجارة، وإن كانت تماثلها على وجه العموم بحيث لا يتنافر مرآها مجتمعة.

وكـــل بـــنائه وقبابه وسقوفه، ليس فيه غير الحجارة شيء كأنما الحجـــارة انقلبت بين أيدي المهندسين لدائن من العجين يصنعون منها ما يشاؤون لاسيما إذا عرفنا أنهم لم يقتصروا على البناء والتشييد بالحجارة، وإنما تأنقوا ما شاء لهم التأنق وبالغوا إلى أقصى حدود المبالغة في تزيين هـــذه الحجارة ونقشها بالنقوش الكثيرة المتعددة ذات الفن الرفيع الذي لا يتصـــور المرء قبل أن يراه أنه كان موجوداً في ذلك الزمان، وقد زينت الجـــدران والقباب والبوابات كتابات عربية معظمها آيات قرآنية منها ما هـــو مكتوب على البوابة الخارجية العالية، جعل الكاتب الكتابة في أسفل الجدار أصغر منها في أعلاه، وجعلها كلما أرتفع الجدار يكبر حجمها في ذلك حتى تبدو للناظر موحدة الحجم رغم بعد أعلاها عن أسفلها.

ويقـــال إن المســـجد مبني على مثال بناء المسجد الحرام في مكة المكرمة بناءً على إشارة من الشيخ سليم الشستي.

وســـليم الشستي هذا له دالة على الشاه أكبر وله مقام عظيم عنده، وسبب ذلك فيما يقال أن الملك الشاه أكبر لم يكن يولد له ولد فخاف على العرش أن يذهب من عقبه فدل على هذا الشيخ الصوفي.

وكان يتعبد في مغارة قرب هذا المكان فجاء إليه وطلب منه الدعاء لـــه بأن يولد له ولد ذكر فدعا له، فاستجيب الدعاء وولد للشاه ولد سماه (سليم) على اسم الشيخ.

ولـــيس هـــذا فحسب وإنما بنى له في ركن من صحن هذا المسجد الجامع قبراً كله بالمرمر الأبيض الخالص حتى الشبابيك التي يخيل للمرء إذا رآهـــا أنها من الخشب المدهون كلها من المرمر، وليس ذلك فحسب، وإنمـــا جعلوا لكل منها نقشاً خاصاً، أي تشكيلاً خاصاً من المرمر وحتى قبابه وعمده من المرمر.

وجعل باب القبر من خشب الآبنوس أقوى الأخشاب وأفخرها وفي داخـــل المقـــبرة أحـــاطوا القبر بقبة صغيرة من خشب الصندل المطعم بالصدف، قالوا: إن عمله استغرق ٨ سنوات.

وقـــد دخلـــنا القـــبر من باب الإطلاع إلا أنه أزعجنا ما رأيناه من ســـجود امـــرأة تدعي أنها مسلمة لهذا القبر وذلك بإشارة من سادن عليه ملابـــس تشـــبه ملابس الصوفية، قالوا: إنه ملازم القبر أي سادنه ومعه رجـــل آخـــر ربما كان من أعوانه، وعندما رآنا وعرف من ملابسنا أننا مســـلمون قال لنا بالأردية نماز، نماز، أي: الصلاة الصلاة: يريد منا أن نـــركع أو نصلي عند هذا القبر، فقلنا له نماز حرام ثم أمرنا المترجم أن يفهمـــه أن السجود أو الركوع لا يجوز لغير الله تعالى، وإن الصلاة لله وحـــده، ولكن المترجم ألقى ذلك بسرعة ربما كان ذلك خوفاً من مغبته، وخرجنا من باب قبره لنرى طائفة من اتباعه يغنون ويضربون بالدفوف، آلات الطـــرب وهـــم يتمايلون في صحن المسجد وقال لنا مرافقونا: إنهم

يفعلون ذلك كما كان الصوفية يفعلونه، وإن الناس هنا في الهند يطربون لهـذا النوع من الغناء وينسبونه للشيستية، وهم يفعلون ذلك يطلبون من السـياح الكثيريـن أن يحضـروا معهم ليستمعوا غناءهم وموسيقاهم ثم ينفحوهم بما شاؤا، ولكننا لم نقف عندهم رغم ما لاحظناه من تطلعهم إلينا إنكاراً منا لضرب الدفوف والآلات الموسيقية في المسجد الذي ينبغي أن يـتلى فـيه كـتاب الله مـع إن هذا المسجد بالذات يفعل فيه من الأمور الشـركية والبدعية عند قبر الشستي الشيء الكبير، وقد وجدنا في صحن هذا المسجد قريباً من قبر الشستي قبوراً كثيرة بعضها لاتباعه، وبعضها لأقاربـه وذويـه، ورأيـت فيها قبراً حديثاً إلاَّ أنه لم يكن مرفوعاً عن الأرض وقرأت عليه بالأردية أن صاحبه اسمه الحاج بهادور اختر عادل وإنه توفي عام ١٣٨٢م، وقال لنا الدليل: إن هذا من نسل الشيخ الشستي وإن بيـنه وبينه اثني عشر جداً مع ملاحظة أن الشيخ الشستي مات عام ١٥٧١م أي منذ أكثر من أربعة قرون.

وإننا نصف ما رأيناه هنا من حال هذا القبر وما عنده ليس من باب الإقـرار حاشـا وكـلا ولكنه من باب الإخبار عن أمر أبتلي به بعض المسـلمين على مختلف أقطارهم وأمصارهم وذلك من البناء على القبور وتعظيمها والصلاة عندها، وسؤال المقبورين والخوف منهم ورجاءهم مع أنهم المحتاجون للدعاء والاستغفار لأنهم خرجوا من دار العمل أي الحياة الدنيا إلى دار الجزاء في الآخرة، ولكنه الجهل والبدع.

والأمل أن يهدي الله قادة المسلمين ويبصرهم في أمور دينهم حتى يرجعوا إلى ما كان عليه السلف الصالح من صحابة رسول الله صلى الله علـيه وسـلم، وأتـباعهم الصـالحين الذين فهموا الإسلام فهماً صحيحاً

فاعتمدوا على العمل الصالح دون الاتكال على أحد إلاّ على ربهم، وبذلك فتحوا البلاد وسادوا العباد، ونشروا العدل بين الناس فاقتدى الناس بهم، ودخلوا في دين الله أفواجاً.

هذا وقد خرجنا من (فتح بورسيكري) بعد أن قضينا فيها ثلاث ساعات من أمتع ساعات العمر رغم التنقل على الأرجل من مكان إلى مكان، والصعود إلى سطوح بعض المحلات مثل المبني المسمى ذي الدرج الخمس في قصر الشاه الذي يطل من صعد إلى سطحه على المنطقة كلها.

مُغُلْ هوتيل:

خرجنا من (فتح بورسكري) في تمام الساعة الثانية بعد الظهر فقررنا أن نتناول طعام الغداء ونرتاح في محل نظيف فقيل لنا: إن فندقاً جديداً أنيقا افتتح منذ أشهر في أقرا وأن اسمه (مغل هوتيل) أي فندق المغول.

دخلناه وفي أذهاننا عن المغول وعن ملك المغول أكبر شاه ما شغلها وملأها بالتفكير وتوقعنا أن يكون في فندق المغول شيء مما يدل على المغول، ولكن لم يكن شيء من ذلك، كان أول من رأيناه على مكتب الاستقبال فتاة هندية جميلة، وما أقل الجميلات في هذه البلاد استقبلتنا بابتسامة أوروبية تسألنا عن عدد الغرف التي نريد؟ فأجبناها بأننا لا نريد غرفاً وإنما نريد طعاماً واستراحة فهدتنا إلى مكان الطعام.

وكان مطعماً أوربي الطراز، حديث الرياش، ليس فيه مما للهند من نصيب إلا الفلفل الكثير في الطعام، والدسم الجم في الإدام، وما كان على بعض الخدم من الهندام.

واسترحنا من التعب، وأطلنا فيه المكث، ثم غادرناه لنستأنف جولتنا في مدينة (أقرا) التاريخية قاصدين أبرز معالمها، وأظهر آياتها، وأشهر بناياتها، بل نكاد نقول أشهر أبنية آسيا هو تاج محل.

وكلمتاه عربيتان فصيحتان، فقد بناه الملك شاه جيهان أي ملك العالم قبراً لزوجته (ممتاز محل) وهذه كلمات عربية وإن كان فيها تقديم للمضاف على المضاف إليه.

"تاج محل" كتب عند الكاتبون، وقال فيه القائلون، ما جعله يكاد يكون معروفاً للجميع وإذاً لماذا الإطالة؟ وربما تكفي عنها الإحالة، وإن كان لابد من مقال فلا ينبغي أن يكون مما طال.

كان لشاه جيهان بن الملك جهانقير أحد أباطرة المغول العظام الذي اتخذ من مدينة أقرا عاصمة لملكه زوجة عزيزة لديه، أثيرة عنده أحبها حباً عظيماً، وعاش معها دهراً لا يكادان يفترقان حتى دهمها مرض وهي تشرف على الولادة فلما دنا أجلها طلبت منه أن يعتني بأولادها وألا يتزوج بعدها فوفى بذلك كله لها، وبنى لها هذا القبر الذي أصبح معلماً من معالم البناء في العالم جلب إليه المهندسين من أقطار الدنيا، وأحضر مواد البناء من أقاصي البلاد وأدانيها مما هو تحت ملكه ومما هو خارج نطاقه يشتري ذلك بما غلا ونفس من مال، أما الجواهر والأحجار الكريمة فقد جمع منها ما لم يجمعه غيره في زمانه ليزين بها هذا البناء، ويكمله كل ذلك في فن خلاب للأفئدة أخاذ للقلوب، ولا يزال رغم مضي زهاء أربعة قرون عليه تتجدد روعته ويزيد تألقه في القلوب والأبصار، فقد زرناه هذه المرة بعد العصر فأرانا الدليل وهج الشمس منعكساً على صفحته الخارجية كأنها المرآة لم تجعله القرون يخبو ولا يصدأ.

أول مـــا دخلـــنا البوابة الخارجية رأيناه يحيط به من جهة الغرب جـــنات مـــن البساتين خلالها عقود من الزهور، ويخترق الممر الرئيسي نـــافورات تـــتراقص مياهها مع نسمات الأصيل الذي يحاول أن يعانقها فيغلبها الحياء فتعود منكسة ذوائبها إلى الأرض، ويطل من جهة الشرق ومن علو زاهٍ على ضفة نهر جمنى المقدس عند الهندوكيين.

وقد دفعنا مبلغ روبيتين اثنتين رسماً للدخول عن كل شخص، وقلنا: مـــا أرخص المتعة ولو طلبوا منا مائتين لدفعناهما طائعين، ولكنهم فعلوا ذلـــك ليغروا الهنود بقلة النقود على زيارته ثم ليجمعوا من ذلك أضعاف ما يجمعونه منه إذا كان لا يزوره إلا القادرون النادرون.

وجدنـــا دلـــيلاً مـــن المسلمين شيخاً هزيلاً ذا قلنسوة كلوية الشكل مزركشة بنقوش من الخيوط حمر وزرق فسألناه: كم رسمك يا شيخ على الهداية والشرح؟ فأجاب بالأردية: بانج، أي خمس، فقلنا له: وماذا تحسن مـــن اللغـــات؟ فقـــال: مـــا شئتم من إنكليزية وأردية وكان معنا الشيخ عبدالحمـــيد بـــن عبدالجبار السلفي وهو باللغتين العربية والأردية عليم، فقال: ليكن بالأوردية لغته الأصلية، فذلك أبعد عن التكلف وأوفى للشرح وأنا بترجمة ما يقوله إلى العربية زعيم.

قصـــدنا أول ما قصدناه المسجد الجامع الواقع في جهة الغرب من المبنى الرئيسي الذي فيه القبر وبينه وبينه ساحة واسعة مكشوفة مفروشة فرشـــاً محكمـــاً بـــبلاطات من الحجر الأحمر تتوسطها فسقية، أي بركة يتوضأ منها من أراد الصلاة، ولم يكن في المسجد فراش فجاء رجل ربما كـــان المـــؤذن فأعطانا الفراش وبعد الصلاة أخذ الفراش، وما تيسر من حلوان (بخشيش).

أخذ الدليل يقص علينا من قصص هذا البناء ومن قصص بانيه شاه جيهان أي ملك العالم، وزوجته ممتاز محل قصصاً شيقة لا شك في أنه طعَّم ما لا طَعم له منها بالخيال ومن ذلك قوله: إنها أنجبت للملك أربعة عشر ولداً ماتت عند ولادتها الرابع عشر وإن الملك حنط جثتها وأبقاها حتى تم هذا البناء، وقال: في هذا المكان وأشار إلى جهة الغرب بقى جثمانها المحنط ست سنوات.

أقول: أكثر العلماء المحققين ذكروا أنها ولدت له أربعة أبناء وثلاث بنات.

ثم قال الدليل: إن عشرين ألف عامل استمروا يعملون فيه لمدة اثنتي عشرة سنة وستة أشهر.

ثم دفن فيه زوجته المسماة (أرجمند بانوبيقم) والملقبة (ممتاز محل) وهو لقب شرف لها حلّ محل الاسم وقد ماتت عام ١٠٤٠هـ، أما زوجها الوفي لها (شاه جيهان) فقد مات في عام ١٠٧٦هـ، هكذا مكتوب بالأردية أو الفارسية على قبريهما لا أدري في أي اللغتين ولكنني قرأته وفهمت الأسماء والتاريخ لأن الكتابة هي بالحروف العربية بطبيعة الحال.

القلعة الحمراء:

هذه قلعة عظيمة سميت بالحمراء لأن أسوارها وأبراجها الخارجية، بل ومعظم أجزائها بنيت بالحجارة الحمراء.

أول ما راعنا منها بعد منظرها العام الرائع، خندق عميق ملئ بالمياه حتى الآن لا يمكن تجاوزه إلا بوسائل العصر الحديث، عليه جسر صغير لمن يدخل من البوابة الرئيسية، ومن غرائب هذه القلعة أنه يوجد

داخل بوابتها الرئيسية هذه بكرتان ضخمتان من الحديد عليهما أسلاك ضخمة غاية في القوة والضخامة أعدتا لجر هذا الجسر الموضوع على مدخل القلعة ليصبح الخندق محيطاً بها فلا يستطيع العدو أن يصل إلى الباب، ولكن كيف يمكنهم تحريك هاتين البكرتين الضخمتين؟

الجواب: إن ذلك يتم بقوة فيلين اثنين أعدا لهذا الغرض، إذْ لا تستطيع قوة معروفة في ذلك العصر غير الفيلة أن تقوم به.

وتقع القلعة على مرتفع جبلي يصعد إليه بعد الدخول من البوابة الرئيسية في ممرات رصفت بالحجارة الخشنة من غير درج.

قالوا: إن فائدة ذلك أنه إذا افترض أن دخل العدو فإنهم يكونون قد أعدوا أعداداً من الحجارة الكبيرة المتدحرجة يرسلونها عليه من هذا الارتفاع فترد العدو أو تصده.



القلعة الحمراء

وقـــد استأجرنا دليلاً تبين أنه هندوكي الديانة بخمس روبيات وقال: إنها بناها أكبر شاه في مدة ثمان سنوات وإنه عمل في بنائها سبعة عشر ألـــف عامل، وإن ولده سليم الملقب جهان قير قد بنى فيها أشياء كما أن الملك أورنج زيب قد أكمل شيئاً من بنائها، وكان المهندس المشرف على بنائها من قبل أكبر شاه هو قاسم خان، وكمل بناؤها في عام ١٥٤٧م.

وقـــد جعل لها سورين أحدهما داخلي، و الآخر خارجي زيادة في المنعة والقوة.

وقـــد تجولـــنا فـــي هذه القلعة وقضينا ساعات ممتعة في مشاهدة محـــتوياتها الرائعة من ذلك: مسجد اللؤلؤ بناه الشاه جهان قير واستغرق بـــناؤه ٧ سنوات، وكله من المرمر قيل إنه بناه من المرمر الذي كان قد بقي من بناء (تاج محل) زائداً عما احتاج إليه، وجميع ما في المسجد من سقوف وأعمدة وبلاط أرضيات ومنارات حتى الزينات والزركشات كله بالمرمر الأبيض.

ومن الأشياء اللافتة للنظر في هذه القلعة الحمراء البيت المثمن أي ذو الأضـــلاع الثمانية فيه مجلس خاص به نافورة مرمرية جميلة قالوا: إنهم كانوا يصبون ماء الورد في خزان في أحد السقوف البعيدة فتبدأ هذه الـــنافورة برش ماء الورد على هذا المجلس ومن فيه، وجميع أعمدة هذا البيت مطعمة بالجواهر والأحجار الكريمة.

وقد رأيت بعض ما بقي منها مما لم يقلعه اللصوص والسراق رائعاً إلا أنـــه صغير الحجم لأنه في أصل النقش مجعول ليملأ فراغاً صغيراً وهو من أنواع من الجواهر كثيرة.

ومكان آخر هو مجلس لشاه جيهان بناه في هذه القلعة ولكنه مقابل لتاج محل، كان يجلس فيه يشاهد تاج محل موضع قبر زوجته العزيزة وهو في مكان مرتفع يطل على نواح بعيدة لا يحد البصر فيه حاجز ومن تحته أسوار القلعة العظيمة، وضفة نهر جمني الشهير، وأرانا الدليل جداراً مرمرياً صافياً فيه قال إن شاه جيهان كان يحضر عنده المصحف الشريف ليلاً ليقرأ القرآن على ضوء القمر المنعكس على هذا الجدار لشدة صفائه ولمعانه، وقال: إنه كان طول الدهر يذهب كل يوم جمعة لزيارة قبر زوجته ويقرأ الفاتحة عندها، وإنه لما أسرف في الإنفاق سجنه ابنه سليم جهان قير في هذه القلعة، فكان يجلس في هذا المجلس يقرأ القرآن عوضاً عن الذهاب إلى قبرها.

ومن أغرب ما في هذه القلعة موضع يسمونه (شيش محل) أي: بيت الزجاج وهو مكان مكون من غرفتين بينهما ممر إذا أوقدت فيه مصباحاً لامعاً أخذ يلمع كله بما في ذلك سقوفه ويكفيه ذلك المصباح الواحد، والسبب أن جدرانه وسقوفه مغطاة كلها بمرايا لامعة تحت النقوش تعكس الضوء وفي وسطه حمام لا يصل إليه الهواء.

وفي هذه القلعة مكان ذو بوابة عالية بناه أكبر شاه، ورسم عليه نقوشاً تمثل الأديان الخمسة المعروفة في بلاده في ذلك الوقت وهي الإسلام والهندوكية والبوذية والنصرانية واليهودية، فجعل الفن الإسلامي ممثلاً في نقوش إسلامية عربية بديعة وبقية الأديان بفنونها، وقالوا: إن هذا من الدلائل على أن أكبر شاه لم يكن متحمساً للإسلام، بل قيل: إنه اخترع ديناً لفقه من الأديان المعروفة في عهده وسماه (الدين الالهي)، يريد بذلك أن يجمع جميع أفراد رعيته على ذلك الدين، وبعضهم يقول:

إن مــراده من ذلك هو سياسي لكي يتألف الناس، ولكن هذا التفسير إذا صح يدل على عدم إخلاصه للإسلام لأنه لو كان مخلصاً لدينه لما تألف الناس بما يخالفه.

هــذا وقد خرجنا من هذه القلعة الحمراء وأجسامنا قد تعبت، ولكن مشاهدتها متعة ما بعدها متعة.

وكانــت الشمس قد قاربت الغروب، فذهبنا إلى أماكن تبيع التحف والهدايا المصنوعة في تلك المنطقة فأنفقنا فيها بعض الوقت.

العودة إلى دلهي:

بدأنـــا العــودة إلى مدينة دلهي وقد أظلمت السماء بالسحاب حتى أربــدَّت ثــم جـــاء الــبرق كالشهب المتلاحقة المتلاصقة، أعقبه الرعد القاصف، وبعدها جاء المطر الجود فانهمر كأفواه القرب وغمر الطريق حــتى لا تعــرفه من غيره فأوقفنا السيارة في انتظار وقوفه لأننا فوجئنا بســحابة تأتـــي ومعها المطر والبرد، الذي أخذ يصقع سيارتنا بأصوات تحطــم الأعصـــاب وخشـــينا على زجاجها وطلائها فاستمر مدة مديدة، واصــلنا بعدهـــا السير حتى وصلنا استراحة (كوسي) فلبثنا فيها بعض الوقت وتعشينا ولم نصل إلى فندقنا في دلهي إلى عند منتصف الليل.

يوم الأربعاء ٤/٥/١٩٧٧م

في مقر الجماعة الإسلامية:

ذهبنا في الساعة الثامنة والنصف إلى المقر الرئيسي للجماعة الإسلامية في الهند بدعوة من رئيسها الشيخ الجليل المجاهد محمد يوسف قواه الله ووفقه للخير، فوجدنا في استقبالنا كبار المسئولين في الجماعة ورؤساء تحرير الصحف التي تصدرها الجماعة بالإنكليزية والأوردية والعربية والهندية إلى جانب عدد من العلماء.

وقدموا طعام الإفطار وتخلل ذلك أحاديث شيقة مستفيضة عن حالة الإسلام والمسلمين في الهند استفدنا منها كثيراً.

وأطلعونا على المطبوعات التي يقومون بنشرها بلغات كثيرة مستعملة في الهند وقضينا عندهم أكثر من ساعتين تجولنا أثناءها على أقسام المقر وعلى المطابع التي تطبع الكتب الإسلامية وتبيعها بثمن التكلفة ومستودعات الكتب وودعناهم شاكرين.

ويقع مقر الجماعة في حي إسلامي قديم يسمى (بازار شتلي قبر) وشتلي: صوفي قبرَ هناك فسمي الحي على اسمه، وهذا الحي قريب من جامع دلهي العظيم، الذين يسمونه (جامع مسجد).

قطب منار:

هكذا اسمها عندهم والوجه في العربية أن يقال (منار قطب) لأنها منارة هائلة منسوبة إلى قطب الدين إيبك فاتح دلهي أو دهلي كما كانت تسمى قديماً وهو أحد الحكام العظام الذين تولى الحكم في الهند وعملوا

إصـــلاحات واســـعة فيها وبخاصة ما يتعلق بإشاعة العدل والمساواة في الحقوق بين الرعية.

وهـــذه المنارة شاهقة رائعة بل هي من عجائب الدنيا، و اعتقد أنها جديـــرة بالرؤية مثل جدارة تاج محل ذلك بأنها يصح أن توصف بأنهـــا جـــبل صناعي شاهق في الســـماء مبني بهندسة عجيبة إذا رأيـــت الخطوط العربية والآيات القرآنية التي قدت في صخورها قداً قلت في نفسك إنك أمام مبنى عربـــي، وإذا رأيـــت الهندســـة بمجموعها أيقنت أنك أمام مبنى هـــندي مطعـــم بالفـــن العربي، فالطراز المغولي الذي تشتهر به البنايات في الهند لم يكن قد ولد بعـــد عـــندما بنيت هذه المنارة، فهي قبل المغول وعهدهم و إنما هي في عهد يصح أن يدعى عهد المماليـــيك لأنـــه تولى الحكم في الهند خلاله عدد من الملوك الذين أصـــلهم مماليـــيك كالذين تولوا الحكم في مصر والشام.



قطب منار في دلهي

وقطب منار هي الباقية الظاهرة من مسجد عظيم اسمه (مسجد قوة الإسلام) بناه قطب الدين أيبك هذا وقد بقيت منه بقايا عظيمة مبنية بالحجارة الضخمة من الأعمدة وبقايا الأقواس، وأصل منارة أخرى عظيمة قالوا: إنه كان من المقرر أن تكون أعظم وأضخم من المنارة الحالية ولكن بانيها عجز عن إتمامها فبقيت كما هي في ارتفاع لا يتجاوز سبعة أمتار في الوقت الحاضر، والذي حاول بناء هذه المنارة التي لم تتم هو علاء الدين الخلجي ولكنه مات قبل أن تكمل وتقع مقابلة لمنارة قطب منار من جهة الشمال.

وتتألف منارة قطب أو (قطب منار) من خمسة أجزاء يركب بعضها بعضاً الجزء الأعلى أصغر حجماً من الذي أسفل منه صعدنا إلى الجزء الأسفل منها فوصلنا أعلاه بعد تعب وبعد أن صعدنا فيه مائة وثلاثاً وخمسين درجة.

ويقال: إن قطب الدين بنى الجزء الأسفل منها ثم أكملها غيره من الملوك، ولكنها بقيت منسوبة إليه (قطب منار).

أسطوانة السعادة:

في ساحة هذا المسجد العظيم اسطوانة واقفة أي: عمود من الحديد الخالص الذي يقولون إنه لا يصاب بالصدأ وشكلها على غير شكل الأعمدة الأخرى تسمى عند المتأخرين من أهل هذه البلاد أسطوانة السعادة.

وذلك لاعتقاد العامة والغوغاء فيها بأن من وقف عندها فجعلها خلفه وحاول أن يجعل يديه تحيط بها وهو مستدبر الأسطوانة بحيث تلتقي طرف أصابع يديه فإنه يكون سعيداً أما من لم يستطع ذلك فإن هذا يعني أنه ليس من أهل السعادة.

ومن الغريب أنني رأيت أعداداً من أهل البلاد يقفون ملاصقين للعمود المذكور وقد أولى الواحد منهم ظهره للعمود ثم يلف عليه يديه يحاول أن يحيطا بالعمود من ورائه فلا يستطيع، ورأيت منهم من يعاونه بعض الذين معه، وتسمى هذه الأسطوانة (أسطوانة راجاسندر قتبا) قالوا: إن عمرها ستة عشر قرناً!

وعندما تقدمت من باب التسلية إلى فعل ما فعلوه أحطت بها بسهولة بحيث تلامست أصابع يدي حول العمود فصفق الحاضرون من أهل البلاد.

وربما كان هذا يدل على قصر قليل في أيديهم أو طول قليل في أيدينا أو هو شيء غير هذا أو ذاك ولكنه شيء في غذائهم يجعل أيديهم غير مرنة والله أعلم.

والواقع أن هذه الأسطوانة أقدم عهداً من المسجد إذْ يقال: إن من أقامها هو أحد ملوك الهند في القرن الرابع الميلادي.

و(مسجد قوة الإسلام) وما حوله يعتبر في الحقيقة بقية من مدينة (دهلي) الإسلامية الأثرية القديمة، إذْ هناك غير بعيد منها سور حجري مبني بالحجارة الحمراء المتقنة البناء وعلى أحد الأجزاء من هذا السور الحجري العالي كانت هناك حمامات من (القمري) تنوح ذكرني نواحها بمجد إسلامي أولى بالمسلمين أن ينوحوا عليه إذا كان نواحهم سيوقظ في نفوس إخوانهم من المسلمين في البلاد الإسلامية الغيرة والنخوة الإسلامية حتى يسارعوا إلى نصر إخوانهم في هذه البلاد بعد أن يكونوا هم قد عملوا لأنفسهم العمل الإسلامي الخالص.

وجميع ما في منارة قطب يذكر بالمجد الإسلامي الضائع وأظهر ذلك في الكتابات العربية البارزة في هذه الحجارة الحمراء الضخمة وكلها آيات قرآنية أو أحاديث نبوية أو عبارات إسلامية شائعة.

وقد أصبحت الآن أثراً يراه الناس ومنهم المسلمون يتفرجون بشكله على قوة للإسلام زالت ودولة للمسلمين في الهند دالت، نسأل الله تعالى أن يعز الإسلام والمسلمين.

قال السيد عبدالحي الحسني من علماء الهند في كتابه (الهند في العهد الإسلامي):

قطب الدين أيبك:

الملك الكبير قطب الدين أيبك الدهلوي السلطان الباذل الفاضل، كان من مماليك السلطان شهاب الدين محمد الغوري، أمره على عساكره بالهند سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، وأقطعه بعض البلاد والقلاع في ناحية دهلي، فضبط قطب الدين تلك البلاد وأحسن السيرة في الرعية وسار إلى ميرته فملكها، ثم سار إلى دهلي وقاتل صاحبها أشد قتال فهزمه.

دخل دهلي سنة تسع وثمانين وخمسمائة وجعلها دار ملكه، ثم سار إلى كول، ففتحها عنوة، وأخذ الغنائم الكثيرة، ولحق بشهاب الدين حيث قدومه إلى الهند سنة تسعين وخمسمائة، فجعله شهاب الدين طليعة لعساكره، وبعثه إلى قنوج، فلقيه ملكها جي جد، فقاتله أشد قتال حتى قتله، وأقام بقلعة أسنى مدة من الزمان، فما استقر بتلك البلاد أراد أن يرجع إلى دهلي فسمع أن هيمراج خرج على كوله ولد برتهى راج، فسار إلى أجمير وانتزع البلاد من يده، وولى على أجمير واحداً من

خواصه سنة إحدى وتسعين وخمسمائة، ثم سار إلى كجرات ووصل إلى "نهرواله"، فلقيه عساكر صاحبها.. فقتل مقدم العسكر.. ثم عاد إلى الهند وأتم بناء الجامع الكبير ببلدة دهلي سنة ٥٩٢هـ إلى أن قال: ومات سنة ٦٠٧ ببلدة لاهور، فدفن بها.

وقال الشيخ سليمان الندوي في كتابه: (تاريخ الصلات بين البلدان العربية والهندية):

كان قطب الدين أيبك- أحد مماليك شهاب الدين- الذي تولى حكم "دهلي" بعد سيده الذي كان أكثر المماليك الثلاثة قوة وجدارة وعظمة، فقد سبق له أن ساهم مع سيده مساهمة كبيرة في فتوحاته بالهند كقائد أعلى لجيشه.

وسرعان ما استولى قطب الدين على بلاد ناصر الدين قباجة إثر وفاته: وهي السند وما جاورها من البلدان وضمها إلى دهلي العاصمة وأسس دولة المماليك بالهند في سنة ٦٠٢هـ- ١٢٠٦م.

وكذلك كان قطب الدين يمتاز بالتدين والصلاح والتقوى، وقد أعاد فعلاً للإسلام في الهند رونقه وصفاءه وهيبته وعظمته، وذلك لأنه تربّى أول ما تربى- قبل شراء شهاب الدين الغوري له- على يد القاضي فخر الدين عبدالعزيز بنيسابور، وكان هذا القاضي من سلالة الإمام الأعظم أبي حنيفة رضي الله عنه.

وقد تولى بالإضافة إلى القضاء بنيسابور- مهام إدارة شئون ضواحي نيسابور.

مغادرة الهند:

كانت مغادرة الهند في مساء هذا اليوم على طائرة للخطوط الجوية الباكستانية، وفي الدرجة الأولى التي تتسم معاملة المضيفة فيها بالذوق الرفيع، والخدمة الممتازة والسخاء في تقديم الطعام والشراب حتى لا يكاد المرء يصدق بأن هؤلاء القوم كانوا في وقت من الأوقات يتقاسمون مع أهل الهند بلداً واحداً ويعيشون معيشة متشابهة.

ولم ينقص من متعة السفر مع الباكستانيين إلا تقديم الخمر لركاب الدرجة الأولى بالمجان كما تفعل الشركات الأخرى التي تملكها بلاد غير إسلامية.

وما كان أجدر إخوتنا في باكستان بتحريم تقديم الخمور على طائراتهم كما فعلنا نحن ولم ينقص ذلك من عدد الركاب الأجانب عندنا، بل إن خطوطنا السعودية هي من أكبر الشركات الناجحة في الشرق الأوسط حتى في نقل غير المسلمين كما هو معروف.

عَوْدٌ إلى شمال الهند

كنت قدمت إلى الشمال الشرقي من الهند وذلك لافتتاح مبانٍ إسلامية للجمعية السلفية في بتنه عاصمة ولاية بيهار، وقد ذكرت ذلك في كتاب: (الشرق الشمالي من الهند) وهو كتاب مطبوع.

وفيما يتعلق من تلك الرحلة بشمال الهند وجدت في مذكرتي الأوراق التالية:

يوم الاثنين: ١٨/٦/١٣٩٩هـ - ١٤/٥/١٩٧٩م:

من بتنه إلى لكنو:

كان هذا اليوم في بتنه حاراً جداً حتى إنه ذكرني بحر المدينة المنورة في فصل الصيف، وقد أخبرني إخواني أنه من أشد الأيام التي عرفوها في هذه السنة حراً.

ومع ذلك خرج إلى المطار لتوديعي طائفة من الإخوان والمحبين فيهم عدد كبير من الشيوخ، وزاد الطين بلة، أو قل زاد الحر حراً أن أبنية المطار ضيقة جداً فكان الناس فيها وقوفاً لكثرتهم، وقد تأخر وصول الطائرة من كلكتا وكان من المقرر قيامها في الثالثة وعشر دقائق ظهراً، فلم تقم إلا في الرابعة والثلث عصراً.

وكان وداع الإخوان في المطار حاراً معنى وحقيقة، ولم يكن معي أحد من إخواني السعوديين إذ السفير الشيخ صالح الصقير كان قد عاد إلى دلهي أمس والشيخان مندوبا الجامعة الإسلامية غادرا بتنه إلى كلكتا صباح هذا اليوم.

قامت الطائرة الهندية من طراز بوينج ٧٣٧ وأكثر مقاعدها ملئ بالركاب غير أنه كان لا تزال فيها بقية من مقاعد خالية.

وكان قيامها حاداً متعباً واتضحت لنا بعد أن استقلت من المطار ضواحي مدينة (بتنه) جميلة منسقة فيها مبانٍ متفرقة بين حدائق وليست كالأقسام التي تمشينا فيها من البلدة القديمة.

ويقع في جانبها نهر (قانقا) أقدس الأنهار المقدسة عند الهندوكيين ولكن مياهه في هذه الأيام قليلة لأنها هي أيام الجفاف، ولذلك لم تشغل المياه من مجراه العريض إلاّ حوالي الخمس والباقي أرض رملية أو طينية جافة.

كان ارتفاع الطائرة سريعاً حاداً وكان الجو فوق سطح الأرض حاراً لذلك كانت هناك (مطبات) هوائية ولكن الطيار لم يبال بها أو بما قد يسببه ذلك للركاب من مشقة، وزاد ذلك مشقة عندما وصل إلى منطقة سحب كانت موجودة فأخذ ينطحها برأس طيارته نطحاً فتهتز الطائرة وتضطرب، ولكنه لا يبالي بذلك.

ولم تستقر الطائرة في الجو إلاّ بعد أن ارتفعت فوق السحاب وعندما فعلت ذلك صرنا لا نرى الأرض الهندية بوضوح مع أن منظرها لم يكن مريحاً في هذا الفصل لأنه يبدو على البعد وكأنه منظر الأرض الجافة التي توشحها أشجار خضر غير كثيفة.

كان المضيفون في الطائرة من الإناث كما كانت في الطائرتين الهنديتين اللتين ركبت فيهما منذ وصولي إلى كراتشي، وكانت ثلاث مضيفات إحداهن ذات ملامح مغولية، كما كانت معظم الطائرات لا تخلو من هذا الجنس الذي هو من شمال الهند من منطقة جبال الهملايا، وكلهن لسن على قدر مناسب من الجمال.

أما الضيافة في هذه السفرة التي أعلنت المضيفة نفسها أنها سوف

تستغرق خمسين دقيقة فكانت كأساً غير مليء من عصير التمر الهندي، وهذه هي أول مرة أراهم فيها يقدمون هذا العصير الذي لا يكلفهم كثيراً فهو من إنتاج بلادهم ليس معه إلا قليل من السكر، وفكرت بهذه المناسبة في عصير التمر العربي لماذا لا نصنع من التمر عصيراً يكون شراباً لذيذاً حلواً ويكون في الوقت نفسه بمثابة الشعار في الشرب لبلادنا؟

في مطار لكنو:

لكنو هي عاصمة ولاية (ترابراديش) أكبر الولايات الهندية من حيث عدد السكان وقد ذكرت ذلك فيما سبق ومعنى إترا: الشمالية ومعنى برادتش: ولاية فهي إذاً الولاية الشمالية ويبلغ عدد سكان مدينة لكنو نفسها مليوني نسمة.

وهي واقعة على نهر قمتي، فيها أبنية رفيعة للأمراء، وبيوت لمآتم الشيعة انتقل إليها آصف الدولة من فيض آباد فصارت مقام الأمراء.

ولكن ليس هذا هو الذي حدا بي إلى التعريج على هذه المدينة في هذه الرحلة فذلك أمر لو كان وحده لم يحملني على زيارتها لأنني سبقت لي زيارتها منذ أربع سنوات، وإنما حملني على زيارتها هذه المرة هو ابتغاء اللقاء بصديقي الشيخ أبي الحسن الندوي وتجديد العهد بزيارة ندوة العلماء التي يشرف عليها.

ورغم ما بيني وبين الأستاذ أبي الحسن الندوي من صلة قوية قديمة فإنني لم أشأ أن أبرق له بوصولي وإنما كنت قررت أن أتصل به بالهاتف بعد أن أكون قد وصلت إلى الفندق في لكنو إلا أن أحد الإخوة الذين يعرفونني في بلادنا، وسبق أن زارني بصحبة الشيخ أبي الحسن

الـــندوي وكـــان هـــذا الأخ قـــد حضر إلى بتنه مندوباً عن ندوة العلماء لحضور الاحتفال عرف بعزمي على السفر فأبرق لندوة العلماء بذلك فلما وصلت إلى مطار لكنو وجدت فيه الأخوين الجليلين محمد الرابع الندوي والشـــيخ ســـعيد الأعظمي الندوي رئيس تحرير مجلة (البعث الإسلامي) ومعهما سيارة الندوة.

وكـــان الجو في مطار لكنو حسناً وقد زادت الساعة على الخامسة عصراً إلا أن هناك سحاباً يرسل نسمات مقبولة أخبرني إخواني أن الجوّ قـــد تغـــير في عصر هذا اليوم بسبب هذا السحاب الناشئ وإلا فهو كان حاراً شديد الحرارة في الظهر.

سارت السيارة مع طريق كنت أعرفه من قبل ولم يتغير منه شيء وهـــو طويـــل أكـــثره في البلدة وإن كان ذلك بمثابة الامتداد لها وليس الاختراق لوسطها ويبلغ طوله من المطار إلى الفندق (١٧) كيلاً.

وكانـــت هـــذه الســـاعة هي ساعة الازدحام إذْ هي وقت انصراف الناس من أعمالهم في الشركات وبعض المتاجر كما أنها ساعة الخروج إلى الشوارع وفيها وفي أمثالها جاء المثل الهندي المشهور (صبح بنارس ومساء لكنو) فصبح بنارس شهدته وذكرته في كتاب (الشمال الشرقي من الهند) وهذا هو مساء لكنو وإن كان المكان الذي عني به ذلك المساء ليس هـــو هـــذا الشارع الطويل الامتداد فإن له منه نصيباً فغواني لكنو وغير الغواني من أهلها قد خرجن، وخرج معهن غيرهن من يستطيع الخروج حتى الجواميس شاركت هذا الشارع الطويل الامتداد، وقد أخذت الغواني زينتهن من ملابس فضفاضة إلا فوق الصدر وما حاذى أسفل الصدر من الظهـــر ومـــن مساحيق على وجوه بعضهن وكحل في عيون بعضٍ كان

الشارع إذاً مزدحماً ولكن كان أشد ما يضايق فيه ليس زحام السيارات كما هو عليه الحال في أكثر البلدان، وإنما هي الدراجات الهوائية التي تسير بأرجل الآدميين، يسيرونها بها وهي على قسمين أحدهما الدراجة العادية التي يسيرها الرجل بقدميه في نفسه لنفسه، والأخرى التي تسمى الركشا وهي التي يستعملها الرجل بمثابة (التاكسي) أو عربة الأجرة فهو يؤجرها ليركب بها الناس ويسيِّرها بهم، فتراه وقد نفرت عروقه وبان التعب على وجهه وبخاصة إذا كان الراكب الذي يحمله بعربته ثقيل الجسم سميناً، وهذه العربات (الركشاوية) هي كثيرة بشكل لافت للنظر.

أما العربات الأخرى فأظهرها وأكثرها مضايقة هي حافلات الركاب الكبيرة التي تملأ الجو بسحب الدخان الكثيف تنفثه من أنابيب الدخان الفاسد فيها وهي من التي يسيرها وقود الديزل، فتلوث الجو، وأحياناً تؤثر على عيون السائقين الآخرين لفترة قصيرة.

أما السيارات الصغيرة وهي سيارات الركوب والأجرة فهي قليلة جداً هنا، وقلتها لافتة للنظر أيضاً، ذلك بأن معظم الشعب الهندي لا يعرف امتلاك السيارات بل إن امتلاك المرء عندهم دراجة نارية لهو مما يجعل له منزلة في قلوب الآخرين من الماشين على أقدامهم.

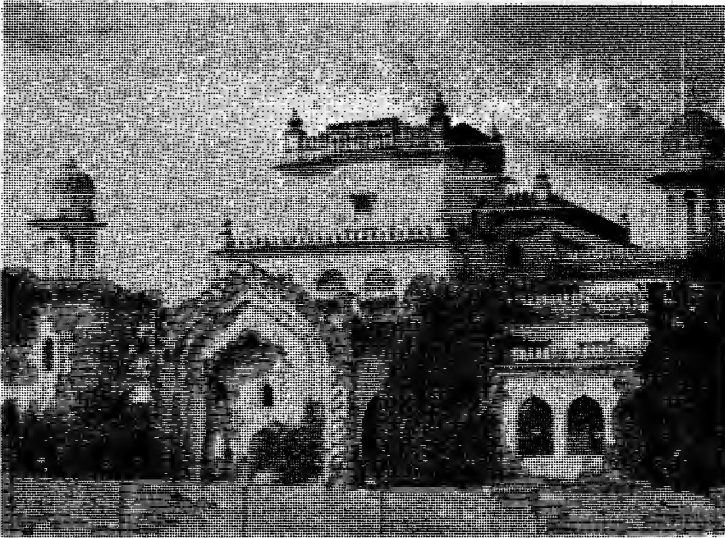
وقد نزلت في فندق (كلاركس) وهو فندق سبق لي أن نزلت فيه مرة قبل أربع سنوات وهو من الدرجة الأولى، ويقع في حي يعتبر حديثاً من أحياء مدينة لكنو (عاصمة ولاية اترا براديش) لأنه كانت فيه مزارع وأبنية قديمة فأزيلت ونسق تنسيقاً جديداً فكنت أنظر من نافذة غرفتي في الطابق السادس منه فأرى منظراً جميلاً يشعرني أنني في إحدى المدن الأوروبية إذ يقع نظري على دائرة جميلة تتوسط ميداناً صغيراً قد نسقت

فـــيها الحشـــائش والأشجار بشكل جيد وإن كان لا يوجد فيها أزهار، ويقع قريـــباً مـــنه ملعـــب رياضي محاط بالمدرجات قد فرشت أرضه بالعشب الأخضـــر، وهـــناك بناءان اثريان شامخان من مخلفات ملوك الشيعة الذين كانوا قد حكموا هذه المدينة وما حولها مدة طويلة من الزمان.

وليس فيه من البيوت الهندية القديمة المتلاصقة شيء.

ندوة العلماء:

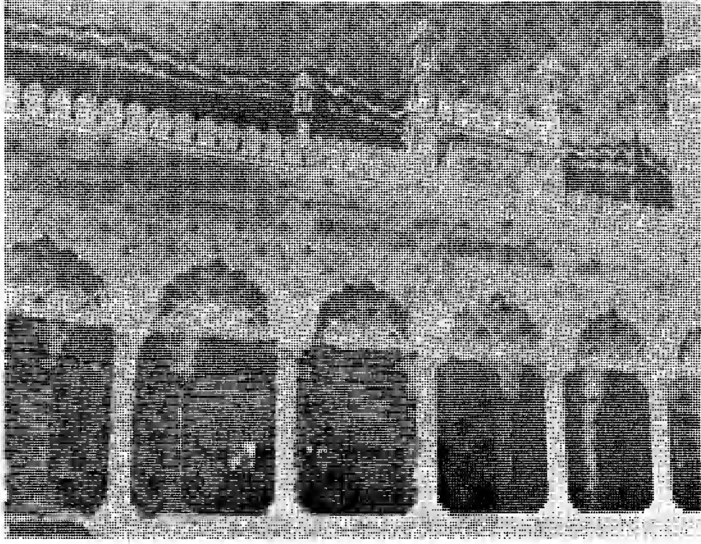
كان موعد اللقاء بالداعية الإسلامي الكبير الشيخ السيد أبي الحسن الندوي في الساعة الثامنة من هذا المساء وقال الأخ محمد الرابع الندوي: إن الســـائق سيأتي إليك في الموعد المحدد فيأخذك إلى مقر ندوة العلماء فهو ليس من الفندق ببعيد.



ندوة العلماء في لكنو

وعندما حان الموعد كانت السيارة قد جاءت وجاء معها السيد أبو الحسن الندوي بنفسه وهو يعتذر بأنه قد قدم هذا اليوم من دلهي وإنه ليس على يقين من قدومي بالطائرة وإلاّ لكان خرج إلى المطار فشكرت له ذلك وقلت له: إنني آسف لكون إخواني خرجوا إلى المطار دون رغبة مني فكيف أرضى بأن تخرج أنت إلى استقبالي والمهم عندي هو السلام عليك والاستفادة من ذلك.

ثم توجهنا إلى مقر ندوة العلماء فأجلسونا في فناء خارجي من الدار لأن الكهرباء كانت قد انقطعت عن المنطقة منذ دقائق معدودة وكان هناك عدد من إخواننا المشايخ وطلبة العلم من الذين حضروا المجلس، وكان مجلس الشيخ السيد أبي الحسن لا يمل بل إنه المجلس الممتع لأنه يضم أطرافاً مفيدة من الحديث، ونكتاً شيقة من المسائل العميقة التي يتناولها السيد أبو الحسن بنظرته الواسعة البصيرة إلى الشؤون الإسلامية كل ذلك بروح مرحة وأسلوب بعيد عن التعقيد فهو من العلماء الظرفاء، والعلماء الظرفاء في الهند ليسوا بالكثير، فقد يجد المرء من المشايخ الزهاد والعباد والمحدِّثين والمحسنين والفقهاء في أهل الهند العدد الكثير، ولكنه لا يجد العدد الكثير من الظرفاء واللطفاء في الحديث ولو حاول ذلك.



مسجد (دار العلوم: ندوة العلماء) في لكنو

وعندما حان موعد صلاة العشاء وكان أذان العشاء قد صدح في أرجاء ندوة العلماء هذا المعقل المنيع من معاقل الإسلام في القارة الهندية.

قمنا إلى المسجد الذي هو في الحقيقة جامع كبير، وقد عادت الكهرباء إلى المكان، فدارت مراوحه وسطعت أنواره، فوجدنا العشرات من الشيوخ وعشرات العشرات من الشبان الذين هم في وقار الشيوخ ركّعاً سجداً يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً وهم في خشوع لخالقهم، وقد جللت وجوههم سيما العبادة، وانطبعت على جباههم آثار السجود.

وهؤلاء القوم من إخواننا الأوَّابين في هذه البلاد ليسوا كغيرهم من أهل البلاد التي قد يجبر الإنسان فيها على حضور الصلاة فهو هنا إذا لم

تكن لديه الرغبة الصادقة والنية الصالحة للصلاة لم يكن خلفه من يسوقه إلـيها سوقاً، أو يقوده إلى أدائها قياداً وقد أمَّ الناس لصلاة العشاء الشيخ سـعيد الأعظمـي فصـلى خلفه من القوم عدد لا يراه المرء عندنا في مساجدنا المعتادة كثرة إلاّ في يوم الجمعة.

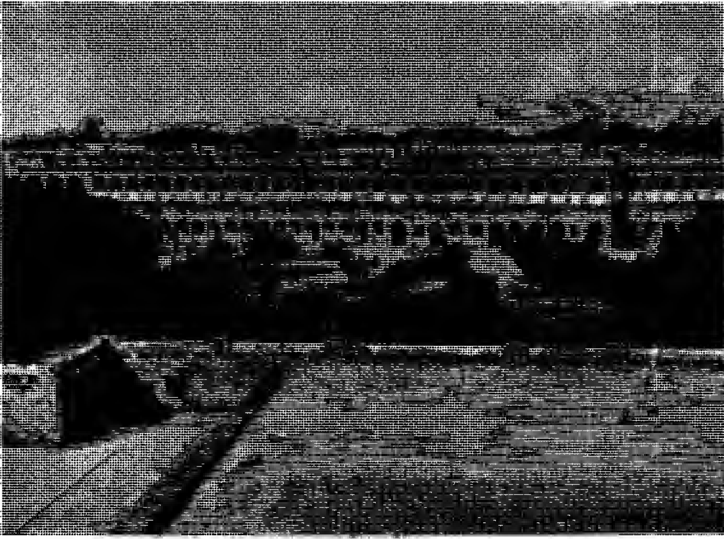
وليس ذلك فحسب وإنما العجب أن القوم أخذوا بعد الصلاة يتنفلون ويركعون ويسجدون وهم خاشعون.

أما أنا فقد حقرت نفسي وعملي عند عملهم، لأنني قد صليت النافلة ركعتيـن ثـم جلسـت منـتظراً إياهم أن يفرغوا ولكنهم ظلوا يصلون ويواصلون الركوع والسجود فترة من الوقت بعد ذلك.

من مثل هؤلاء فلنتعلم:

وبيـنما كنت جالساً دون صلاة انتظر فراغ القوم من نوافلهم كنت أتـأمل وجـوه بعضـهم وأرقب حركاتهم فيملؤني العجب من كون هذه المديـنة الحافلـة المسماة (دار العلوم ندوة العلماء) كلها إنما قامت على التبرعات الخاصة وأن جميع العاملين فيها والقائمين على أمرها يعملون بـإخلاص وتفانٍ فيها وهم لا يرجون ثروة ولا يأملون في تجارة، وإنما هي الكفاية التي لا تزيد على الكفاف.

فأتذكر أن القصد الصالح هو الأساس للعمل الصالح، وأن القلب إذا عمل بإخلاص كان العمل مثمراً.



مساكن الطلبة في دار العلوم: ندوة العلماء

ثـــم قلت في نفسي: إن هؤلاء الإخوة قد سلموا من أمرين فظيعين ابتليـــنا بهما مع ما ابتلينا به من أمور أخرى في البلدان العربية هما فتنة الشبهات، وفتنة الشهوات، أما الأولى فإن الذين هم الأكثرية من أهل هذه الـــبلاد يعتـــنقون الديانــــة الهندوكية وهي ديانة ضعيفة في نفسها مخالفة للعقـــل، بل إن أول شروط الإيمان بها ألا يحاول معتنقها أن يربط بينها وبين العقل فهم يقولون إن الدين شيء والعقل شيء آخر، وقد أذكر أشياء في ختام هذا الكتاب من مخالفتها للعقل فهم في هذا الأمر مثل المسيحيين الأوروبييـــن الذين يقولون: إن الدين شيء والدولة شيء آخر، وإن الدين للعاطفـــة، والعقل للحياة، لذلك فإن المسلمين هنا لا يتأثرون بهذه الديانة، ولا يذكـــرون أن أحـــداً من المسلمين (تهندك) أي أصبح هنوكياً بل إن العكـــس هـــو الصحيح الذي كان قد حدث ولا يزال يحدث منذ أن دخل الإسلام إلى هذه البلاد لأول مرة.

وفتنة الشبهات هذه هي التي أثرت وأحياناً تكون قد سيطرت على عقــول الناشــئة في البلدان العربية فهي تأتيهم من غزو الثقافة الغربية، ومــن المذاهــب الاجتماعــية التي نبتت في المجتمعات الأوروبية مثل الحرية الديمقراطية الغربية والاشتراكية والشيوعية، فأصبحوا وأمتهم في حالة من الضعف الفكري وفي تأخر من الأخذ العملي بالإسلام وبخاصة فــي المعــاملات وســائر شؤون الحياة التي لا تتعلق مباشرة بالعبادات أصــبحوا فــي شك من دينهم وفي حيرة من هذا الشك حتى غدا بعضهم يعــتقد أن الدين الإسلامي مثل الأديان الأخرى التي حكم عليها أصحابها بأنها غير صالحة للحياة.

والأمــر الثاني أو الفتنة الثانية التي سلم منها إخواننا في أكثر هذه البلاد هي فتنة الشهوات فالتربية الصارمة في الهند وشدة التمسك بالتقاليد إلى جانب تنمية الوازع الديني في النفوس وتأكيد الحكمة القائلة (إن من العصمة ألا تجد) قد عصمتهم في الأغلب من الركون إلى الشهوات ومن غلبة الترف عليهم الذي يمنعهم من الصبر على أداء الواجب.

لذلــك ينبغــي لنا نحن العرب الذين لا نستطيع أن نبرأ أنفسنا من الأمريــن كليهما أو من بعضهما أو على الأقل لا نستطيع أن نبرأ طائفة كبــيرة مــنا من ذلك أن نرجع إلى إخواننا هؤلاء فنستشيرهم فيما ينبغي عمله لأمور ديننا المتصلة بالحياة الغربية أو بالمعاملة مع الكافرين، كما ينبغــي لــنا أن نتلقف ما يقوله مفكروهم في كتبهم ومنشوراتهم نتفحصه ونمعن النظر فيه.

الطعام المبارك:

بعد الصلاة بقليل قال الشيخ السيد أبو الحسن: إلى العشاء، فجلسنا على الأرض حول خوان ممدود قد أكثر عليه من الصحون وكان عدد الصحون الفارغة أكثر من عدد الأواني المليئة بالطعام.

فلإخواننا في الهند طريقة حميدة في الأكل هي أن يأخذ كل واحد بصحن له منفرد شيئاً قليلاً من الطعام حتى إذا أتى عليه أخذ غيره، وإذا فرغ نظف صحنه بأصابعه حتى يبدو كأنه لم يستعمل، وذلك لئلا يفسد على من قد يكونون بحاجة إلى الأكل من الطعام بعده شيئاً من الطعام الذي لم يأكله.

كانت المائدة تحوي من الطعام شيئاً لو قدمه أحدنا لضيف ذي مقام متوسط لعده قليلاً ولرآه ذلك الضيف نفسه إذا كان من قومنا أقل من ذلك، وقد قال الشيخ أبو الحسن الندوي: إن هذا هو عشاؤنا لم نزد عليه شيئاً، وإنما حضرته أنت حضوراً فقلت له صادقاً، ومعتقداً ما أقول: أيها السيد الجليل: إن هذا هو الذي أريده وهذا هو الذي أدعو إليه أصحابي، ومن أستطيع أن أتكلم معهم في بلادي.

ذلك بأن الناس في بلادنا حتى طلبة العلم بل العلماء يسرفون في تقديم الطعام إلى درجة أنهم لا يجدون مَنْ يأكل بقاياه، فيرمون بها في الشارع أو في مكان النفايات، بل إن بعض الجهال كان يتعمد أن يرى الناس ما يرمي به من بقايا الطعام، حتى يقال: إنه ليس ببخيل أو ما هذا معناه.

أما هذا الطعام فإنني عندما رأيته وقد استعد للأكل منه حوالي اثني عشر شخصاً خشيت ألا يكفيهم ثم قلت في نفسي: ربما إذا رأوا أنه لا يكفيهم يحضرون غيره ولكنهم أكلوا منه حتى اكتفوا وكنت أحدهم وقد

أكلــت حــتى شبعت بل شعرت بشبع لم أشعر به عندما أفرغ من طعام فندق غالٍ من فنادق الدرجة الأولى.

ولــم أجد ما أفسر به ذلك إلا أن البركة قد حلَّتْ فيه، وقد يتساءل بعــض القــراء بحق عن البركة ما هي؟ وربما لا يستطيع أن يستوعب ذهنه أن البركة تجعل الطعام القليل كثيراً في نفس الآكل أو في بطنه.

والجــواب يكــون بمــثل عامي نجدي، وحكمة العوام ربما لا يستطيع المــرء أن يجــد لهــا دليلاً ولا تعليلاً ولكنه في الوقت نفسه لا يشك في أنها مبنــية على تجارب عديدة لأناس كثيرين حتى جعلت من يأتي بعدهم يقتنع بما جــاء فيها ويصدقه، وذلك المثل هو قولهم: (البركة جند) وبعضهم يقول: جند خفــي، وتفسير المثل على كلا اللفظين هو أن البركة التي تحل في الأشياء هي من جند الله الذي لا يرى، وهي بذلك لا يستطيع الرجل العادي تعليلها.

إن هذا الطعام الذي قدمه الشيخ أبوالحسن وتناول منه بعض العلماء والمشــايخ في ندوة العلماء حتى اكتفوا كان أكلاً هنيئاً مرئياً وكان خالياً مــن أهــم مميزات الطعام الهندي، أو قل من أهم عيوب الطعام الهندي الأصيل وهو كونه مليئاً بالفلفل الحار أو بالدسم الثقيل فقد برئ من ذلك، وكــان مــن بين الأنواع المقدمة منه: خبز رقاق هندي يسمى (شباتي) وخــبز غلــيظ يسمى (روتي) أونان، وأرز هندي ولحم دجاج قليل مع المــرق، وأطــباق مــن البامية الصغيرة الثمرات، وأطباق من السلطة الخضراء، وشيء من اللبن الرائب.

أمــا الفاكهــة فكانــت مــن التفاح الهندي الذي يجلب من الشمال وطبيعته أنه أقل من التفاح اللبناني جودة بكثير.

وكـــان هـــذا الطعام الهني المرئ يصحبه طعام عقلي أيضاً هنئ مرئي ذلك هـــو حديـــث الســـيد أبـــي الحسن الندوي وابن أخته وتلميذه الأستاذ محمد الرابع الندوي، وإخوانهم وتلاميذهم من أهل ندوة العلماء فجزاهم الله خيراً وأثابهم.

إنـــه لجديـــر بي أن أقول أيضاً بهذه المناسبة: ما أحوجنا نحن طلبة العلـــم والمحبيـــن للخـــير من العرب إلى أن نتعلم من إخواننا هؤلاء أدب المـــائدة وأن نقـــوم بحملـــة لذلـــك حتى نوفر ما نبذله من نقود تضيع في الإســـراف فـــي الطعـــام وأن نخصـــص لها صندوقاً لإرسالها إلى إخواننا المســـلمين الجائعين في أماكن كثيرة في العالم ربما كان من أقربها إلى هذه البلاد الهندية (بنغلاديش) وبورما ونيبال إلى غير ذلك من أنحاء العالم.

يمسحون الرصيف بأجسامهم:

أثناء العودة من (ندوة العلماء) إلى فندق (كلاركس) وكان معي في ســـيارة الـــندوة بعض الإخوة من بينهم الشيخ محمد الرابع الندوي رأينا جماعة من الفتيان قد انبطحوا على وجوههم وهم يزحفون على رصيفي الشـــارع بشـــكل غريب لافت للنظر، وليس على أجسامهم إلاّ سراويل قصـــيرة جداً والرصيف الهندي كما هو معروف يكون في الغالب بعيداً عـــن النظافة، ولكنهم يفعلون ذلك تقرباً لأحد آلهة الهندوكيين الكبيرة ألا وهو القرد المسمى (هنومان).

قـــال إخواننا: إن معبد القرد هنا ليس ببعيد وقد رأيته بالفعل على البعد يتوسط واجهته صورة مجسمة ملتصقة بالجدار لذلك القرد العجيب بســـحنته القبـــيحة، وطلعـــته غير البهية وقد خيل إلى أنه قد أخذ يتباهى ويـــتفاخر وهو القرد نفسه الذي كان يضرب به المثل في القبح في أكثر

البلدان يعبد هنا في الهند، وليس ذلك فحسب وإنما يتجشم عابدوه المشاق حتى يرضوه ويظهروا له الإخلاص في عبادتهم مثل هؤلاء الفتيان الذين أخـــذوا يمسحون الرصيف بصدورهم وبطونهم وهم يزحفون عليها زحفاً حى يصلوا إلى معبده الذي لم يكن بعيداً منهم ولكن السير أو على الأصح الـــزحف علـــى البطون بهذه الطريقة صعب جداً، ولو كان على الديباج فضلاً عن أن يكون على رصيف شارع هندي تكثر فيه الحفر والنقر وقد لا يخلو من فضلات بعض الناس والحيوانات.

وقـــد أخبرنا إخواننا أن هناك في لكنو معبدين للقرد أحدهما هو هذا في المديـــنة والثاني يبعد عنها بثلاثة كيلات، وأن ذلك قد يحدث أن يزحف بعض الهندوكييـــن إلـــيه زحفاً على البطون والصدور وهم منبطحون على وجوههم وفاء بنذر يكونون قد نذروه إذا حصل لهم محبوب أو زال عنهم مكروه.

أمـــا في الأحوال العادية فإنهم لا يذهبون إليه بهذه الطريقة، وإنما يفعلون ذلك بهذا المعبد القريب في المدينة.

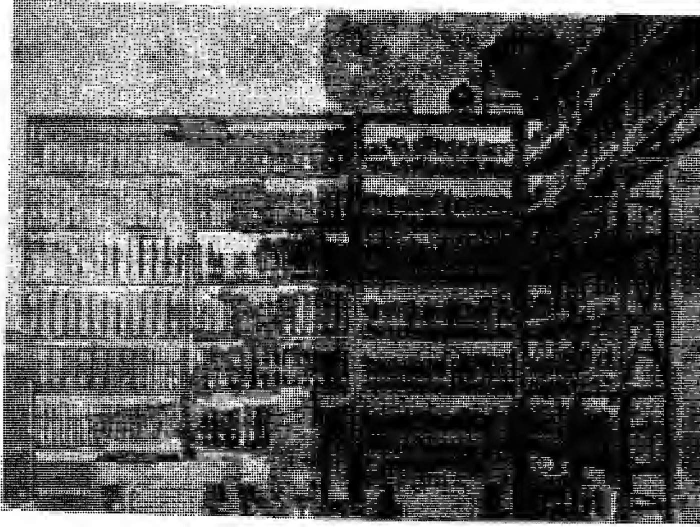
وبطبيعة الحال إن الذين يفعلون ذلك ليسوا كل السكان الهندوكيين، وإنما هم طائفة منهم رأيت بنفسي منهم عدداً.

وقلـــت لإخواني: لا شك في أن هؤلاء لا تشوب محبهم لهذا القرد القبـــيح شائبة من الرغبات الجسدية فلو كان يزحفون ليصلوا إلى تمثال فـــتاة جميلة أو حتى ذكرى فتاة جميلة لكان ذلك مما قد يقدح في رغبتهم الروحية ولكنهم يفعلون ذلك مع هذا القرد فإنهم في الحقيقة إنما يزحفون ليصـــلوا إلى مظهر من مظاهر قبح الخلقة وإن كانوا هم في مشاعرهم يعتقدون غير ذلك، لأنهم يعتقدون أن هذا القرد هو الذي أنقذ سيتا زوجة كبير آلهتهم (رام) في خرافة ليس هذا مكان ذكرها.

يوم الثلاثاء ١٣٩٩/٦/١٩هـ- ١٩٧٩/٥/١٥م:

جولة في ندوة العلماء:

بدأت هذه الجولة في الثامنة صباحاً، وكان الرفقة فيها جماعة على رأسهم الشيخ محمد الرابع الندوي والشيخ سعيد الأعظمي الندوي جزاهما الله وإخوانهما عني خيراً.



مكتبة ندوة العلماء في لكنو

وبدأت بزيارة قاعة المطالعة الرئيسية في الندوة وهي قاعة واسعة ذات قبة بداخلها أي القاعة شرفات تأتي من الطابقين الأول والثاني الذين يقل ارتفاعهما عن ارتفاع القبة الرئيسية وتسمى هذه القاعة (العباسية) لأن الذي قام على بنائها شخص يسمى العباسي وقد مضى على بنائها الآن أكثر من خمسين سنة.

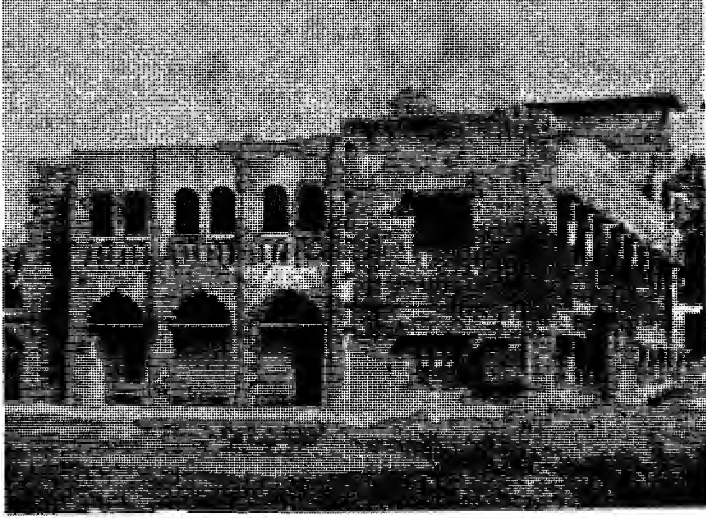
ويــرى المرء المطالعين المستفيدين من هذه المكتبة العامرة وهم كثر قد انكــبوا على المطالعة والمراجعة وقد علت وجوههم روح الجد والمثابرة، وهم إلـــى ذلــك ذوو مظاهر دينية واضحة وتمسك بذلك حتى لا يكاد يجد المرء فيهم من أخذ من لحيته أو عارضيه شيئاً ولو كان شاباً غض الإهاب.

وقــيل أن نغادر هذه القاعة الرحبة كان السيد أبوالحسن الندوي قد حضـــر وقد طلب مني الجلوس على منصة للجلوس في صدر القاعة ثم أمـــر بإحضــــار الشراب البارد وفي أثناء ذلك كان ينثر فرائده وفوائده العلمـــية المـــتعلقة بالهند وأهله المسلمين في زمان غيَّرهم وفي محنتهم الحاضرة، وقد أهدى إليّ نسخة من كتاب مفيد ألفه والده السيد عبدالحي عنوانه (الهند في العهد الإسلامي) وكانت النسخة غير مجلدة فسألتهم عما إذا كـــان عندهم نسخة مجلدة فأجابوا: إن الأمر سهل إذْ يمكن تجليد هذه نفســـها بعـــد ثـــلاث ساعات ثم نادوا مجلداً كان منكباً على عمله عندهم فجلدها وأحضرها إليّ بعد الظهر.

ثـــم انتقلنا إلى مكتبة تبيع الكتب الإسلامية للمشترين وأغلبها باللغة الأوردية وهي تسهم ببيع هذه الكتب في إشاعة الثقافة الإسلامية في الهند لاســـيما أن بـــيعها لا يستهدف الربح الزائد. وقرب هذه المكتبة فصول دراســـة للقســـم العالي في الندوة، ولا أعرف ما هو مستواه بالنسبة إلى جامعاتنا الإسلامية.

ومـــن هناك انتقلنا لنرى المطبعة التي تستعملها الندوة فهي مطبعة قديمـــة ومبـــناها أيضاً يحتاج إلى تجديد ومن مشروعاتهم المقبلة معالجة هذين الأمرين كليهما.

كما مررنا بمقر المعهدين المتوسط والابتدائي وهو بناء جميل من طابقيــن تحيطان بفناء مفروش بالحشائش المنسقة التي تدل على الذوق الرفــيع، وفي المعهد المتوسط معمل جيد مجهز بالمجهر وعدد كبير من القوارير وأوزان العقاقير.



مبنى المدرسة الثانوية في دار العلوم: ندوة العلماء

ثــم ســرنا مع الفناء الواسع بين المباني الشامخة للندوة حتى وقفنا علــى بناء جديد وقوي للمكتبة العامة ولا يزال العمل سائراً في أساسه، وقد رأيتهم أكثروا فيه من الحديد حتى يخيل إليّ أن ذلك يكفي في بلادنا لبــناء ذي عشــر طبقات، ولكنهم قالوا: إن المياه الجوفية هنا قريبة من الســطح والتربة طينية هشة لذلك لابد من تقوية الأساس، ووضع مقادير إضافية من حديد التسليح حتى يطمئن إلى أن البناء لن يتأثر.

المجمع العلمي:

وهـذا مأثـر من مآثر هذا العمل الأهلي العجيب الذي لا أشك في أن الله سبحانه قد بارك فيه من واقع ما أعرفه من سير الأعمال في بلادنا العربية وقد خلعت من عمري في الأعمال الإدارية ما زاد على ثلث قرن، وفي هذه القاعة موائد ممتدة عليها أفواج المطالعين من الأساتذة والطلاب وهي تفضي إلى الخزانتين الرئيسيتين لكتب المكتبة العامة لندوة العلماء.

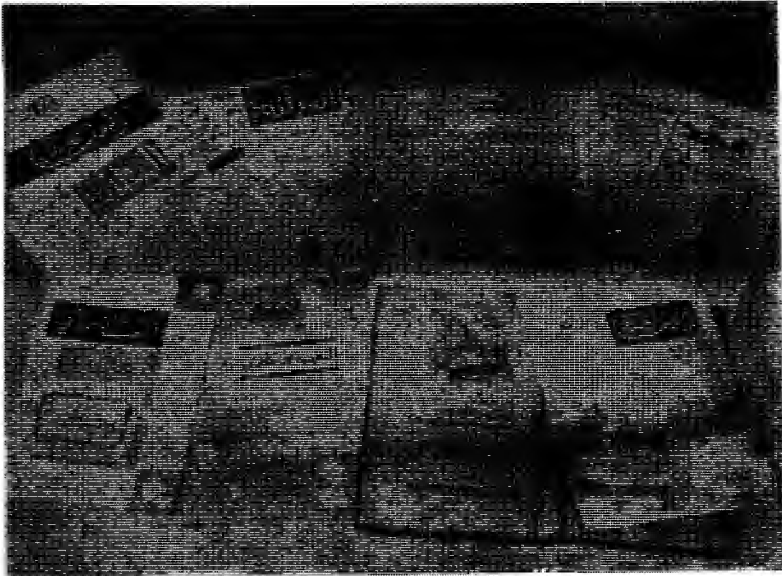
ومن ألطف ما فيها وأمتعه أن حيطان هذه القاعة الواسعة قد زينت بقوائم كل واحدة تحوي أسماء المبرزين في أحد الحقول الثقافية في الهند فمثلاً هناك قائمة بأسماء أئمة المحدثين من أهل الهند، وأخرى باللغويين وثالثة بالأدباء، ورابعة بالأطباء... الخ.

وقد وضعت بعض المعلومات المهمة المختصرة أمام اسم كل واحد منهم والحقيقة أن ذلك تقليد مفيد حبذا لو أخذ به أهل بلادنا العربية في سرد أسماء الشخصيات التي أسهمت إسهاماً فعالاً في أحد الفروع البارزة في فنون العلم.

ثم يلي هذه القوائم من جهة داخل وسط القاعة معرض لبعض نفائس المخطوطات التي تتميز بمميز عن غيرها من المخطوطات كأن تكون بخط أحد العلماء المشهورين مثل مجلد بخط السيد صديق حسن خان، أو بكونها قديمة الخط، أو جميلة التنسيق، وقد سألتهم بهذه المناسبة عن عدد المخطوطات في مكتبة الندوة؟ فأجابوا: إنها أربعة آلاف ونيف، فقلت لهم: فأقدمها كتابة ما هو؟ فأجابوا: إنه مؤرخ في ثمانين وستمائة للهجرة، وقالوا: إن مجموع محتويات المكتبة العامة من الكتب يبلغ (٧٥) ألف مجلد أكثرها بالعربية ويليها الأردية، فالفارسية، ثم الإنكليزية.

وكان من بين المعروضات الموجودة في المكتبة (اسطرلاب) وهو آلـة معرفة النجوم عند القدماء من العرب وقد صنع في عهد الملك شاه جهان وكان ذلك في عام ١٠٥٩هـ في مدينة لاهور صنعه المنجم ضياء الديـن محمد بن قائم محمد بن ملا عيسى بن الشيخ الدواد الاسطرلابي اللاهـوري وهو كرة نحاسية عليه رموز واصطلاحات من علم التنجيم ومعها كالطبق المدور من النحاس أيضاً مقسم على زوايا وأبعاد معينة.

وبعد القاعة انتقلنا لمشاهدة خزانتي الكتب الرئيسيتين وهما جناحان من البناية قد صفت فيها الكتب صفاً لا يتسع ما بينها إلا للمرور لكثرتها، وقـد وضعوا المخطوطات في خزائن من الخشب وأغلقوا عليها حتى لا تخرج إلا بإذن من القيم عليها، وتحت مسئوليته.



مجلات ودوريات لدار العلوم: ندوة العلماء في مكتبتها

إنــه لا يقــوم مــثله إلا بعدد مضاعف عدة مرات من الموظفين، وبنفقات مضاعفة عشرات المرات من المال.

وقــد اســتقبلنا فيه القائمون عليه وقدموا قائمة ببعض المطبوعات ونمــاذج مــن المطبوعات نفسها وهي بالإنكليزية بالدرجة الأولى تليها العربية والأوردية.

وقد أخبرونا أنه قد أتم حتى الآن نشر زهاء ثلاثين ومائة كتاب ما بين صغير ومتوسط الحجم، وفي أثناء ذلك قدموا القهوة ومعها شيء من (البسكويت) وأنه قد بدأ عمله عام ١٩٥٩م.

مواصلة الجولة:

وكان ذلك على الأقدام في أفنية واسعة لا تزدحم بالأشجار التي قد يحــتاج إلى ظلها في أيام الحر في هذه البلاد الحارة، ولكنهم قالوا: إنها كانت موجودة وكثيرة ولكن أكثرها قطع، وإن كان لا يزال بعضها قائماً مــثل بعض أشجار العمبة (المانجو) مع أن التشجير لا يكلفهم كثيراً، إذ المــاء قريــب من سطح الأرض لأن موقع الدار مجاور للنهر الذي هو علــيه مدينة لكنو ، ويوجد في فناء الدار بئر يستقون الماء منها لحاجات سكان الندوة الذين هم في الحقيقة كسكان قرية صغيرة في غير بلاد الهند التي تعد المدن الكبيرة في غير بلادهم بمثابة قرى.

ومــررنا بــالمطعم فــإذا بــأكوام مــن الأخشاب التي أحضروها لاســتعمالها في الوقود لأن الغاز عندهم ليس بموجود ثم مهاجع للطلبة، وببناء جديد جميل لم يكتمل بعد قالوا: إنه مهاجع جديدة للطلبة.

وقرب مهاجع الطلبة كان مقر جمعية الإصلاح الطلابية وقد كتب في حديقة صغيرة من ميدان أمامها بالأزهار والحشائش كلمة (الإصلاح) وهي من الأوردية التي وافقت العربية.

وهناك أبعد من هذا المكان في الندوة طائفة من مساكن الأساتذة إلا أنها فيما أخبرونا غير كافية، ويأملون في أن يتمكنوا من زيادتها في المستقبل.

وكان مسك الختام لهذه الجولة على أقسام ندوة العلماء التي هي جولة في أفنيتها صعدنا إلى سطح أحد مهاجع الطلبة لاستجلاء المنظر العام من هناك.

وكانت أرضها تبدو على سعتها غير كافية لأقسام الندوة إلا أن الأرض المجاورة لها التي ربما يحتاجون إلى شرائها يقوم على بعضها مساكن لبعض الهندوكيين الذين قد لا يرغبون في بيعها للندوة لئلا تتوسع وتزدهر وهذا ما لا يريدونه.

عيد القرد:

هذا اليوم يسمى (عيد القرد) ويوم القرد وقد عطلت المدارس الحكومية والمؤسسات الرسمية في منطقة لكنو بهذه المناسبة (القردية) وليس ذلك عامّاً في الهند.

وليلة البارحة لمحت معبد القرد ورأيت الذين يذهبون إليه زحفاً من فوق الأرصفة، وفي صبيحة هذا اليوم تجلىّ الاحتفال بالقرد فقد تجمهر أعداد كبيرة من الناس حول معبده الذي يضم تمثاله بينهم نسبة من

الطـــلاب الذين عطلت مدارسهم من أجله، وأكثر الناس رأيتهم من بعيد وهـــم يدخلـــون معـــبد القرد ويقرع الواحد منهم جرساً من الصفر معلقاً وبعضـــهم يضـــم كفـــيه أحدهما إلى الآخر ويضعهما أمام وجهه علامة التحية، ولم أر غير ذلك من الخارج إذْ لا يسمح بدخول الأجانب إلى هذا المعـــبد وبخاصـــة لمثلي الذي يرتدي الملابس العربية، وفي هذه الأيام المشحونة بالاضطرابات الطائفية في بعض البلدان الهندية وقد وقف عدد مـــن الجنود وسط الحشود مما يلي الرصيف خارج المعبد حتى يحافظوا على النظام بين هذا الجمهور الذي لم يقتصر الحضور إليه على غرض العـــبادة وإنما جاءت طوائف من الناس لغرض أخر قد يكون مع عبادة القـــرد وقـــد يكون وحده مثل صف طويل من المستجدين و(الشحاذين، الحفاة الأقدام، النحيفي الأجسام، المتسخي الهندام إن كان ما عليهم يصح أن يطلق عليه الهندام.

ومثل طائفة من باعة المآكل الرخيصة غير النظيفة، إلى غير ذلك وأحدهـــم رأيـــته ينفخ بمزمار له يشبه الناي أخبرت أنه من الآلات التي يتعبدون بعزفها لهذا القرد وغيره.

ورأيت سائر الناس من المتعبدين وبخاصة من النساء يخرجن وقد وضـــعت كل واحدة منهن لطخة من صبغ أصفر بين عينيها علامة على أنهـــا قد نالت شرف العبادة فيه، وبعضهم رأيته يقدم الماء البارد للمارة تبرعاً بهذه المناسبة.

وقـــد أصـــبح المـــرور صـــعباً في هذه النقطة من الشارع بسبب كثرة الآدميين وكثرة الدراجات وعدم مبالاة بعضهم أو عدم وعيهم بآداب المرور.

إلى حديقة الحيوان:

من معبد القرد إلى حديقة الحيوان في (لنكو) كان طريقنا يمر بشارع تجاري اسمه (حضرة كانج) مسفلت نظيف يفصل بين طريق الذاهب والآيب فيه رصيف ضيق جداً منقط بأبيض وأسود ويزدحم بالدراجات العادية وعربات الركشا التي تؤجر للركوب وبعض الدراجات النارية وكان مزدحماً بذلك ازدحاماً شديداً بحيث أنني لاحظت أنه عندما أضيئت إشارة المرور الحمراء كان ما قبلها قد امتلأ بحيث يصعب المرور من خلاله، ولكن لم يكن في ذلك كله إلا سيارة واحدة هي سيارة (ندوة العلماء) التي نركبها، أما بقية العربات التي أغلقت دونها الإشارة فكانت من الدراجات بنوعيها (الركشا) الذي هو الأكثر والعادية والنارية.

وقد لاحظت ذلك عند إشارة مرور ثانية فلم يكن في الموكب المزدحم سيارة أخرى غير سيارتنا رغم الزحام الشديد بالدراجات التي تضايق المرور كما تضايقه السيارات أو أكثر لأنها تلجأ إلى المرور مع الممرات التي يسير فيها المشاة، وهي كذلك تطلق نفيرها الذي يكون في بعض الأحيان مزعجاً، ويكون الأمر أكثر إزعاجاً من جهة السيارات الموجودة لأنها بسبب قلتها ليس عند الناس وعي بشأنها فيظل سائقها يطلق نفيره بصوت مستمر مزعج، وإذا لم يفعل ذلك لم تبعد الدراجات والمشاة عن طريقه بل لابد من أن يلح عليهم في ذلك مع أن صوته عالٍ يكونون بالضرورة قد سمعوه من قبل.

وصلنا (حديقة الحيوان) التي هي في البلدة نفسها وليست في ضاحية من ضواحيها، أو ربما كان ذلك في القديم فأمتدت إليها العمارة.

وبقيـــنا فـــترة عند شباك التذاكر لأنه كان عليه زحام بسبب عطلة المدارس والمصالح الحكومية هذا اليوم من أجل (عيد القرد) ثم جاء الأخ عمـــر الفـــاروق الندوي الذي كان معنا بتذاكر أربع لنا كل تذكرة قيمتها (ستون بيزا) أي: ربع ريال سعودي والبيزا هي الجزء الواحد من المائة من الروبية.

إن أول مـــا يـــرى المرء فيها طائفة من الغزلان الشبيهة بالغزلان العربـــية، ثم زوجاً من حمار الوحش المخطط المسمى بحمار الزرد، ثم بركة آسنة المياة غير بهيجة المنظر فيها بط كبير الحجم.

وحَوْشـــاً آخـــر فيه بقر الوحش وهو صغير الحجم بالنسبة لما هو معـــروف منه في أماكن أخرى، وبركة ماء أخرى فيها طيور كبيرة جداً أشـــبه بطـــيور الـــرهو يسمونها (سارس) وقال أحد مرافقينا إن الهنادك يقدسونها وإن المسلمين إذا أمسكوا بها ذبحوها وأكلوها.

وبيـــنما كنا نتجول في الحديقة وأياً كان القفص الذي نقف عنده أو نسير حوله فإننا لم نفقد الطائر الهندي الذي حلّت البركة في أفراده أكثر مما حلت في أي طائر آخر يطير ألا وهو الغراب فهو هنا كما في عموم الهند يسرح ويمرح، وينعب ويصرخ، يكاد يغلب بذلك أي صوت يصدر من أي مخلوق في هذه الحديقة حتى قطار الأطفال الذي يسير فيها.

وقـــد لاحظنا أن الحديقة غير جيدة النظافة، بل هي قذرة في أكثر الأحـــيان، وبخاصـــة مـــا كـــان من ذلك حول أقفاص الحيوان، كما أن الأعشاب فيها غير منسقة، ولا تلقى العناية اللازمة.

وفـــي ركن آخر من الحديقة وقفنا عند الوعول، وأنواع كبيرة من الغزلان، ثم عند دب ضخم أسمر اللون وآخر أسود صغير الحجم.

أمـــا أشــد الزحام فإننا شاهدناه عند قفص الأسود التي هي من أقل ما يهمنا أن نراه لأنها مألوفة لنا وهي موجودة بكثرة في حديقة الحيوان بالرياض.

ولكــن الشـــيء الذي أعجبني جداً ولم أشاهده بهذه الكثرة وهو يتناول غــذاءه من الأسماك الصغيرة طيور البجع جمع بجعة البيض الكبيرة الحجم وهـــي فـــي بركة كبيرة قد وضعوا فيها أعداداً من الأسماك الصغيرة التي هـــي فـــي حجم كف الإنسان، وهذه الطيور تلتقطها بمناقيرها غير الرشيقة حـــتى تكـــاد تفلت منها فإذا لم تستطع البجعة أن يتسع منقارها لهذه السمكة فإنها تستعين بقسم مطاط في حلقها تضع فيه السمكة بمثابة المرحلة الأولى لابـــتلاعها، ثم بعد ذلك تبتلعها وهي في كل ذلك تجاهد حتى تمسك بالسمكة دون أن تسقط منها، وذلك كله في حركة ثقيلة بطيئة.

وفـــي مكان آخر كان هناك زوجان من الجاموس البري لا يختلفان عما رأيته منها في إفريقية إلا في الحجم لأن هذا الهندي أصغر قليلاً.

وبعدها وصلنا إلى حوض من الماء يطل عليه المرء من علو قليل، ويســبح فــيه كلـــب البحر، أو القندس كما كان يسمى في بعض البلدان العربـــية في القديم، وهو حيوان يعيش في الماء وخارجه، ويتغذى على الأسماك وأكثر ما يعيش في المياه العذبة.

بين القرد الذي عبدوه، والقرد الذي قيدوه:

بيـــنما كنـــت أتفرج مع رفقائي على أنواع القرود المحبوسة داخل أقفاصـــها فـــي هذه الحديقة، وهي حية تسعى وتلهو ذكرت تمثال القرد (هـــنومان) في معبد القرد الذي مررت به اليوم، ومن أجل عيده عطلت الدوائر والمدارس الحكومية أعمالها، وكيف ينظرون إلى هذا القرد الحي

الـــذي لـــم يستطع أن يخلص نفسه من قيوده وأسره، فكيف ينفع غيره؟ وإنهـــم إن فعلوا ذلك قد يعرفون أن التقرب وطلب النفع من القرد الميت أو الصنم القردي هو من أبعد الأشياء عن العقل، لاسيما إذا ذكرنا القصة التي يروونها عن الكيفية التي أصبح بها ذلك القرد مقدساً عندهم.

والقـــرود الحبيســـة هنا أنواع إلا أن أكثرها مألوف ما عدا وأحداً كبـــيراً أســـود قالوا: إنه إفريقي، وآخر أحمر أصغر منه كتب عليه: إنه عربـــي، ولعـــل المـــراد بذلك أنه مجلوب في الأصل من البلاد العربية الجبلـــية التي تكثر فيها القرود كبلاد اليمن، وهناك قرد صغير من النوع الذي يسمى قرد (مدغشقر).

الطاووس بدون ألوان:

مـــن أغـــرب ما رأيته في هذه الحديقة نوع من الطاووس الأبيض الـــذي لا يخـــالط لـــون ريشـــه لـــون آخر غير البياض، ومع ذلك فهو كالطـــاووس المعتاد ذي الريش الملون في الحجم، وفي المظهر وفي كل شـــيء، حتى إنه إذا سار منتشياً متبختراً قد نفش ذيله وجعله على شكل المـــروحة، فإنـــه يبدو وكأنه لا يقل جمالاً وروعة عن الطاووس العادي الملون إذْ هناك في ريشه زغب صغير ينكسر عليه الضوء فيصير لامعاً ذا منظر بهيج.

وعلـــى ذكر الطاووس الأبيض غير الملون أو ما يصح أن يطلق عليه باللفظ العامي (سادة) وهي كلمة ساذج في الفصحى هناك طائفة من الطيور الملونة البهيجة الألوان منها ببغاوات كبيرة وصغيرة وطيور برية صُفر وخُضر.

ومن الغريب أنهم قد وضعوا قفصاً في مساحة معينة للأرانب البيض الأهلية التي توجد في أكثر البلدان مثل ما يوجد فيها الدجاج وليست غريبة الشكل أو لافتة للنظر، ولكن الناس هنا يقفون عليها، ويتفرجون برؤيتها.

والأغرب من ذلك أنني رأيتهم قد عرضوا جماعة من الوبر وهو حيوان جبلي حجمه أصغر من الأرانب بمقدار النصف ولا يبعد في الشكل عنها كثيراً إلا أن قوائمه قصيرة وهو معروف عندنا في نجد كان يصطاده الناس، وقد أصبح نوع منه يربى الآن في البيوت مثلما تربى الأرانب، ولكنهم هنا قد كتبوا عليه إنه (خنزير كذا) مع العلم بأنه صغير ولا يمت إلى الخنزير بصلة ولعل هذه تسميته غريبة خلعوها عليه لعدم معرفتهم باسم له خاص عندهم.

وكان أسفنا بالغاً عندما رأينا متحف الحيوانات المحنطة في الحديقة مغلقاً بعد أن سرنا إليه في شمس تحرق الرؤوس حتى تأثرت صحتي من السير فيها في قائلة هذا النهار الصيفي في الهند مع أن المطر كان قد هطل في الليلة البارحة فلطف الجو وأذهب الحرارة الشديدة وذلك لأول مرة هذا العام بعد موسم الجفاف مما حمل إخواني في الندوة على مجاملتي بقولهم: لقد نزل المطر عند قدومكم لأول مرة فتلطف الجو، وانكسرت حدة الحر فقلت لهم شكراً على ذلك، ولكن لا تنسوا أن قدومي إلى (بتنه) كان قد سبب اشتداد الحر إلى درجة لم يكونوا قد رأوها منذ أيام بل منذ عام، هذا إذا كان لقدوم أحد، أو رحيله علاقة بالجو، وليس له علاقة به بطبيعة الحال.

إلاّ أن الشمس في هذه البلاد الهندية الحارة هي الشمس سواء هطل المطــر أم لــم يهطل فهو تحرق الرؤوس وتؤذي الأجسام بدليل أنها قد فعلت بأجساد أهلها ما أصبحوا به يعرفون بين سائر الأنام.

دور الحيات غير الحيَّة:

في الحديقة قسم للحيات والأفاعي إلا أن أكثر الآبار المخصصة لها أو الخزائــن التي توضع فيها داخل الحيطان لا يوجد فيها حيات مع أن آثــار وجودهــا كانــت ظاهرة، وهي هنا بحالة مزرية من عدم العناية والاهــتمام مثلها في ذلك مثل منظر بعض أقسام الحديقة في الإهمال من الــنظافة، وكثــيراً مــا كان يضايقني ما أجده من رائحة كريهة لأماكن الحيوانات سواء من فضلاتها أو من الأرض المحيطة بها.

علــى أن أهــم مــا يرى هنا زوجان من الحيات الرقط الكبيرة قد انطــوت كــل واحدة منها على نفسها مرتين مرة عندما انطوت انطواء حسياً فكورت نفسها في عدة طيات، والأخرى عندما انطوت على نفسها انطــواء معنوياً فاختارت زاوية من زوايا دارها منفردة عن شريكها أو زوجها فيها، دون أن نحس منها أدنى حركة أو رغبة في الحركة.

ومن الطف ما وضعوه في قسم الحيات أنني رأيتهم قد نحتوا تمثالاً لحــاوٍ وهــو الــرجل الذي يصطاد الحيات ويجعلها ترقص وتلعب وقد وضعوا أمامه حية كأنها ترقص.

وأسرعت بعد هذه الجولة الممتعة المتعبة بسبب الحر والشمس إلى غرفتي في الفندق أستريح.

وكـــان همـــي في كيفية مغادرة لكنو في هذا اليوم لأنني أكون قد قضـــيت مـــنها ما أردت وقد أخبرت من قبل أن الحجز في الطائرة فيه صـــعوبة لأن الطائرة تأتي مليئة من كلكتا وبتنه ولكن إخواني وعدوني بأن يحاولوا في الأمر ما وسعهم ذلك.

إلا أنني عندما أرسل السيد أبوالحسن الندوي جزاه الله خيراً السيارة إليَّ لتناول طعام الغداء معه كما هي عادته التي لم يتركني فيها آكل عند غيره أخبرني الشخص المؤكل بالسعي للإركاب أنه لم يستطع الحصول على مركب لي بالطائرة، وأن عدد المنتظرين كثير، وأنه لم يبق لهم من المحاولة إلا أن يتصلوا بأحد المسؤولين، فقلت لهم: إن هذا أمر لا نريده جميعاً لأن معنى ذلك أن نظلم غيرنا، لأنهم إذا استجابوا لرغبتنا فإن ذلك سيكون على حساب غيرنا ممن حجزوا قبلنا وهذا أمر لا نريده.

وقـــالوا: إنه إذا لم يتيسر السفر بالطائرة فيمكن أن يكون ذلك في القطـــار فالدرجـــة الأولى فيه مكيفة، وفيها سرر للنوم، وهو يسافر في التاسعة والنصف من لكنو ويصل إلى دلهي في الثامنة صباحاً، فقلت لهم: هـــذا مناســـب لأنني يهمني أن أحاول السفر إلى مدينة سرينقر عاصمة كشمير في صباح اليوم نفسه لأن الطيران إليها كله في الصباح، ومعنى هذا أنني إذا لم أسافر إلى كشمير صباحاً فإنني سوف أبقى يوماً آخر في دلهي وهذا ما لا أريده لأنني لست بحاجة إليه.

جلسة عمل:

بيـــنما كـــان الطعـــام يعد للتقديم في (ندوة العلماء) وقد دعا السيد أبوالحسن الندوي إليه طائفة من المشايخ والعلماء جزاه الله خيراً، ذهبت معه إلى غرفة خاصة فتحدثنا حديثاً خاصاً حول الحالة الحاضرة لإخواننا

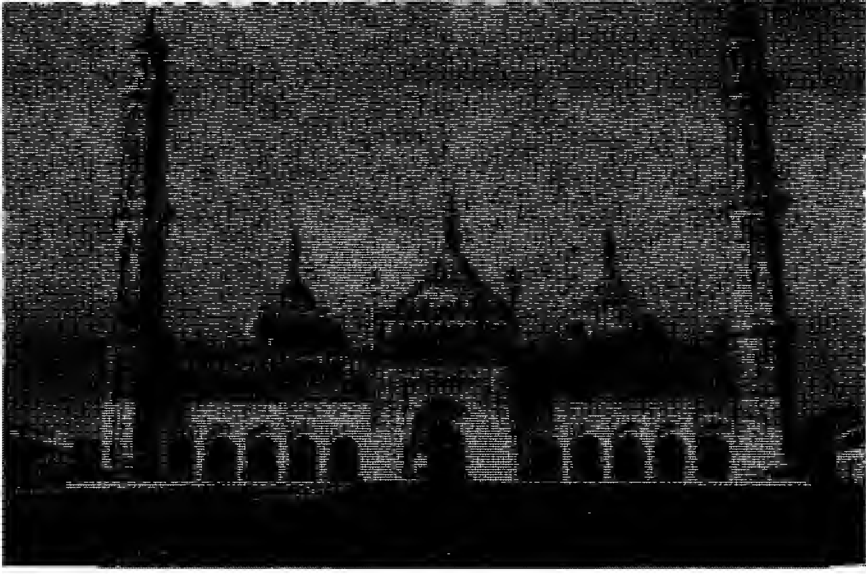
المسلمين في الهند، وكان حديثه مفيداً لي لأنني أثق بتقديره للأمور، وعدم مبالغته في وصف ما يصيب المسلمين في هذه البلاد، وقد استرسل في الحديث وطلب مني أن أبلغ المسئولين في المملكة الحالة الحاضرة التي شاهدتها، وعرفتها بالوسائل المختلفة التي أراها والتي هي من طبيعة عملي كما يعرفه عني.

فشكرته على ذلك وأطلعته على بعض الكتابات السرية التي سلمها إليَّ بعض المسلمين حول هذا الموضوع.

إمام بارا:

ومعناه (مبنى الإمام) وهو بناء عجيب بناه أحد أمراء الشيعة الذين تناوبوا على حكم مدينة لكنو وما حولها فترة من الزمن، كأنما كان هذا الحاكم الشيعي يريد أن ينافس بناء تاج محل الذي بناه أحد ملوك المغوليين العظام الذين هم من أهل السنة، أو كأنما بناه لينافس مسجداً شهيراً هناك يقع إلى الشمال الشرقي من هذا البناء اسمه (بير محمد جامع) ويعتبر معقلاً من معاقل أهل السنة هنا، هذا إذا لم يكن الدافع إلى ذلك هو إظهار شعار المذهب الشيعي هنا ليس غير، وعلى أية حال المهم في الوقت الحاضر هو البناء نفسه.

وقد بناه آصف الدولة بن شجاع الدولة تذكاراً للحسين بن علي رضي الله عنه وكان بدأ بعمارته في عام ١٧٧٣م وانتهى منها في عام ١٧٨٤م أي استغرق العمل في بنائه إحدى عشرة سنة، والحقيقة أنه بالنسبة إلى وسائل البناء في ذلك العصر، وإلى ضخامة المبنى نفسه فإن المدة المذكورة ليست كثيرة عليه.



مسجد إمام بارا

إن المبــنى هــو مجموعة من الأبنية ذات القباب العالية، والمنابر المــتعددة وأظهــر مــا فيها قباب الحسينية وهي المسجد لأهل المذهب الشــيعي، يصــل بين ذلك كله أفنية يدخل إليها من بوابات عالية محكمة البناء، وقد أعترض شارع قديم بين المبنيين فأنشأ بانيه بوابة ضخمة، بل هائلة البناء اسمها الرومية نسبة إلى أنها ذات طراز رومي، والحقيقة أنها ليست كذلك فطرازها مثل غيرها هنا هو الطراز المغولي الذي يميل أكثر إلى طراز البناء العربي المملوكي أي الذي ازدهر في عصور المماليك.

دخلــنا مــع البوابة الرئيسية إلى فناء واسع قد نسقت فيه الزهور وأحاطت به أروقة ذوات طابقين وأقواس جميلة البناء، إلى أن وصلنا إلى درج عــالٍ يفضي إلى فناء مكشوف آخر الظاهر أن علوه بسبب طبيعة الأرض لأن البناء قائم على ربوة مرتفعة، وذلك البناء مفروش بالحجارة المهذبة التي هي كالرخام في صقل جميل.

وهـنا وصلنا إلى درج المدخل إلى البناء الذي يشبه المسجد على البعد وما هو بالمسجد فاخترنا دليلاً من أهل لكنو الذين هم أعرف بشعابها.

قـال الدلـيل وهو يرينا القاعة التي تلي المدخل وهي مسقوفة: إن مهـندس هذا البناء هو إيراني اسمه (كفاية الله) وإن عرض هذه القاعة التي تلي المدخل هو ٤٠ قدماً وطولها ١٣٠ قدماً وليس فيها خشب أو أي شيء آخر وإنما هي بعقد معقود من الآجر الأحمر الصغير، ولكن الذي أقامـه وجعلـه يبدو متماسكاً قوياً لأكثر من مائتي سنة هو دقة الهندسة، وجودتها وقال: إن عرض جدار البناء هو (١٥) قدماً.

وقال: إن هناك ألف طريق في الطابق الثاني من هذا البناء، وإنه لا يهـتدي إلـيها إلاّ خبير وقد عملها آصف الدولة حتى يتمكن من تضليل الذيـن يريدون به سوءاً، وإنه بلغ بها الأمر أن ناساً دخلوها من غير دليل فهلكوا فيها ومنهم بعض الإنكليز في أول دخولهم للبلاد لأن بعضها مظلم لا يدري المرء إلى أين يهتدي للخروج منه.

وفـي جنوبيه قاعة في شرفة داخلية فيها عالية كانت زوجات هذا الحـاكم وغيرهن من نسائه يجلسن فيها يستمعن الوعظ من الشيخ الذي يكون في الأسفل حوله الرجال.

أمـا القاعـة الرئيسـية الكبيرة التي هي بمثابة المصلى الرئيسي في المسـاجد العادية فإنها كبيرة يبدو سقفها كداخل القباب العالية إلا أن ظهره مسـطح مـن فـوق، وكان فيه نقوش وزخارف عليها صحائف ذهبية قال الدليل والمرافقون الذين معي: إن الإنكليز أخذوها عندما حكموا هذه البلاد.

وأهم ما فيها إن لم تكن قد بنيت له فقط هو ما سماه الدليل لنا بلفظ

(التعزية) العربي وهو تمثال لقبر الحسين بن علي رضي الله عنه الموجود في كربلاء بالعراق، وهو مبني من خشب الصندل الغالي ومطلي بطلاء أبيض لماع، وهو بمثابة المحراب في وسط مقدمة البناية، وأمامه قبر صاحب البناء (آصف الدولة) وهو لاصق بالأرض محاط بحاجز من الخشب ويحيط به شمعدانات نحالسية كبيرة بعدها أخران صغيران وقد انتقلنا بعد ذلك إلى قاعة شمالية تقابل الجنوبية إلا أنها على شكل ثمرة البطيخ الشمام الذي يسمى في الحجاز الخربز ويسمى في لغة أهل هذه البلاد (الخربوز) وهو غير بعيد عن اللفظ الحجازي، لأن أصل التسمية من الفارسية فيما أعلمه، أما القاعة الجنوبية فإنها تسمى (الصينية) ليس لأنها منسوبة إلى الصين ولكن لأنها بنيت على شكل الصينية وهي الطبق الذي يقدم فيه الشراب وأنواع معينة من الطعام.

ووجدنا في ركن البناء الشمالي (تعزية) على حد تعبير المرافقين، وهي تمثال لقبر الحسين تسمى (تعزية العجوز) قال الدليل: إن سبب وجودها هنا هي أن الحاكم احتاج إلى أرض هذا المكان وكانت تملكه امرأة عجوز فلم ترض أن تبيعه له بالمال ، رغم محاولته ذلك، وإنما رضيت أن تعطيه إياه بالمجان بشرط أن يضع فيه تعزية باسمها، وهكذا كان.

إلى الطابق العلوي:

قال لنا إخواننا: إن رؤية الطابق العلوي مهمة جداً، وإن كان الصعود إليه صعباً ودفعنا التذاكر لكل واحد روبية واحدة وقادنا الدليل إلى درج عالٍ شبه واقف حديث البناء قد وضعوا بجانبه في الحائط قضيباً من الحديد يستعين به الصاعد التعِب على الصعود.

وعـــندما وصلنا إلى الطابق أو قبل أن نصل لا ندري فإننا وجدنا ممـــرات فـــي الجدار تتسع لشخص واحد بدين وتسمح بمرور اثنين إذا التقيا وهذه الممرات التي هي داخل الجدار في الحقيقة هي تهبط وتصعد وتلـــتوي وقـــد وضعت لبعضها كوى- جمع كوة- إلى القاعة الرئيسية لتسمح بالهواء دون أن يكون في ذلك خطر من أن يدخل منها أحد لأنها ضـــيقة ولأن موقعهـــا عالٍ، وأحياناً لا يكون في الممر نور، فلا يهتدي المرء إلا بنار أو نور يضيئه ، وهي لهذا الأمر أعدت، إذ ينزل من هذه الأماكن المظلمة أو يصعد درج يفضي إلى أماكن مجهولة لا يعرفها إلا أهلها الخبراء بها، قال الدليل: إن الملك أو الحاكم آصف الدولة صنع له ذلك حتى لا يدركه من يستطيع أن يصيبه بأذى.

والأغرب من ذلك أن بعض الزوايا البعيدة تسمع فيها أدنى حركة ممن يمرون بها حتى صوت التنفس وقد أرانا الدليل مثلاً على ذلك بأن ذهـــب في أحد الممرات واختفى فجعلنا آذاننا على الجدار وكان قال إنني ســـوف اتنفس فإذا سمعتم صوت تنفسي فتنفسوا أنتم حتى أسمعه ويكون هو الجواب على تنفسي، وقد وضعنا آذاننا على الجدار فأسرع أصحابي يقولـــون: إنهم سمعوه أما أنا فلم أتيقن منه ولعل ذلك بسبب ضجة كانت تصدر عن جماعة من الزوار غير بعيدة منا.

ثم صعدنا مع الدرج إلى طبقة ثالثة ثم إلى السطح العلوي ويشرف على ما حوله في منظر رائع، إذ ترى منه مناظر مبانٍ ضخمة قد حافظ بانوها على المسحة الجمالية فيها مع القوة، ومن أبرزها مسجدان أحدهما اســـمه (المسجد الآصفي) أو الحسينية نسبة إلى آصف الدولة هذا وهو للشـــيعة والآخر أقدم منه اسمه (بير محمد جامع) أي: جامع بير محمد،

وقد بني في عهد الملك أورنزيب، وهذا المسجد مشهور في المنطقة ومن أهم الحوادث فيه أن السيد أحمد الشهيد خطب فيه بقوم من الشيعة وبين في خطبته مذهب أهل السنة ومذهب الشيعة فرجع على يده قوم عديدون منهم إلى مذهب أهل السنة.

وقد عرفنا أنه قد حدثت اضطرابات بل وقتال طائفي بين السنيين والشيعيين في هذه البلاد، وهو أمر مؤسف وبخاصة في هذه العصور التي أصبح فيها المسلمون على اختلاف طوائفهم أقلية من الأقليات التي لا حول لها ولا طول.

أما المسجد الآصفي فإنه فاخر البناء ذو طراز مغولي يغلب عليه الطابع الفارسي وقد بني على تلة مرتفعة يصعد إليه من درج طويل جداً يفضي إلى بناء مفروش بالمرمر، ثم يفضي ذلك إلى المسجد.

وعندما انتهينا من هذه الجولة نقدنا الدليل عشر روبيات هندية وهي حوالي أربعة ريالات سعودية فأظهر امتنانه لذلك بأن حنى رأسه إلى الأمام علامة التحية والاحترام.

إلى جامع بير محمد:

كان إخواني ونحن قاصدون إليه بعد أن رأينا بناءه على البعد يحدثونني عن أهميته للمسلمين من أهل السنة في القديم حتى وصلنا إليه في منطقة كلها تعتبر منطقة أثرية لذلك لم يبن حولها بناء حديث، وإنما هو المسجد ومرافقه ثم ساحات شاسعة مفروشة بالأعشاب المنسقة وقد وضع على بعضها مقاعد حجرية لمن يريد الجلوس.

والمسجد بني فوق ربوة عالية يصعد إليها من درج قديم هناك وهو ذو منائر مغولية الطراز مبني بالحجارة القوية، ومما يؤسف له أن في الجهة الشمالية خلف المسجد قبة بنيت على قبر (بير محمد) الذي بنى المسجد.

وقد رأيت حوله جماعات من السكان من المسلمين يظهر لي أنهم من القائمين على شؤون المسجد، ورغم أن المسجد على تلة مرتفعة فإنني رأيت بئراً قربه عندها رجل يخرج الماء منها بدلو يشرب منها القادمون وقد عرض علي أن أشرب فلم أقبل ذلك، وقد رأيت البئر مطوية بلبن الآجر طياً محكماً مستديراً يبدو أنه أكثر بقاء واتقاناً من الطي بالحجارة.

ودخلنا المسجد فوجدنا جماعة يصلون على حصر مفروشة في ركن منه أما باقيه فإن حصره مطوية وهو ليس واسع المساحة من الداخل.

ويبدو داخله متقن البناء في غير إسراف.

ويقع المسجد على الضفة الغربية لنهر (قمتي) الذي هو نهر لكنو وهو بطرازه وبنائه أثر خالد من الآثار الإسلامية ويقابله من جهة الجنوب الشرقي جسر أثري قديم من الآثار الإسلامية أيضاً، إذ مضى عليه فيما قال لنا مرافقونا أكثر من ثلثمائة سنة وما زال على هذا النهر تمر فوقه الآن سيارات الشحن المحملة، ولم يتضعضع، ولم يحتج إلى تعمير مع أن وسائل بناء الجسور في تلك العصور كانت محدودة جداً كما هو معروف ويسمى هذا الجسر (بل شاهي) وبل: معناها جسر فهو إذاً الجسر الملكي، لأن شاهي هي الملكي أخذاً من الكلمة الفارسية (شاه) بمعنى ملك، وقد صادف مرورنا بسيارتنا فوق هذا الجسر على نهر

(قمتـــي) بالتاء لا بالنون لأن نهر قمني بالنون هو الذي عليه مدينة دلهي عاصمة الهند وهو غير هذا النهر وأكبر منه صادف أن قابلتنا قافلة من ســيارات الشحن العسكرية محملة بالجنود وهي تمر متصلة بهذا الجسر الإسلامي القديم دون أن يتأثر بذلك.

النصب التذكاري للجنود:

ولـــم نكـــد نفـــارق هذه المنطقة الأثرية الإسلامية حتى وقفنا عند النصـــب التذكاري لمن أسموهم بالشهداء وهم الذين قاتلوا في مقاومتهم للإنكلـــيز قـــبل الاستقلال، وقد بني حديثاً على شكل مسلة تتوسط مربعاً مـــرتفعاً وتحـــيط بها أربعة تماثيل لرؤوس أربعة من الفيلة وقد رفعت خراطيمها إلى أعلى.

ويحـــيط به من الأسفل حديقة منسقة فيها مقاعد للجلوس، وأشجار منســـقة وهـــي علـــى الضفة الغربية لنهر قمتي يقابلها تماماً من الجهة الشـــرقية ذلـــك الصـــرح الإسلامي العريق في هذه المنطقة وهو (ندوة العلماء) وترى مبانيها من هذا المكان واضحة، وقد رأيت قوارب صغيرة يجـــدف بهـــا عامل بيديه تنقل الركاب بين الضفتين قال لي الأخ عبدالله الحســـني الندوي أحد من كانوا معي: إن أجرة ركوب الشخص فيها هي ربع روبية أي: قرشان من عملتنا السعودية.

مساء لكنو:

عـــدت إلى الفندق قبل الغروب وأخذت استجلي من نافذتي مناظر الـــناس وعربات الركشا التي تزدحم بها الشوارع وأرتال الجواميس التي

خرجت في هذه الأمسية اللطيفة التي هطل مطرها قبل أوانه فلطف الجو، أو كأنها خرجت لتشارك الغواني اللاتي ضرب بهن المثل لمساء لكنو.

وعلى ذكر الغواني في هذه المدينة أقول: إن أهلها يبدون من الجنس الهندي الوجيه الذي نعرفه في بلادنا فهم لم يخرجوا من الطابع الهندي العام، ولكن ألوانهم أكثر بياضاً من ألوان سكان الجنوب في ولاية (ناميل نادو) مثلاً الذين يسمون (دراور) وأكثر وجاهة واستقامة في التقاطيع من أهل الشرق في البنغال وما حوله، إلا أنني لم أر على وجوه الغواني فيها ما يستحق أن يضرب به المثل في الحسن إلا إذا قلنا إن الحسن أمر نسبي، وهو كذلك.

وعندما حان وقت الصلاة بعد غروب الشمس صليت المغرب والعشاء جمعاً وكانت الساعة قد بلغت السابعة والنصف وهتف بي أحد الإخوة من ندوة العلماء فأخبرني أن الحجز في الدرجة الأولى من القطار قد تم أمره، وأن الشيخ أباالحسن ينتظرني الآن وأن الأفضل أن أعد أمتعتي لأننا من هناك سوف نذهب إلى محطة القطار.

فصدعت بالأمر وجاءت السيارة وودعت أهل فندق كلاركس وودعني الموظفون في مكتبه وفيهم فتاة مرحة الطبع، واسعة العينين شاءت أن تجاملني ربما كان ذلك لكونها رأت جواز سفري (دبلوماسياً) أو لأن بعض إخواني قد رفعوا من قدري عند هؤلاء حتى لا يقصروا في شيء من أمر الخدمة فيه، وهذه الفتاة هي من القليلات في الهند التي ترى عيني فيها شيئاً من الجمال لأن الجمال نسبي كما قلت، ولكن هذه وهي تودع مع غيرها وبحضور إخواني المرافقين سألت وعلى فمها

ابتسامة غريبة الدار في هذه البلاد التي لا تنتشر البسمة على وجوه أهلها وهم يحدثون الغريب أو حتى يحدث بعضهم بعضاً فقالت: ما رأيك في لكنو؟ وعسى أن تكون قد أحببتها، فأجبت بين عجب من مرافقي من الشيوخ الذين لا يتحدثون مع مثل هذه الفتاة الشابة كثيراً: نعم، لقد أحببت أهل لكنو أكثر مما أحببتها هي وكان هذا هو الصحيح.

وعندما وصلت إلى ندوة العلماء وجدت الشيخ أباالحسن حرسه الله وزاده من الخير قد أحضر طائفة من المشايخ والوجهاء عنده ومنهم الوزير المسلم محمد مسعود وزير الأوقاف والإسكان في ولاية (إترابراديش) وهي ولاية يبلغ عدد سكانها كما قلت (٩٣) مليوناً، ولكن أهميتها في كل شيء لا تصل إلى أقل كثيراً من ذلك العدد.

وسألت وزير الأوقاف في هذه المناسبة والشيخ أبوالحسن يسمع مع طائفة من المشايخ عن أوقاف المسلمين وما هو موقف الحكومة الهندية منها؟ فأجاب: إن الحكومة الهندية لا تتدخل في شؤونها مطلقاً ولم يحدث أن صادرت منها أي شيء، وسألته عن أهل الأديان الأخرى مثل الهندوكية التي هي ديانة الأكثرية في هذه البلاد: ألهم أوقاف كما للمسلمين؟ فأجاب: نعم ولكن ذلك على نطاق ضيق جداً.

وعلق الشيخ أبوالحسن الندوي على ذلك بأن الحكومة الهندية لا تتدخل في أوقاف المسلمين وإنما لها لجنة خاصة تنظر فيها، وعدم الاستفادة منها استفادة كاملة يرجع إلى المسلمين المشرفين عليها إذْ إنهم لو استفادوا منها كما ينبغي لأنفقت على كثير من المدارس والمشروعات الإسلامية في هذه البلاد.

وقال الشيخ أبوالحسن: إن الأخ محمد مسعود هو وزير الأوقاف وشؤون الإسكان في هذه الولاية في الوقت الحاضر، وكان قبل ذلك وزيراً للمواصلات في الولاية، ولذلك هو يعرف أكثر من غيره هذا الأمر.

وأضاف الشيخ أبوالحسن: لقد جاء لتحيتك عندما علم بقدومك فشكرت لهما ذلك وقلت: إنني لا أود أن أجشمه مشقة الحضور ولو كنت أعلم بوجوده قريباً مني لذهبت للسلام عليه فعلق أحد الإخوان الحاضرين وقال: إننا عندما لم نستطع الحصول على مكان لك في الدرجة الأولى من قطار هذه الليلة اتصلنا به نطلب منه المساعدة في ذلك حذراً من أن يكون أحد من الموظفين قد تلاعب بالأماكن، فتدخل في الأمر وحجز لك مركباً أو على الأصح سريراً للنوم في القطار، وإنه لهذا السبب علم بوجودك فجاء.

هذا وقد أسرع الشيخ أبوالحسن يدعو الجميع إلى قاعة الطعام في الداخل وهي قاعة مفروشة يستند الجالس فيها على الأرض إلى أرائك خلف ظهره لمن هم في مقدمة المجلس فمدوا السماط وأحضروا الطعام المبارك فكان شهياً بورك فيه أكل منه عدد منهم وكنت من بينهم إذْ أكلت بشهية لا أدري مصدرها أهو طيب الطعام، أم اعتقادي بطيبه أم الأمران كلاهما.

وبعد صلاة العشاء قمنا مباشر إلى السيارة التي وقفت بجانبها سيارة الوزير محمد مسعود، وركب الإخوان وهمَّ الشيخ أبوالحسن بالركوب للذهاب إلى المحطة فمنعته من ذلك فلم يمتنع حتى أقسمت عليه ألا يفعل جزاه الله خيراً، ولكنه أناب طائفة من الإخوان على رأسهم الشيخ محمد الرابع الندوي والشيخ سعيد الأعظمي والوزير محمد مسعود فذهبوا إلى المحطة، ولم يتركوني إلا وأنا في مكاني من القطار.

وذلك أمر عجيب من إخواننا مسلمي أهل الهند فهم يقومون لضيفهم بإكرام عجيب، إذ لو كان رجل من أهل الهند في مقدار مقامي الضعيف جاء ضيفاً على جماعة في المملكة لأكرموه بتقديم مقادير هائلة من الطعام ثم لقدموا إليه من مراسم الاستقبال والتوديع ومن السعي في شؤونه ما يقل عن الكفاية بكثير.

ليلة قطارية أخرى:

كانت محطة القطار عندما وصلناها تعج بالألوف المؤلفة من الخلق، وتكاد الأصوات فيها تصم الآذان ويرفع الناس أصواتهم بالكلام، وبالنداء حتى يتغلبوا على ذلك ولكنهم يصبحون أيضاً بهذا الأمر من أقوى أدوات الضجيج.

والمحطة بأدواتها ومظاهرها والنظافة في أرضها وجدرانها هي دون المتوسط مثلها في ذلك مثل القطارات نفسها إلا أن مبنى المحطة كبير جيد المظهر من الخارج.

وبين هذا الجمع الحاشد من الناس انتشرت أعداد كبير من جنود الشرطة بشكل لافت للنظر وهم يحملون سلاحهم الوحيد من العصي الغليظة الطويلة التي هي أطول من قامة الرجل، ربما كانوا قد جعلوها بهذه المثابة من الطول لكي يتمكن الشرطي من ضرب من يهرب منه ولو على مسافة أبعد مما تصل إليه يداه.

تحرك القطار في موعده المحدد في الساعة التاسعة والدقيقة الأربعين.

وكان سريري في الطابق العلوي من مقصورة فيها ٤ أسرة معدة لأربعة أشخاص شغل أحدها رجل جالس وامرأة مسنة جلست بجانبه،

وقد اختصما في السرير كل واحد منهما يقول: إنه هو صاحبه وأحق به حتى جاء المفتش بعد أن سار القطار قليلاً فحكم بأن السرير هو للمرأة بموجب تذكرتها وليته حكم بأنه للرجل ذلك بأنها امرأة مسنة تسعل وتتأوه في بعض الأحيان وتنظف أنفها بأصابعها، وإذا وقع النظر عليها انقلب خاسئاً وهو ليس بحسير، أما بقية المقاعد فهما لرجلين من الهندوكيين من متوسطي العمر.

وعندما كنت في سريري لم أكن أرى شيئاً لأنني فوق مستوى النافذة من جهة ولأن الظلام في الخارج دامس من جهة أخرى.

ولم تكن العربة مكيفة الهواء وإنما كانت فيها أربع مراوح متحركة يستطيع كل راكب أن يوجه واحدة منها إلى سريره، ولم يكن الجو حاراً لأن الوقت ليل، وبسبب المطر الذي سقط في عصر هذا اليوم.

وتأملت هذا القطار فإذا هو القطار الذي ركبته منذ سنتين في جنوبي الهند من مدينة مدراس إلى مدينة كليكوت في بلاد المليبار أو (كيرالا) كما تسمى اليوم أو شبيه به، فهو غير مريح ومعظم ما فيه قديم.

ذكريات في لكنو:

بينما كنت أحاول النوم فتمعني منه حركة القطار غير المرنة التي كانت تخض الجسم خضاً متواصلاً كنت وأنا أغادر مدينة لكنو، وأذكر بالتقدير هذا الإكرام الذي قابلني به الشيخ أبوالحسن الندوي وتلاميذه فيها كنت أعود بذاكرتي إلى الوقت الذي كنت فيه في هذه المدينة لأول مرة عام ١٣٩٥هـ حين كنت أحضر المهرجان الذي أقامته ندوة العلماء لمناسبة مرور خمسة وسبعين عاماً على إنشائها.

الشيخ أبوالحسن الندوي يتكلم في المهرجان عام ١٣٩٥هـ

وكان قد حضر ذلك الاحتفال عدد كبير من العلماء والأدباء وكبار العاملين في العلم والثقافة من أنحاء العالم.

وذلك لما يتمتع به الشيخ أبوالحسن الندوي من مكانة وما يتحلى به من خلق رفيع ولباقة نادرة، وأصدقاوه ومحبوه وعارفو فضله كثر.

كان المسئولون عن الاحتفال قد حجزوا غرفاً للضيوف من خارج الهند في الفندق الذي نزلت فيه اليوم (كلاركس) في لكنو، وهذا ليس فيه من العجب إلاّ أن تقوى جمعية خاصة على تحمل هذه النفقات ولكن العجب كان في توفير الركوب ما بين الفندق وندوة العلماء، بل حتى التجول في المدينة والتسوق منها فذلك يلزم له عدة مئات من السيارات أنى لهم باستيجارها غير أنهم حلوا هذه المشكلة بطريقة عجيبة.

ذلــك بأن المسلمين من مالكي السيارات تبرعوا بسياراتهم لخدمة ضيوف الندوة فكنت في أي وقت تخرج فيه من بوابة الاحتفال تجد أناساً قــد وكل إليهم أمر المواصلات فيركبونك في سيارة من السيارات التي ينتظرك أصحابها أو سائقوها يحملونك إلى حيث تريد، وذلك كله بالمجان بطبيعة الحال.

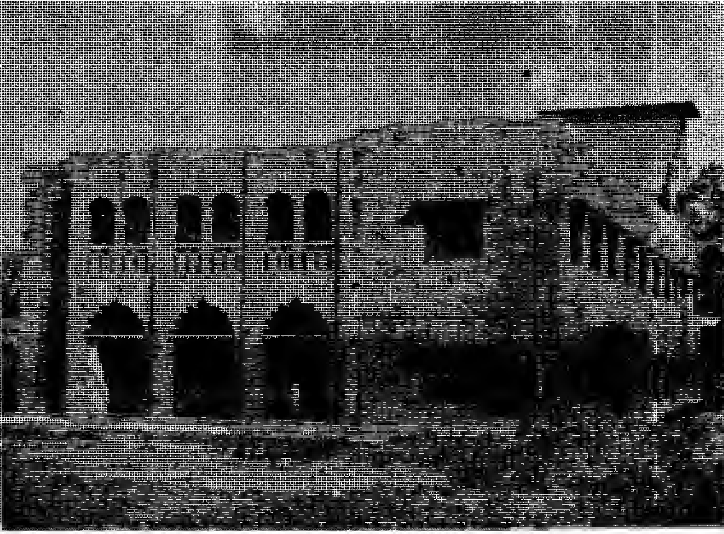
وإن كــنا مع بعض أصحابنا قد انتبهنا لهذا آخر الأمر وكنا نظنها قــبل ذلك من سيارات الأجرة أو السيارات الخاصة التي استأجرتها ندوة العلمــاء فكــنا توفيراً لجهد هؤلاء الإخوة وسياراتهم إذا كان في الوقت متسع نعمد إلى سيارات الركشا فنركبها بأجر زهيد إلى الفندق.

وكـــان احتفال (ندوة العلماء) هو الاحتفال الكبير الأول الذي أحضره فــي الهند ولذلك كان عجبي ومن كان مثلي من زملائي عظيماً من روعة تنظــيم الاحتفال، وعشرات الألوف التي حضرته ومن توفير الأدوات لذلك، حيث كانوا قد أقاموا له سرادقاً واسعاً عظيماً لا تستطيع أن تتبين وأنت في المنصة الرئيسية وجوه الذين في الصفوف الخلفية فيه.

وذلـــك حـــتى يتسع للناس لأن المنشآت الكثيرة الموجودة في أبنية الندوة لا تتسع لذلك، وكان الشيخ أبوالحسن الندوي هو نجم الاحتفال بحق فكـــان تـــارة يخطب وتارة يعلق على خطب الآخرين وكان يزور كبار الـــزوار فـــي الفندق ويؤانس صغارهم فهو قليل النظير في الهند بل في العالم الإسلامي.

التعريف بندوة العلماء:

كـــان السيد أبوالحسن الندوي ألقى الكلمة الآتي نصها بالعربية في ذلـــك المهرجان التاريخي، وتوضح تاريخ الندوة وأشياء كثيرة مهمة من أحوال المسلمين في الهند.



جانب من (دار العلوم: ندوة العلماء) في لكنو

قال السيد أبوالحسن:

ندوة العلماء تاريخها ونشأتها:

صــــارت قـــيادة المسلمين في القرون المتأخرة إلى أناس لم يكونوا جامعيـــن بين الدين والدنيا، فحدث في الإسلام بدعة فصل الدين والدنيا، فاستبد الملوك بدنياهم وانقطع العلماء بدينهم، وبقي العامة لا قائد لهم ولا رائـــد، وصار الإسلام كالنصرانية، عرش وكنيسة ولكل رجال، وقيصر

والإله ولكل نصيب، ولكن عرش بدون قوائم، وكنيسة بغير حراس.

ولمـــا طال بعد العلماء عن الحياة صاروا أجانب عن الحياة وعن الدين وعن السياسة، حتى إذا تدخلوا في شأن من شئونها كان ذلك حجة لأهــل الدنيا على أهل الدين، لعدم خبرة العلماء وقلة مهارتهم في شئون الحياة وعلوم العصر.

وتشــاغل العلمــاء بعلوم ليس لها دعوة في الدنيا ولا في الآخرة، وبمســائل لا تجــدي نفعاً، وتشاغلوا في الزمن الأخير بالجدل والشقاق والتكفــير والتضــليل، وصاروا يجاهدون في غير جهاد، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، فكم سالت دماء وكم جرت محاكمات لأجل مسائل فقهية في محاكم الكفار، وكم وقع من إهانات ذلت لها رقبة المسلمين في الهند.

استولت أوربا على الأرض، وكانت كما وصف الله سبحانه وتعالى (مــن كــل حدب ينسلون) فهجمت على الإسلام من طريق العقل والنقل والفلسفة والحكمة والتاريخ والأدب، ومن طريق السياسة وباسم الحضارة والــثقافة، وعجــزت الآلات التــي حارب بها أسلافنا علوم اليونان عن مقاومــة العلــوم الغربــية، فاقتضى الحال أن يجدد علماء الإسلام آلات الدفاع عن الإسلام، ويحدثوا آلات أخرى للهجوم على العدو.

هــذا، والمسلمون في الهند بين طائفتين، طائفة قد آمنت بالعلوم الغربية بالغيــب وآمنــت بعصــمة الغربييــن في علومهم وبسيادتهم وإمامتهم في كل شــيء، ودعــت إلــى قبول نظامهم في التعليم على علاته، وطائفة قد آمنت بعصــمة العلمــاء المتأخرين في منهاج درسهم وترتيبهم للكتب، لا يرون عنه بديــلا ولا يجــدون عــنه محيصــاً، ويرون العدول عنه في شيء ضرباً من

التحريف ونوعاً من البدع فكاد الدين وكاد العلم يضيع بين جاحد وجامد.

أدرك هـذا الخطـر رجال من أهل الدين المتين والعلم الراسخ والنظر الثاقـب، فـي مقدمـتهم العالم الكبير والشيخ الصالح مولانا السيد محمد علي المونكـيري رحمـة الله علـيه، وكثير من أصحاب الشيخ الكبير مولانا فضل رحمـن السكج مراد آبادي وتلاميذ الأستاذ الكبير مولانا لطف الله العليكرهي، ينتهـي نسبهم العلمي إلى بيت الشيخ ولي الله الدهلوي، واجتمعوا وشاوروا في الأمـر، وكانوا قد اجتمعوا في حفلة مدرسة فيض عام في كانفور التي أسسها المفتي عنايت أحمد (١٢٧٩هـ) أستاذ الشيخ لطف الله.

اجـتمعوا في هذه الحفلة سنة ١٣١٠هـ وبحثوا في مسائل التعليم الديني ومستقبل المدارس العربية وشئون المسلمين الاجتماعية والخلقية، وصـحت عزيمتهم على تأسيس جمعية دينية علمية تعنى بمسألة التعليم الدينـي وإصـلاح المسـلمين الاجتماعـي الخلقي، والجمع بين طبقات المسلمين عامة وطبقات العلماء وأحزابهم خاصة.

أسـس هؤلاء العلماء- وهم نخبة علماء الهند- جمعية باسم "ندوة العلمـاء" وعقدوا حفلتها الأولى في كانفور سنة ١٣١١هـ تحت رئاسة الأسـتاذ الأكـبر الشيخ لطف الله العليكرهي، وأرسلوا دعوتهم إلى جمع كلمة العلماء ورفع الشقاق والنزاع من بينهم، وإصلاح المدارس القديمة والتغيير اللائق في منهاج المدارس.

اجتهد أعضاء الندوة في ذلك واجتمعوا وتشاوروا وكاتبوا وراسلوا وخطـبوا وكتبوا في هذا الموضوع، ولكن علموا بعد الاختبار أن ذلك لا يتم إلا إذا أسسوا مدرسة خاصة تكون مثلاً عملياً للمدارس الأخرى.

فأمسوا في لكنو عاصمة الولايات المتحدة في الهند- على دعوة السرى المخلص الشيخ أطهر علي الكاكوري (م ١٣٢٦هـ) دفين البقيع- مدرسة دينية عربية هي دار العلوم التابعة لندوة العلماء، وكان ذلك سنة ١٣١٢هـ تولى إدارتها والإشراف على شئون مدرستها رجال يمتازون بمتانة في الدين مع تسامح في الخلافيات والفروع، ورسوخ في علوم الدين مع إطلاع واسع على شؤون العصر، ومحافظة على الشرع والتقوى مع حب الجمع بين طبقات الأمة، وهم من بيوتات علم ودين، فكان مولانا السيد محمد علي المونكيري (م ١٣٤٦هـ) خليفة الشيخ الكبير مولانا فضل رحمن الكنج مراد آبادي أول مدير لندوة العلماء وخلفه مولانا مسيح الزمان الشاه جهان بوري (م ١٣٣١هـ) أستاذ سمو نظام حيدر آباد السابق، وخلفه مولانا خليل الرحمن السهارنبوري (م ١٣٥٥هـ) ابن المحدث الكبير مولانا أحمد علي السهارنبوري صاحب حاشية البخاري، وخلفه مولانا السيد عبدالحي الحسني (م١٣٤٢هـ) صاحب "نزهة الخواطر" والمؤلفات العربية الجليلة من بيت السيد الإمام أحمد بن عرفان الشيهد، وخلفه مولانا السيد علي حسن خان (م١٣٥٥هـ) نجل الأمير المؤلف الكبير السيد صديق حسن خان ملك بهوبال، وخلفه الأستاذ الدكتور السيد عبدالعلي الحسني نجل مولانا السيد عبدالحي مدير ندوة العلماء الأسبق.

وكان الإشراف على شئونها التعليمية إلى الأستاذ الكبير والمؤرخ الشهير الشيخ شبلي النعماني (م ١٣٣٢هـ) ثم إلى تلميذه النابغة الأستاذ السيد سليمان الندوي.

تمتعت الندوة بحماية كبار الصالحين ورجال العلم والدين من أول

يومها، كمولانا ظهور الإسلام الفتح بوري، ومولانا نور محمد البنجابي ومولانا تجمُّل حسين البهاري من كبار أصحاب الشيخ سليمان البهلواروي، والسرى الفاضل مولانا حبيب الرحمن الشرواني رئيس الشئون الدينية في إمارة حيدر آباد سابقاً من أقدم أعضاء الندوة ومن كبار حماتها، والشيخ رحيم بخش وصي إمارة بهاول بور سابقاً، والعلامة عبدالحق الحقاني صاحب التفسير المشهور، والشيخ سليمان المنصور فوري، والمنشي إحتشام علي الكالوروي وغيرهم.

وتولى التدريس في دار العلوم علماء كبار من مشاهير علماء الهند وخارجها، كالشيخ محمد فاروق الجرياكوتي والشيخ عبدالله التونكي والشيخ محمد طيب المكي، والشيخ شير علي الحيدر آبادي والشيخ محمد بن الحسين اليماني والشيخ أمير علي اللكنهوي والشيخ حفيظ الله البندولي، والشيخ شبلي الأعظمي، والشيخ حيدر حسن خان التونكي، والشيخ تقي الدين الهلالي المراكشي.

تأسست ندوة العلماء على مبدأ التغيير والإصلاح في نظام التعليم الديني وفي منهاج الدرس العربي، فحذفت وزادت وغيرت وأصلحت في منهاج التعليم.

حذفت المقدار الزائد من كتب المنطق والفلسفة اليونانية التي ضعفت الحاجة إليها في هذا العصر، وأعطت القرآن حقه من العناية فقررت دراسة متنه الشريف حرفاً حرفاً لغة ونحواً وأدباً واجتماعاً وفقهاً وكلاماً، هذا ما عدا التفاسير المقررة في الصفوف العالية، وألزمت تدريس القرآن والحديث بالتدريج في سنيها التعليمية.

زادت مقدار دراسة اللغة العربية وآدابها لأن اللغة العربية والأدب العربي مفتاح كنوز الكتاب والسنة والرابطة الأدبية في الشعوب الإسلامية، ووجهت عنايتها إلى تعليم اللغة العربية كلغة من لغات البشر وكلغة حية يكتب بها ويخطب، لا كلغة أثرية عتيقة ميتة، وألفت لذلك كتباً تساعد على ذلك، وقد أقر الناس بفضل الندوة في هذه الناحية.

قررت تدريس اللغة وبعض العلوم العصرية كالجغرافية والتاريخ والعلوم الرياضية والسياسة وعلم الاقتصاد، ليطلع العلماء على مقتضيات العصر، ويتسلحوا بالأسلحة الجديدة للدفاع عن الدين.

أنست ما كان بين أهل المذاهب والطوائف الفقهية كالحنفية والشافعية وأهل الحديث من المشاجرات ودواعي العصبية ونجحت في ذلك نجاحاً تاماً فلا تشم في دارها رائحة الخلاف والحقد المذهبي وترى الطلبة من كل مذهب إخواناً متقابلين في قاعة درسهم ودار إقامتهم جنباً لجنب.

مبدأ الندوة وشعارها أن تخرج من مدرستها رجالاً مبشرين بالدين القديم لأهل العصر الجديد، شارحين الشريعة الإسلامية بلغة يفهمها أهل العصر وبأسلوب يستهوى القلوب أمة وسطاً بين الجامدين والجاحدين.

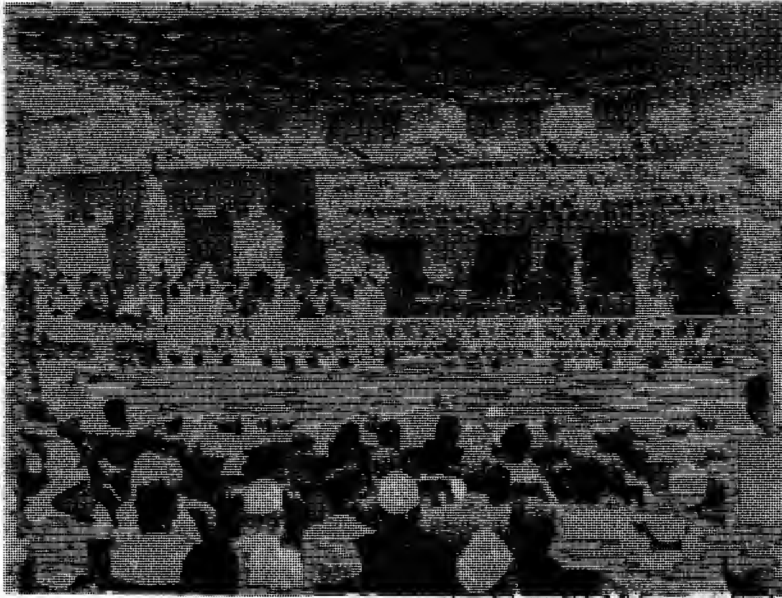
وقد أنجبت في مدة قليلة رجالاً هم خير مثل للعالم المسلم العصري الذين قد قامت بهم حجة العلوم الإسلامية على أهل العصر الجديد، ورفعوا رأس علماء الدين عالياً بين طبقات المتعلمين، ولهم آثار جميلة خالدة في الأدب الإسلامي، وعلم التوحيد لأهل العصر الجديد، والسيرة النبوية والتاريخ ككتاب "سيرة النبي" في ستة مجلدات كبار وهي موسوعة إسلامية، وأكبر كتاب ألف في السيرة النبوية ومهمات الدين في

هـذا العصر للعلامة سليمان الندوي، وكتب في تراجم الصحابة وسيرهم للمتخرجين من دار العلوم ورسالة قيمة في الدين والعلوم العقلية للأستاذ عبدالباري الندوي، إلى غير ذلك من الكتب والرسائل.

وقـد أنشـأ المتخرجون من الندوة جمعية دار المصنفين في أعظم كـره وهـي من المؤسسات العلمية الكبيرة في الهند تصدر مجلة علمية راقية شهرية باسم "معارف".

ولـدار العلوم بناية عظيمة على شاطئ نهر قمتي في مدينة لكنو، ومكتبة كبيرة تحتوي على ٨٠ ألف كتاب أكثرها غير مكرر و٢٠٠٠ من الكتب الخطية النادرة، ودار لإقامة الطلبة ومسجد جميل.

انتهى كلام السيد أبي الحسن.



منظر من المهرجان الذي أقامته (دار العلوم: ندوة العلماء في عام ١٣٩٥هـ

العودة إلى الواقع:

وبينما كنت مستغرقاً في التفكير إذا بقطار آخر يقابل قطارنا فيبدي كل واحد منهما صوتاً مزعجاً متداخلاً مع صوت الآخر ولا سيما صوت عجلاتهما غير المرنة على قضبان الطريق، فأعود إلى واقعي في هذا القطار فيحدث ما يكدرني، إذ أن بعض زملاء المقصورة ربما كان قد أخذ بالحكمة الهندية القديمة التي نظم معناها أبان بن عبدالحميد بالعربية فقال:

قد قال ذو العلم الفصيح الهندي ... مقالة أجاد فيها عندي
لا تحبس الضرطة إما حضرت ... وخلها وافتح لها ما استفتحت
فإن أدوا الداءِ في إمساكها ... والروح والراحة في إفكاكها

ولكن ماذا يهم؟ فالأمر على مضايقته مؤقت، وقد يكون علاجه في وضع شيء على الأنف لفترة من الوقت.

ولكن القطار يقف في المحطة ويطيل في بعض الأحيان فيكون في ذلك راحة للجسم والأذن غير أن سائقه يبدو أنه يتذكر فجأة بأن عليه أن يقوم فينزع القطار من مكانه نزعاً غير مريح للراكب، وأحياناً يشق السكوت عندما يقف القطار صوت أحد الباعة المتجولين وهو يصرخ وينادي على بضاعته.

ومع ذلك لم يكن الليل كله سهراً بل تخللته غفوات لذيذة ولذتها في قصرها ولكونها في مكان غير معتاد.

وعندما صارت الساعة الخامسة كان الضوء قد غمر هذا الجزء الذي يسير فيه القطار من القارة الهندية.

يوم الأربعاء ١٩/٦/١٣٩٩هـ - ١٦/٥/١٩٧٩م:

وقف القطار هنيهة بعد الخامسة في محطة من المحطات التي كان يقف فيها كثيراً فنزلتُ من علياء السرير ووقفت بباب العربة فإذا بي أرى زحاماً من الناس رغم هذا الوقت المبكر، ولا عجب في ذلك لأن مثل هذه المحطة تكون مجتمعاً للناس الذين يسكنون في القرى والأرياف التي حولها لأن الأرض الهندية الخصبة هذه كلها مزروعة ومأهولة بالناس، وإذا بمنظر الشرطة بعصيهم الطويلة وهم يتسكعون بين الناس، وإذا بباعة الشاي ومعه قطع من الخبز وهم يصعدون إلى عربات القطار وينزلون وينادون مع أن مناظرهم ومناظر ثيابهم، فضلاً عن أوانيهم وما معهم مما يصد النفس عن النظر فضلاً عن التناول والأكل.

وفي المحطة كان بعض أهل الأرياف من نساء ورجال يقفون أو يسيرون، وكثير منهم يبين على وجهه آثار نقص التغذية، وعدم اكتمال النظافة، وبعضهم حفاة الأقدام وقد رأيت امرأتين مسلمتين متحجبتين تماماً في هذا الجو الهندي الذي يقل فيه الحجاب.

ومما يضايق في هذا الوقت المبكر أن الذين كانوا يذهبون إلى دورة المياه في القطار كانوا يجتهدون في أن ينظفوا حلوقهم وصدورهم بأصوات مسموعة.

أما دورة المياه فقد كتب على بابها بالإنكليزية (مراحيض على الطريقة الهندية) وهي ما نسميه عندنا بالمراحيض العربية، ولا بأس بنظافتها والماء فيها متوفر يضغط الراكب على صنابير يقف ماؤها عن الجريان إذا كف عن ضغطه.

واسم المحطة هذه (هابور).

ثـم تحرك القطار مواصلاً سيره في ريف هندي معتاد، تتناثر فيه فـي أحـيان كثيرة أكداس القمح الحصيد الذي لم يتم دياسه وذريه بعد، ومـنظر الـبقرات الرابضـة وكأنهـا تمن على الجميع بذلك لأنها التي يقدسـونها ويعظمونهـا إلاّ أنه إذا كان لها أن تفرح بذلك، فإن عليها أن تحـزن لمـنظر أبنائها وأشقائها من الثيران التي وضعوا فوق غواربها حـبال المحاريـث يحرثون الأرض عليها، ويضعون على ظهورها من الأحمال ما تطيق وما لا تكاد تطيق، وكأني بالبقرة على غباوتها في الفهم تلـك الغـباوة التي حملت العرب على أن يضربوا بها المثل في ذلك[١] وهي تتعجب بعقلها البقري (المقدس) من هذه العقول الآدمية الهندية التي لا تعـرف المسـاواة بيـن الذكر والأنثى فتقدس الأنثى، ولا تفعل ذلك بشقيقها الذكر وليس الذكر إلا أخا الأنثى وولدها وأباها فهو إما أن يكون منها أو أن تكون منه أو يكون الأمران معاً.

وفي هذا الريف تكرر منظر الأهرامات وليست أهرامات مبنية من الحجارة أو الطين وإنما هي من اخثاء البقر والجواميس أي: من أرواثها وهـم يصنعون بها ذلك لكي تجف ، ولا يفسدها المطر إذا سقط عليها، وقد حافظوا عليها ليستعملوها في الوقود نظراً لانعدام الغاز عندهم ولأن الوقوع عندهم ليس إلاّ بالطريقة القديمة من الخشب والروث ونحوه.

وهـذا الـريف كله معمور إلا أن عدد الناس العاملين فيه قليل، ولعل ذلـك بسبب كون الوقت مبكراً على خروجهم للعمل مع أن الشمس كانت قد

---

[١] ذكرت الأشعار والأقوال في ذلك في كتابي: الأصول الفصيحة للأمثال الدارجة.

أشـــرقت قـــبل قليل من الوقت، وإن الفصل هو فصل الصيف الذي يفضل فيه الفلاحون في البلاد الأخرى أن يبدءوا العمل مبكرين لبرودة الجو.

ومما لفت نظري في هذا الريف الهندي منظر ذكرني بشبيه له كان موجـــوداً في بلادنا وانقرض مع ما انقرض من أشياء فيها بعد الازدهار الاقتصـــادي الأخير ذلك هو منظر (المطينة) وهي الحفرة التي تحفر في الأرض يـــأخذ مـــنها الـــناس الطيـــن لبـــناء البيوت، ولغرض آخر من الأغـــراض، وقـــد رأيـــتهم هنا يحملون منها لبناً يابساً كانوا قد ضربوه وينقلونه على ظهر حمر – جمع حمار– كانت واقفة عندهم.

ثـــم مررنا بقرية كل بيوتها تقريباً مبنية بلبن الآجر الأحمر الجميل وهـــو أحمر حمرة لافتة للنظر، ربما تكون هذه القرية أنموذجية أو بنيت بعناية من شركة أو هيئة حكومية جعلتها تبدو كذلك.

ومـــع جمـــال هذه القرية فإنها لم تخل من البلاء المنتشر في أكثر الـــبلاد الهندية على طولها وعرضها ألا وهو وجود البرك والمستنقعات التـــي تكون من المياه الآسنة الخضراء اللون المحاطة في الغالب بطين أسود قذر من أثر وطئ البهائم والآدميين الذين يترددون على ذلك الماء.

وبعـــد ذلك مر القطار بمزارع للخضروات منسقة جيدة، وبقرية آخرى بعدهـــا رأيـــنا أبراجاً ضخمة لنقل التيار الكهربائي، وأكثر هذا الريف ليس فيه أنهـــار فيما رأيناه وإنما هي قنوات للمياه وافرة المياه لا شك في أنها قد سيقت من نهر غير بعيد، وبالفعل مررنا بعد مسافة قصيرة بنهر غير كبير.

وبعـــد ذلك عادت المستنقعات الهندية الشهيرة إلى الظهور، ولكنها كانت في هذه المرة مليئة بالغرانيق البيض، وبطيور مائية أخرى تسرح

فيها وتمرح لا تخشى رصاص صائد ولا لومة لائم في هذه البلاد الهندية التـــي لا تؤذي فيها الغراب المؤذي لوناً وصوتاً وطبعاً مع أن (المؤذي طبعاً، يقتل شرعاً) كما تقول القاعدة المشهورة في أصول الفقه.

ووصل القطار إلى محطة اسمها (دسنة) فوقف فيها هينهة.

غازي آباد:

ثـــم واصـــل ســـيره حتى وصل إلى محطة واسعة في بلدة جيدة المبانـــي، طيـــبة الاســـم اســـمها (غازي آباد) أي: بلد الغازي أو مدينة الغـــازي، والغـــزو عندنا نحن المسلمين وبخاصة عند مسلمي هذه البلاد الهـــندية هـــو مما يثير في النفس الذكريات المحبوبة، ذلك بأن المسلمين عندما كانوا يغزون، وكان منهم الأمراء والزعماء الغزاة كان لهم المجد والظفر أما عندما تركوا ذلك فإنهم لم يفقدوا ذلك فحسب، وإنما أصبحوا مغزوين بعد أن كانوا غازين.

وفـــي محطـــة هذه المدينة مجمع كبير للطرق الحديدية، ومصانع ترتفع مداخـــنها عالية في الهواء ولا تعدم بعد ذلك أن تجد فيها المستنقعات الهندية، أي الحفـــر ذات المياه الآسنة وبجانبها مما يلي (دلهي) إن لم تكن من ملحقاتها قرية سيئة العمارة متطامنة البيوت قذرة الشوارع لا أدري ما اسمها.

هذه دلهي:

في الساعة الثامنة إلا ربعاً وصلنا إلى مشارف مدينة دلهي فاستقبلنا منها مصانع، ومبانٍ متفرقة، وفي الثامنة كان القطار يقف في محطتها.

وقلت في نفسي: ماذا أصنع بحقيبتي؟ وإذا بحشد من الحمالين يتسابقون إلينا نحن الركاب كل واحد منهم يحاول أن يفوز بالحمل الثقيل قبل أصحابه، وكان نصيبي فتى أردت أن يكون لي حمالاً، وأن يكون في الوقت نفسه دليلاً فقلت له: إلى (التاكسي) فقال: جي، أي نعم، أو لا بأس، بالأوردية.

وعرفت بعد ذلك أنه دليل له قيمته، إذ كيف أجد الطريق الطويل من موقف القطار إلى محطة (التاكسي) بدونه.

فقادني وسط حشد بل طوفان من الناس إلى درج عالٍ صعب المرتقى فصعد منه وقد حمل حقيبتي الكبيرة على رأسه وطلب أن أعطيه أيضاً الحقيقة اليدوية يحملها بيده فأبيت لأن فيها نقودي وأوراقي الغالية، ولا يمكن أن أدعها تفلت من يدي ليد هذا الحمال الذي لا أعرفه، كان الصعود مع هذا الدرج العالي الواسع ثم السير فوق محطة القطار وسط طوفان من الناس أيضاً أشفقت منه أن يضيع مني حاملي لولا أن منظر حقيبتي فوق رأسه وهو شاب طويل نحيل هو الذي يهديني إليه، ولأنه مع ذلك كان يسرع في السير، وأنا أحب أن أتأني محبة في التأني، وعدم إيذاء الآخرين، ومحبة في الإطلاع والاستطلاع.

وكان هذا الطوفان من الآدميين في المحطة فيه من الطوفان المائي شيء بل أشياء فكما تكون مياه الطوفان غير نقية ولا صافية كذلك هؤلاء القوم من الهنود لا تكاد ترى فيه أو في ما حوله منظراً من المناظر التي يحب المرء أن يراها في الصباح حتى تظل نفسه مسرورة بها بعد ذلك لفترة من الوقت فالوجوه والملابس ليست من هذا القبيل إلا أن القوم

والحق يقال على غاية من الأدب في معاملة بعضهم بعضاً وفي معاملتهم للغريـب، فـلا مضـايقة ولا استعجال في السير، ولا اعتراض لسبيل الغريب في أي شيء.

وعـندما كنـت أصـعد هذا الدرج العالي وأنا أرثي لمنظر شيوخ وعجائـز كانوا معي يصعدون وهم يجاهدون في الصعود وحمالين كذلك بأحمالهم يلهثون، ذكرت الحالة التي عليها مثل هذه المحطات في البلدان الأوروبـية، والأمريكـية، حيث يكون تجاوز محطة القطار في الغالب بسـلالم كهربائية متحركة ما على الماشي أو الحامل لمتاعه إلا أن يقف وبجانبه متاعه قد وضعه تحت قدميه فتصعد به هذه السلالم ثم تهبط دون عـناء، ولكنني ذكرت أنني في البلاد الهندية المشهورة عند الناس بالفقر والـتخلف وإن كان الفقر الموجود فيها والتخلف الذي عليه أهلها هو أقل مما يتصوره الغرباء عنها بالنسبة إلى طائفة كبيرة من سكانها.

وعـندما تجاوزنا سماء المحطة ونزلنا من الطرف الآخر مع درج مقـابل كان لابد من السير في ممرات قبل أن نصل إلى موقف سيارات الأجرة وبجانبه موقف عربات الركشا النارية،وهي الدراجات النارية التي يكـون لها عجلات ثلاث وتستعمل لنقل الركاب إذا كانوا قليلين، وسألني الحمال، أيها تريد. فقلت: السيارة.

ونقدتـه أجرة حمله حقيبتي وهدايتي ثلاث روبيات أخذها مسرعاً ربما لئلا أعدل عن إعطائه إياها كلها وانحنى شاكراً مودعاً.

سـألني سائق السيارة بلغته ما فهمت منه أنه يقول: إلى أين؟ فقلت بالإنكلـيزية: إلـى المطـار فسار مسرعاً ولقد عجبت كيف اهتدى إلى

الخروج من زحام البلدة إلى الجهة التي فيها المطار، ثم سار في الريف المفتوح فترة حتى أوقفني في المطار وكانت المسافة طويلة بحيث أشفقت من أن يسجل العداد أرقاماً كبيرة إلا أنه قال: خمسة وعشرون فقلت له: هذا كثير فأخرج أوراقاً رسمية كانت عنده، وقال انظر التعريفة الحكومية من البلد إلى المطار (٢٥) فقلت في نفسي (مصدق بلا حلف) إنما كنت أخشى أن يزيد على ذلك.

وجاء الحامل يسألني إلى أين؟ فقلت إلى سرينقار فذهب بي إلى مكتب كنت قد ركبت منه قبل ثلاثة أيام إلى بتنه، وهكذا تبينت أن مكاتب الترحيل هنا قليلة.

فوقفت في الصف مع الواقفين فلما نظر الموظف إلى تذكرتي قال، لم تحجز؟ قلت، نعم، قال: انتظر بعض الوقت حتى ينتهي أمر الركاب الحاجزين.

فانتحيت ناحية ووقفت طويلاً، حتى انتهى أمر الركاب الحاجزين جميعاً، وهنا تقدمت إليه مع عدد من المنتظرين فقال: انتظروا أيضاً فانتظرنا إلى أن جاء ونظر إلى الجميع ثم بدأ بي وقال: أين حقيبتك؟

فقطع التذكرة وأنا لا أكاد أصدق لأنني لا أريد أن أبقى في دلهي بدون حاجة.

وتقدمت مع المتقدمين إلى الممر الذي يسلكه المسافرون فيمرون بالمفتشين وكل التفتيش يدوي، فلما وصلت إلى الذي يفتش الحقائب، وفتحت له حقيبتي وضع يده عليها، وقال بالأوردية: (كبرا) أي ملابس، فقلت: (كبرا) وكنت قد اعتدت في سفراتي أن أضع في حقيبتي اليدوية

ملابس احتياطية خفيفة، فإذا كنت مرتدياً الزي الأفرنجي وضعت بدلة عربية، وإذا كنت مرتدياً العربي وضعت سروالاً وقميصاً أفرنجياً، ولبست (الكوت) أو الصديري.

وكما جاملني الذي فتش الحقيبة جاملني أيضاً الذي يفتش الأبدان فلم يلمس من جسمي إلا ظواهره، وبعد دقائق في قاعة الانتظار نادى المنادي على رحلتنا المسافرة إلى (سرنقار)، فخرج الركاب من البوابة يخرجهم جندي موكل بها لا يسمح لأي منهم أن يخرج إلا إذا أراه بطاقة دخول الطائرة عليها خاتم تفتيش الحقائب اليدوية وخاتم تفتيش الأبدان لأن كل واحد منهما يختم على بطاقة الصعود إلى الطائرة، ثم ركبنا حافلة متوسطة الحكم إلى الطائرة.

إلى سرنقار عاصمة كشمير:

جميع المقاعد في الطائرات الهندية مرقمة وفي داخل الهند لا توجد درجة أولى في الطائرات بل جميع مقاعدها تعتبر درجة سياحية.

وعندما صعدت إلى الطائرة دلتني المضيفة على كرسيّ فإذا به في الصف الأول بجانب فتاتين كنت رأيتهما وأنا واقف في الانتظار عند مكتب الترحيل فلفت نظري جمالهما الذي لا مثيل له بين الموجودات في المطار من أهل الهند، فتعجبت من ذلك وقلت في نفسي من أين لأرض الهند هذا الجمال الذي لم أر له مثيلاً إلا في بعض أنحاء باكستان؟ وعندما تذكرت أننا مسافرون إلى كشمير وأنهما قد تكونان مسافرتين إلى هناك لأنهما من أهل تلك الولاية زال عجبي لما هو معروف في نساء أهل كشمير من صباحة في الوجوه ورشاقة في الأجسام لا يوجد له نظير في الهند.

وقامــت الطائــرة الهــندية المعتادة من طراز بوينج (٧٣٧) ذات المحركين النفاثين وأعلنت المضيفة أن السفر سوف يستمر ساعة واحدة، وكان قيام الطائرة في العاشرة والثلث.

وفي كشمير تجولت في أنحاء الولاية وذكرت ذلك في كتاب خاص اسميته: (سياحة في كشمير)!

ثم عدت إلى الهند حيث نزلت في مدينة أمرتسر كبرى مدن ولاية البنجاب الهندية، وإن لم تكن عاصمتها ودونت في مذكرتي كلمات ذكرت في كتاب: (الشمال الغربي من الهند).

عَوْدٌ أخير لشمال الهند

يوم الخميس: ١٦ محرم ١٤١٨هـ - ٢٢ مايو ١٩٩٧م:

من الرياض إلى دلهي:

كنت قدمت من جدة إلى الرياض البارحة بعد أن أكملت العمل في مكتبي في رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة أمس وقصدت من ذلك البقاء مع أسرتي هذه الليلة وذلك لرؤية أولادي وأقاربي الذين سيجتمعون في مناسبة عزيزة عليّ وإن كانت تافهة عند غيري وهي أن ابنتي (مريم) قد أقامت مأدبة عشاء كبيرة لشقيقها ابني خالد الذي يعمل في وظيفة نائب المدير التنفيذي للبنك الدولي في واشنطن وقدم إلى الرياض مع زوجته وولديه في إجازة قصيرة.

وفي صباح هذا اليوم خرج معي إلى المطار ابني الأكبر المهندس المعماري ناصر فوجدنا صفوفاً ضخمة من الناس أمام مكاتب الجوازات أكثرهم من أهل الهند الذين سيسافرون بطائرتنا، وأغلبهم من العمال ولكن الموظف المسؤول في الخطوط السعودية صحبني حتى قدمني على الجميع ومن ثم دخلت إلى غرفة الدرجة الأولى في مطار الرياض وهي أقل غرفة للدرجة الأولى طعاماً وشراباً في العالم كله، وقد دخلت أكثر غرف الدرجة الأولى في العالم، وذلك فيما يختص بما تقدمه من شراب أو طعام خفيف وما رأيت أفخر وأنظف ترتيباً وإعداداً وطعاماً وشراباً من غرفة الدرجة الأولى في مطار البحرين، حيث يجد المرء فيها كل ما يتخيله ذهنه من طعام خفيف وحتى يجد مقادير قليلة من بعض الأطعمة الثقيلة ومن أنواع السلطات كل ذلك بالمجان.

أما غرفة الدرجة الأولى السعودية في مطار الرياض فليس فيها إلا

فنجان من القهوة أو الشاي أو كأس من شراب الفاكهة أو الماء.

ومنها بدأ المرء التمهيد لزيارة الهند لأن الموظف فيها هندي أظنه من ولاية كيرالا يعرف قدراً من العربية وأهل (كيرالا) أكثر أهل الهند انسجاماً في البلدان العربية، وعندما وصلت إلى حمامات المطار وليس في غرفة الدرجة الأولى حمام خاص بها رأيت عمال النظافة فيها من الهنود الذين كانوا يتراطنون بإحدى اللغات الهندية، ربما كانت البنغالية.

وعند الدخول إلى الطائرة كان موظفو الترحيل قد نظموا الركاب بصفوف طويلة، وقد أغلقوا باب الدخول إلى الدهليز المتحرك إلى الدرجة الأولى في الطائرة فصرت بينهم في صف طويل عند مدخل الدرجة السياحية وعادة الموظفين أن يدققوا معهم عند دخولهم إلى الطائرة السعودية لأن بعضهم يحمل بيده حقيبة أو حقائب كبيرة لا تكون بين المقاعد فيأخذونها منهم ويخزنوها في خزانة في الطائرة ويسلمونها لهم بعد الهبوط في مطار دلهي.

وفي الدرجة الأولى كان نصف الركاب من ذوي المظهر الهندي، وهذا طبيعي فأكثرهم من العاملين في الشركات أو المؤسسات الكبيرة في المملكة، ولكن المضيفة أيضاً هندية معها فتى سعودي قال لي وهو يتقدمني ليدلني على المقعد مع أنني أعرفه: لقد كنت أتمنى أن أراك وأسلم عليك، لأنني قرأت بعض كتبك وهذه فرصة لأخدمك الآن، فشكرته.

قامت الطائرة من جدة إلى دلهي في العاشرة وخمس دقائق متأخرة ربع ساعة عن الموعد المحدد لقيامها في الأصل وهو العاشرة إلا عشر دقائق، وهذا لا يعد تأخيراً لاسيما إذا عرفنا أنها ضخمة من طراز بوينغ

٧٤٧ المسمى عالمياً بالجامبو وهي مليئة بالركاب حتى يعجب المرء من كونها تتسع لهذا العدد الضخم من الركاب ولأمتعتهم.

فالسياحية مليئة كلها فيما نظرت، والأولى ليس فيها إلا نصف المقاعد مشغولاً.

أعلنوا أن المسافة إلى دلهي ستكون أربع ساعات إلا ربعاً من الطيران، وذلك بالعربية ثم الإنكليزية فالأوردية.

عندما استوت الطائرة في الجو، وأعلنوا إشارة فك الحزام بسرعة لأن بلادنا في هذه الأيام خالية من السحب والعواصف جاءوا بقائمة الطعام للدرجة الأولى، فإذا بها كلها فيها الفلفل الحار وقد نوهوا بذلك والطبق الرئيسي ثلاثة أنواع لحم الغنم بالكاري الحار والدجاج كذلك والثالث: الأربيان أو الروبيان وهو الجمبري باللغة العامية المصرية ولكنه مطبوخ بالفلفل الحار.

وعندما جاء الطعام كان فيه الكاري المشبع بالكركم الأصفر وكنت عرفت من تجاربي السابقة أنه إذا نقطت منه نقطة على الثياب لم يذهبها منها الغسل، وبخاصة من المسافر مثلي البعيد عن أهله فحاذرت ذلك، و أذكر أننا كنا في بلادنا لا نعرف الأرز أصلاً إلاّ في مناسبات نادرة وكنا نطبخه مع السمن ومعه الكركم ليجعله أصفر اللون محبباً للنظر ولا أدري منافع الكركم التي يجعله الهنود من أجلها في طعامهم.

وهناك نوع من الأرز غير الجيد كان يأتي إلينا من العراق نسميه التمن فهذا كان معروفاً عندنا ولكنه غير جيد لأنه إذا طبخ يصير كالعصيدة وليس شهيَّ الطعم وتبين لي بعد ذلك أن الأرز أنواع جيدة في العراق تسمى التمن أيضاً ولكنها لم تكن تأتي إلينا.

استمر الطيران هادئاً لأنه لا تكدير في الجو ولكن قائد الطيارة لم يوضح لنا خط السير ولا المدن أو المواقع المهمة التي تطير فوقها الطائرة واستمر عرض طائفة من الشرائط على شاشة أمام الركاب، وأكثرها معتادة لم أجد فيها شيئاً شائقاً أو مفيداً، وربما رآها غيري من الركاب غير ذلك.

وقبل الوصول جاءت المضيفة الهندية بمبيد للحشرات فرشت به أرفف الطائرة وأعاليها حتى الدرجة الأولى، وذلك من أجل عدم انتقال حشرات ومكروبات تكون فيها.

وعجبت من ذلك وقلت في نفسي: ومن يرش الحشرات التي في الهند؟ مع أن بلادنا صحراوية وحشراتها معروفة ليست كثيرة التنقل، إلا أنني ذكرت أنهم ربما كانوا فعلوا هذا لمناسبة موسم الحج، وما يخشون أن ينتقل بسببه من الأمراض إليهم، مع العلم بأن الحج خالٍ من الأمراض السارية كما هو معلوم.

وعندما تدنت الطائرة قليلاً ظهرت المنازل والقرى في الأرض متقاربة وظهر بعض القرى خالياً من الخضرة أو قريباً من ذلك، وربما كان سببه أننا الآن في موسم الجفاف.

وذكرت عندما رأيت تقارب المدن أن هذه البلاد الهندية أكثر بلاد الله سكاناً بعد الصين فسكانها يبلغ عددهم الآن ٨٩٠ مليوناً، ومن العجيب الغريب أنه عندما استقلت الهند عن بريطانيا في عام ١٩٤٧ حدثت فيها مجاعة بسبب نقص الحبوب وبخاصة القمح فصارت الولايات المتحدة الأمريكية ترسل إليها القمح، ثم استمرت على ذلك عدة سنوات حتى

قرأت في مجلة المختار التي هي الطبعة العربية من مجلة (ردرزدايجست) الإنكليزية مقالاً يتحدث عن نقص الأغذية في الهند التي يتزايد فيها السكان وإن فلاناً من زعماء الأمريكيين قال: إن على الأمريكيين أن يزرعوا لكي يطعموا الهنود.

ولكن أهل الهند قد بلغوا ما بلغوه من العدد الآن، وقد استغنوا عن أن يزرع لهم الأمريكيون بل عن أن يأخذوا أي شيء من الغذاء منهم حيث صارت الهند تنتج من الأغذية ما يكفيها حتى إنها أعلنت أنها سوف تصدر القمح أو تحد من زراعته لكونها تنتج منه أكثر ما تحتاجه.

لا شك أن السبب في ذلك تحسين أساليب الزراعة باستخدام الآلات والمعدات الحديثة واختيار البذور الجيدة.

وظاهر من حال أهل الهند في الوقت الحاضر أن العامة منهم يحصلون على ما يكفيهم من الغذاء - على الأقل- يحصلون من ذلك على أكثر مما كانوا يحصلون عليه منه في المستقبل.

وقبيل النزول في مطار دلهي رأيت جبالاً غير عالية ولكنها تتميز بالإخضرار، وفي سفوحها خضرة جيدة على خلاف المتوقع في مثل هذا الشهر من السنة.

ثم بدت أطراف مدينة دلهي ذات ضواح جيدة مخططة حسنة المظهر تكثر فيها الأشجار وغير بعيد منها حي شعبي يبدو كأنما بني عشوائياً لأنه ليس في داخله شوارع رئيسية مستقيمة بخلال الأحياء الجيدة، وليس بين بيوته حدائق أو أشجار خضر أما الريف الخالي من الأحياء السكنية فإن فيه أشجاراً صحراوية خضراً.

وبدا نهر (جَمَنَي) الذي يلفظ باسمه بعضهم (يَمَنَي) بالياء وفتح النون وهو أحد الأنهار المقدسة عند الهنادك وإن كان يغلب عليه الحنان عليهم في بعض الأحيان فتفيض مياهه على ما حول شطآنه من مزارع ومساكن فتغرقها فيكون في ذلك الشقاء لطائفة من الذين يقدسونه وغيرهم.

وعند اقتراب الطائرة أكثر من المطار تجلت طبيعة ضواحي دلهي الجديدة ذات حدائق منسقة وأشجار كثيرة وأبنية عالية متعددة الطوابق بينها الشوارع الواسعة المنسقة، إلا أنني رأيت فيها مصنعاً ذا مدخنتين تنفثان دخاناً كثيفاً يلوث الجو ولا أدري أي شيء هو ذلك المصنع.

وكثرت الحدائق قرب المطار، ولم يكن هذا غريباً على بلد نهري ذي أمطار موسمية كثيفة.

في مطار دلهي:

هبطت الطائرة في مطار دلهي في الساعة الواحدة والنصف بتوقيت بلادنا بعد طيران استمر أربع ساعات إلا ربعاً ويساوي ذلك الساعة الرابعة بتوقيت دلهي إذ الفرق بين توقيت دلهي والمملكة هو ساعتان ونصف.

ويسمى المطار الذي هبطنا فيه مطار انديرا غاندي على اسم رئيسة وزراء الهند وابنة الزعيم السياسي الهندي (جواهر لال نهرو) واسمها هذا هو من اسم زوجها (غاندي) وهو غير غاندي زاهد الهند المعروف.

كانت تحف بمدارج المطار أعشاب برية لا بأس بخضرتها، وعرفت أن سبب ذلك أن مطراً أصابها في غير موعده.

عندما كانت الطائرة تدرج في المطار تصورت الماضي البعيد السعيد لنا نحن المسلمين وكيف كان أسلافنا قد حكموا دلهي لعدة قرون لم تكن توجد فيها طائرات ولا سيارات ولا وسائل اتصال حديثة، بل إن الطرق المعتادة في غير الهند هي صعبة السلوك في الهند بما يعتريها من أنهار ومستنقعات وغابات تعيش فيها حيوانات مفترسة وحشرات تسبب الأوبئة والحمَّيات.

ومع ذلك لم يمنع هذا كله الغزاة الدعاة من فتح الهند ولم يمنع العلماء الثقات من أمثال أبي الريحاني البيروني أن يدونوا لأهل الهند ما كانوا عجزوا عن تدوينه حتى إن أبا الريحاني البيروني رحمه الله تعلم اللغة السنسكريتية لغة أهل الهند حتى يقرأ ما كتبوه فيها مما يتصل بعقائدهم ومثلهم التي يعتنقونها فكانت خلاصة ذلك كتابه العظيم الذي لم يؤلف في بابه مثله في ذلك الزمان وهو (تاريخ ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة) وهو كتاب يشهد علماء الهند من غير المسلمين أنه قد حوى من العلوم والمعارف عن أهل الهند في ذلك الزمان ما لولاه لكان نسياً منسيا ولخفي أمره على أهل الهند لأنه نقل عن كتب فقدت، وسجل معارف لم تدون في كتب لأن أهل الهند لم يكونوا قد اعتادوا على كتابة تاريخ بلادهم، وإنما كانوا سجلوا ما يتعلق بكتبهم المقدسة عندهم وقد دخلها التحريف والتغيير مع مضي الزمان وتعاقب المفسرين على ما جاء فيها.

وعدت ببصري وفكري إلى هذا المطار فرأيت حاله وما حوله أحسن بكثير مما كان عليه عندما رأيته في المرة الأولى، فالمنطقة التي تحيط به خضراء وفيها أبنية بيض حسنة المظهر وأخرى صفراء معتنى بها.

أما مباني المطار فإنها بدت لي دون ذلك، بل إنها دون مطارات بلاد عربية صغيرة كالأردن فضلاً عن مطار البحرين.

ألصقوا باب دهليز متحرك بباب الطائرة، ووجدت عنده أي عند باب الطائرة رجلاً هندياً يسألني: أأنت محمد ناصر؟ قلت: نعم، فسار معي إلى نهاية الدهليز مما يلي المطار حيث وجدت الأخ الأستاذ (نور محمد عباس مختار) المدير الإقليمي للخطوط السعودية في شمال الهند وهو سعودي الجنسية في استقبالي فرحب بي وأخذ جوازي هو والموظف الهندي وتجاوزت مكاتب الجوازات، ثم جاءوا إليَّ بجوازي ومعه ورقة صغيرة صفراء تقضي بعدم التفتيش في الجمرك للجواز (الدبلوماسي) وهكذا انتهيت قبل أن يستكمل الركاب وقوفهم في الصفوف المطولة وقال الأخ نور: إن السفارة أخبرتنا أنها سترسل مندوبين اثنين لها وربما عرقلهما المرور.

وعندما خرجت من المطار بسرعة وكان الأخ ومن معه بصحبتي جزاه الله خيراً وجدت حشداً من أهل دلهي وآسام منهم الأخ الشيخ عطاء الرحمن البهاري أحد تلاميذي في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وقد تخرج فيها في أول فوج عام ١٣٨٥هـ أي منذ ثلاثين سنة وقد صار شيخاً كبيراً أشيب الشعر، والأخ عبدالوهاب الخلجي الأمين العام لجمعية أهل الحديث المركزية في عموم الهند والأخ عبدالمتين عبدالرحمن السلفي أحد قادة العمل الإسلامي السلفي.

ومن أهل آسام شخصان أيضاً.

وقد جاءوا بسياراتهم، فسلموا عليَّ جزاهم الله خيراً، وأكثروا من السلام حتى استرعى انتباه الحشود في المطار فانطلقنا مع شوارع دلهي

الطويلة الحافلة بالسيارات والدراجات (الركشاوية) فرأيت شوارع دلهي الآن أحسن حالاً مما كانت عليه من قبل مثلما أن المستقبلين من أهل الهند أحسن حالاً من ناحية الصحة ومظاهر استكمال الغذاء مما كانوا عليه من قبل.

انطلقنا إلى فندق اسمه كانشكا كانوا حجزوا لي فيه، وقد كتب عليه أنه من مجموعة (أشوكا) و(اشوكا هوتيل) فندق كبير عريق كنت نزلت فيه عدة مرات، وقال المرافقون: هذا الفندق من فئات النجوم الخمس وقد وجدت مداخله وقاعات الجلوس والاستقبال فيه كذلك، إلا أن غرفه أقل من هذا المستوى.

جلست مع الإخوة الذين معي من أهل دلهي وآسام وبحثت معهم البرنامج الذي ألحوا على أن يصحبوني فيه فصار لأهل دلهي وأكثرهم من جمعية أهل الحديث من الآن حتى ضحى يوم الاثنين القادم ولأهل آسام من ضحى يوم الاثنين فما بعده حيث أسافر منهم إلى آسام بإذن الله إلى أن تنتهي الزيارة هناك.

وجدت إدارة الفندق أعدت لي ضيافة العادة التي تقدم إلى كبار النزلاء أو من يعتبرونهم كذلك، وهي صحن فيه بعض الفاكهة المحلية من الموز والعمبة (المانجو) وثمرة واحدة من الكيوي ثم جاء موظف بصحن آخر فيه موز وبرتقال أخضر كالبرتقال الاستوائي.

ومن الطريف الذي عجبت له أن العامل دخل عليّ الغرفة دون أن يستأذن حتى بقرع الباب قرعة خفيفة أو بالنحنحة وقصد إلى السرير يسوي وسادته ويبعد عنه غطاءه العام ثم يقف لا يبرح كأنما يستأذن في خروجه فتركته عامداً فلما طال عليه الأمر قال: أأخرج؟ قلت: نعم.

وهذا ذكرني بما قرأته في كتاب العلامة البيروني (تاريخ ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) من غرائب العادات عند أهل الهند وهي أن يدخل الرجل عليك بدون استئذان ولكنه لا يخرج إلا باستئذان، وقد تقدم ذكر ذلك في الجزء الأول.

وهي عادات غريبة رأيت بعضها لا تزال موجودة عند أهل الهند رغم كونها مضى عليها ألف عام منذ أن كتبها البيروني رحمه الله.

ألقيت نظرة من نافذة الفندق فإذا بها تفتح على حدائق وأشجار ملتفة في منطقة خضراء ينتصب فيها فندق ميريديان الفرنسي.

من الأشياء الجيدة المستحبة في الهند أنهم رأوا جوازي وسجلوا المعلومات عنه وأعطونا إياه، وكانوا في السابق يرسلونه للشرطة أو يبقونه عندهم حتى يرحل النزيل، كما أن دخول الفندق قد تم بسرعة وسهولة والموظفون يستعملون آلآت حديثة من الحاسبات الآلية ونحوها.

وأعطوني بطاقة الفندق وفيها أن الأجرة ٧٥ دولاراً إلا أنهم أخذوا مني عند الخروج ٩١ دولاراً، ولم انتبه إلا بعد أن تركتهم وكنت مستعجلاً حذراً من أن يفوتنا القطار إلى بريللي كما سيأتي.

مأدبة أهل الحديث:

ومأدبة أهل الحديث لابد أن تكون شهية كالحديث كما قال أحد العلماء:

إلا الحديث فإنه مثل اسم أبداً حديث

وكان بعض الناس في الهند يصفون أهل الحديث في القديم بالجمود وعدم التحرك في اتجاه المخالفين لمقابلتهم في منتصف الطريق فنحمد

منهم ذلك ونقول: إن هذا لزوم للحق وليس جموداً ومثله عدم التنازل للمخالفين في الاعتقاد.

أما بالنسبة إلى التعاون مع المخالفين فيما فيه مصلحة الجميع، كأن يقف المسلمون بطوائفهم المختلفة ومذاهبهم تجاه الهنادك بطوائفهم ومذاهبهم المتنوعة، أو أن يقفوا جميعاً للدفاع عن مصالح المسلمين فإن ذلك أمر مطلوب، وبخاصة في هذه المرحلة التي صار فيها جنود الشرطة إذا حصلت اضطرابات بين المسلمين والهندوك يسارعون إلى الانحياز إلى الهندوك لأنهم الأكثرية ولكونهم مثلهم في الدين فإن ذلك أمر مطلوب، لأن الهنادك المتعصبين يوجهون ضغوطهم، ويصبون غضبهم ضد المسلمين أيًّا كانوا وأينما كانوا لا يفرقون في هذا الأمر بين طائفة وأخرى، وحتى لو فرقوا لوقت أو بعض الوقت فإنهم لابد من أن يرجعوا إلى من لم يؤذوهم بالأذى بعد أن يفرغوا من إخوانهم.

ولقد سمعت من صديقنا الشيخ مختار أحمد الندوي رئيس جمعية أهل الحديث لعموم الهند أنه يدعو إلى وحدة المسلمين تجاه المتعصبين من الهنادك حتى قال: إنه وجه دعوته هذه إلى الشيعة بأن يكونوا مع أهل السنة يداً واحدة ضد من يتعصبون ضدهم ويؤذون المسلمين في أرزاقهم وأوطانهم، بل قد يحرقون متاجرهم ومساكنهم، ويعتدون على مقدساتهم، وما هدم المسجد البابري في (ايدوهيا) إلاَّ مثل واحد من عدة أمثلة، لأن المتعصبين الهنادكة قد أعدوا قائمة بأربعمائة مسجد أو نحوها يريدون هدمها لأنها فيما يزعمون كانت معابد هندوكية، ومن يرضى من المسلمين أن تهدم المساجد فضلاً عن مساجد أثرية قديمة تعتبر رمزاً لثقافة المسلمين العريقة في الهند وشاهداً على تقدمهم الحضاري والثقافي.

ونحن إذ نذكر ذلك لا نهون من شأن جمعية أهل الحديث وإخوانهم السلفيين الذي كان المبتدعة بل كان مخالفوهم على وجه العموم إذا أرادوا التشنيع بهم سموهم الوهابيين ولو كان أولئك الأعداء يعقلون لسألوا أنفسهم عن الوهابية ما هي؟ بل عن الوهابيين من هم؟ وهو لقب لا يعرفونه ولا يعترفون به وما من واحد منهم يقول: إنه وهابي، فكأنهم بهذا قد جمعوا بين الافتراء والازدراء لقوم من السلفيين الذين كل ذنبهم لديهم أنهم يدعون إلى اتباع ما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان عليه الصحابة من الخلفاء الراشدين وغيرهم ممن تبعهم بإحسان وينكرون البدع المحدثة في الدين.

في الساعة التاسعة مر عليّ الإخوان الشيخ عبدالوهاب عبدالواحد الخلجي الأمين العام لجمعية أهل الحديث والشيخ عبدالمتين عبدالرحمن السلفي مدير جامعة الإمام البخاري في كشن قنج في ولاية بيهار فذهبنا معهما مع شوارع في مدينة دلهي التي لا تزال تعج بها الحركة، وذلك لتناول طعام العشاء في مطعم في منطقة نظام الدين وهي منطقة كانت للمسلمين ولا تزال فيها نسبة كبيرة منهم.

الوثنية المجسمة:

وصلنا إلى منطقة نظام الدين فقال الإخوة: سوف نريك قبر الرجل الذي نسبت إليه هذه المنطقة من مدينة دلهي وهو الشيخ نظام الدين البدايوني تركنا السيارة ودخلنا مع أزقة مليئة بالحركة وأكثر ما استرعى انتباهي وجود طائفة من المرضي والأطفال المرضى وقالوا لي: إنهم ذاهبون إلى قبر نظام الدين أو قادمون منه.

وهذه الأزقة هي في الحقيقة أسواق فيها الحوانيت المتلاصقة ولكن أغلبها صغير ومن البضائع الشائعة فيها الزهور التي يبيعها أربابها للقادمين لزيارة قبر نظام الدين أو لطلب شيء منه حيث يشترونها وينثرونها على القبر أو على قبور بجانبه، كما أنها تبيع حلويات وكتباً وأذكاراً بالأوردية.

أفضت بنا الأزقة المزدحمة بالأناسي إلى بوابة صغيرة رمزية لمقبرة الشيخ نظام الدين حيث يوجد فناء مكشوف فيه بعض القبور قد نثرت فوقها الزهور، وبعضها قبور أطفال ذكر أنها لأطفال له أو لأقربائه، ثم القبر أو لنقل إنه الذي اتخذ وثناً ولا نستطيع أن نلوم الشيخ نظام الدين إن كان بنى عليه البناء بعد مماته، ودون علم له بذلك في حياته.

ووجدنا عند مدخل الفناء رجلين مهنتهما حفظ نعال الناس لقاء مبلغ معين وأكوام النعال والخفاف عندها شيء كثير كلها لزائري القبر، والدليل على كثرتها أن أحد الرجلين يعطي صاحب النعل رقماً في قطعة من المعدن يبرزه إذا انتهى حتى يستدل على نعليه، ولكننا وجدناه كالعادة في رفع البناء فوق القبر، بل جعلوا البناء عليه قبة مشرفة، محكمة البناء في شباك يرى القبر من داخلها.

ومما يدمي قلب المسلم أنني رأيت امرأة تصلي إلى القبر منحرفة عن القبلة وهي تسجد أمامه ولا أدري أهي تريد بذلك الصلاة أو مجرد سجود للقبر.

ورأيت زحاماً عظيماً حول القبر، وقد امتلأت الأرض بالزهور التي أحضرها المتبرعون وبعض الناس وبخاصة من النساء جالسون حول

الضريح متحلقين حوله، أما الرجال فإنهم كانوا يصلون في مسجد بجانب القبر وهذا هو سبب أنني رأيت النساء والأطفال حوله أكثر من الرجال.

وهناك أناس كان لهم وجود ظاهر وهم الشحاذون والزمنى الذين اشتد بهم المرض وطال وأكثرهم جاء إلى القبر يرجو أن ينتفع بزيارته في شفاء مرضه.

وقد رأيت من مظاهر الوثنية عند هذا القبر ما أزعجني وأفسد عليَّ سروري بزيارة الإخوة أهل الحديث واجتماعي بهم في هذه الليلة مما جعلني لا أطيق البقاء هنا وأطلب من الأخ الذي كان يرافقني أن يسرع بالخروج من هذا المكان حذراً من غضب الله تعالى ولكوني لا أستطيع أن أنكر هذه المنكرات فيه، لأنني أولاً لا أستطيع أن أفهم القوم بلغتهم ولا أستطيع لو كنت أعرف لغتهم أن أعرف أنهم يستتفعون من ذلك مع العلم بأن أكبر مهمة لأهل الحديث وللسلفيين أن ينكروا مثل هذه الأمور حتى وإن لم يضمنوا النتيجة إبراء للذمة ولقيام الحجة على من لم يستجب لدعوتهم.

جمعية التبليغ:

تركنا قبر الشيخ نظام الدين البدايوني وما يفعل عنده من البدع، وأفعال الوثنية التي يجب على المسلمين أن ينكروها لأنها تعود بالذين يمارسونها إلى الجاهلية الوثنية التي جاء الإسلام بمحاربتها فمررنا بالمقر العام لجمعية التبليغ الإسلامي وهو المركز الرئيسي لهم في العالم كله، أي إنه مركز نشاطهم وفيه تقع رئاستهم.

وقال الأخ المرافق: إنهم يقيمون بجوار هذا القبر الذي تفعل عنده الأمور الشركية التي رأيتموها ولكنهم لا ينكرونها، فقلت: إنه من

المعروف عنهم أنهم يقبلون من يقول إنه يسلم إسلامه، ويركزون على السلوك الإسلامي في العادات والعبادات، ومحاسبة النفس بترك الشهوات، والانصراف عن ذلك إلى تحمل المشقة في سبيل الدعوة.

وبقي أن نعرف من هو الشيخ نظام الدين: وهو محمد بن أحمد البدايوني.

بنى القبة على قبره الملك (محمد تغلق شاه) الذي كان موجوداً على زمن ابن بطوطة في القرن الثامن الهجري، وبنى السلطان علاءالدين الخلجي عليها مسجداً وصار مدفنا لبعض الملوك الذين يعتقدون بصلاح هذا الرجل.

وهذه بدعة فظيعة، بل إن ما رأيته يفعل عند قبره فإنما إثمه الأكبر على أول من جعل الناس يفعلون هذا الفعل عنده وأهم ذلك مخالفة الأمر الشرعي الذين نهى عن البناء على القبور فكيف ببناء المساجد عليها وتهيئتها للعامة والجهال بل وطلبة العلم الذين لا بصيرة لهم.

الاجتماع بأهل الحديث:

ذهبنا سيراً على الأقدام إلى جهة أخرى من حي (نظام الدين) حيث مقر مأدبة جمعية أهل الحديث في مطعم اسمه (دستر خوان كريم) ودسترخوان: مائدة وهي كلمة أصلها كلمتان إحداهما (خوان) بمعنى الذي يوضع فوقه الطعام وهي كلمة عربية شائعة.

وجدناهم أعدوا مائدة طويلة جلس عليها وجوه أهل الحديث من الشيوخ والإداريين وفيهم أساتذة في الجامعات مظهرهم مظهر المثقفين العصريين جمع بينهم وبين الشيوخ محبة اتباع السنة وكراهية البدع المحدثة في الدين، ومن الحاضرين: الشيخ محمد يحيى نائب رئيس جمعية أهل الحديث وهو أبن المحدث المعروف في زمنه الشيخ رحمة

الله وهو- أي والده شخص معروف بالكرم وبذل المعروف حتى لقبه أهل الحديث بأنه حاتم الجماعة، ومن أفعاله المشكورة أنه وهو رجل غني جمع مالاً وأرسل أغذية إلى الملك عبدالعزيز آل سعود في بعض المناسبات إعراباً عن التأييد.

والدكتور عبدالودود أظهر أستاذ اللغة الفارسية في جامعة نهرو، والدكتور محمد يونس أستاذ أيضاً في جامعة نهرو (قسم اللغة الفارسية)، والشيخ محمد يوسف أمين صندوق الجمعية وهو محامٍ إلا أنه لم يمارس مهنة المحاماة وإنما صار يعمل في التجارة ويقوم بأمانة صندوق الجمعية.

والشاعر قطب الدين يونس وهو شاعر باللغة الأردية وله قصائد معروفة، والأخ محمد سليمان صابر ممثل الصحافة في (البرلمان الهندي).

ويلاحظ أن أسماءهم مركبة بمعنى أن الاسم المؤلف من اسمين من الأسماء التي ذكرتها هو لشخص واحد يكون لأبيه اسم آخر مثلما ذكرنا في حالة الأستاذ محمد يحيى الذي اسم والده (حميدالله) ولا يمكن معرفة اسم والده من اسمه إلا بعد السؤال والاستقصاء كما لاحظت بل عانيت من ذلك فيما بعد.

وقد دعوا إلى المأدبة الأخ الأستاذ أحمد عبدالرحمن الخليفة الملحق الديني بسفارة المملكة العربية السعودية في دلهي والأستاذ عبدالرحمن المزيني الذي يعمل- أيضاً- في الملحقية الدينية في السفارة، وهو حديث عهد بالهند.

كان مجلس هؤلاء الإخوة من أهل الحديث في هذا المطعم النظيف واحة تسر الخاطر بعد مشاهدة مظاهر الوثنية وما يفعله القبوريون عند قبر نظام الدين.

كما أن المطعم نفسه نظيف ومرتب ومكيف فهو واحة في حي تكاد تعدم فيه النظافة، وقد رأيت أعداداً من الهنادكة قد جاءوا إلى المطعم وهو لأحد الإخوة المسلمين يأكلون من طعام المسلمين الذين فيه اللحم والشحم ولكنه لحم الدجاج والغنم رغم أنهم يعرفون أن دينهم الهندوكي ينهاهم عن أكل اللحم حتى ينهاهم عن أكل السمك والبيض ولكنهم لا يقربون لحم البقر بأي حال من الأحوال، لأنهم يعظمون البقرة، وإن كانوا لا يفعلون ذلك بالنسبة إلى الثور إلا أن عدم استجازتهم لأكل لحم البقرة يشمل لحم الثور وإن لم يكونوا يقدسونه تقديسهم للبقرة.

والحاصل أنني رأيت أعداداً من الهنادك يأتون إلى هذا المطعم الإسلامي ويتعشون فيه ويتركون مطاعم الهنادكة لأنه لا يكون فيها اللحم، ولا يكون فيها طعام المسلمين الذين يتميز بالنكهة المحببة وبالمذاق الخاص.

قدموا أول الأمر دجاجاً مشوياً معه بصل كثير وسلطة أهم ما فيها الطماطم ثم أحضروا المرق الهندي الغليظ المسمى بالكاري وهو لذيذ الطعم لو لا هذه الحرارةِ فيه من الفلفل الكثير، ثم جاءوا بخضرات ولحم وأرز وكان عمال المطعم يوالون إحضار الأطباق واحداً بعد الآخر، ومن اللحم والأرز الأبيض الساذج الذي هو الأرز الأصيل المستعمل في بلاد الشرق الأقصى كاليابان وإندونيسيا وتايلند ولكنهم هناك يأكلونه كما هو ساذجاً ليس فيه طعم، أما الهنود فإنهم يضيفون إليه المرق الثقيل من الدسم والفلفل الحار فيضيع ذلك أو بعضه في الأرز ويأكل منه الآكل أكثر مما يحتاج إليه جسمه، لذلك تتضخم أجساد الأغنياء منهم القادرين على أكل هذا الأرز مرة في اليوم أو أكثر من مرة.

ثم أحضروا الأرز البرياني الدسم المطبوخ مع اللحم والبهارات الحارة المتنوعة، أما الشراب فإنه الغازي والماء المعدني، وفي آخر الوجبة جاءوا بالحلوى من البقلاوة والآيس كريم.

وأهم ما ينبغي أن ينتبه له من يأكل الطعام الهندي من دون أن يتعود عليه غير الصبر على الفلفل الحار أن يلاحظ ألا تقع نقطة واحدة من الكاري على ثوبه لأن فيها الكركم الأصفر مع الدسم ومواد أخرى لا يذهبها الغسل ولو كان بصابون.

وكانت المائدة شهية والمأدبة سخية انتهت بعيد الحادية عشرة ليلاً.

هذا وفي ابتداء المأدبة قدمنى الشيخ عبدالوهاب الخلجي إلى الحاضرين الذين كان عددهم يناهز العشرين، وزاد في ذلك بأن رفع من قدري في حديثه فجزاه الله خيراً.

ثم طلبوا مني أن ألقي فيهم كلمة قلت فيها من بين ما قلته بعد أن شكرتهم على إقامة هذه المأدبة: إننا نفخر بوجود إخواننا أهل الحديث في الهند منذ أن عرفنا نشاطهم في خدمة سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانوا أول من طبع أمهات كتب السنة وأشاعها في الأقطار ثم كانوا أكثر الناس اهتماماً بها وشرحاً لمعانيها، وكانوا بعد ذلك أكبر الواقفين في نحر القبوريين المبتدعة الذين يخالفون ما ثبت عن السلف الصالح.

وقلت لهم: لا عجب أن يسميكم المبتدعون بالوهابيين يريدون بذلك أنكم منا ونحن منكم وهذا المعنى صحيح أما التسمية فإنها مخترعة ومبنية على الوهم والإيهام. فأنتم في الحقيقة نحن ونحن أنتم، ولذلك نقول: إنه يجب علينا جميعاً أن نتعاون على البر والتقوى.

وعندما خرجنا من المطعم بعد الحادية عشرة كانت المطاعم الكثيرة تعج بالناس وكأنما هم في وقت المغرب واتبعنا الشحاذون وألحوا في السؤال والاستجداء ومنهم نساء ولا تدري ديانتهم ولم يتركونا إلا بعد أن سارت السيارة مع أننا كنا أغلقنا نوافذها علينا ولكن ذلك لم يمنعهم من تكرار السؤال والاستجداء.

وقال أحد الإخوة: إن هؤلاء الشحاذين يتخذون الشحاذة صنعة وهم يجمعون المال جمعاً بمعنى أنهم لا يكتفون بإنفاق ما يحصلون عليه ثم يجمعون غيره.

وعندما عدت إلى غرفتي في فندق (كانيشكا) فتحت جهاز التلفزة فوجدت فيه عدة قنوات هندية منها ثلاث مظهرها خلاعي لا يمت لعادة الشعب الهندي بصلة، واثنتان معتادتان، وعندما ينتقل المشاهد بين المحطة المعتادة أي التي تبث برامج معتادة، وبين هذه المحطات التي تدعي العصرية يجد البون شاسعاً بينها، بل يجد التباين واضحاً.

يوم الجمعة : ١٧ / ١ / ١٤١٨هـ:

الثقيل وأبوه:

كنت نمت البارحة متأخراً ومنيت نفسي بصبحة طويلة والصبحة هي النوم بعد صلاة الفجر وهي التي تسميها العامة عندنا بالصفرة، وإذا بباب الغرفة يطرق طرقاً خفيفاً لم أحفل به، ثم بعد قليل زاد الطرق ففتحت فإذا برجل لا أعرفه ومعه رجل مسن، ولم اطلب منه الدخول لأنني بملابس النوم ولا أدري ماذا يريد ولا أعرفه، فقال : نريد أن ندخل لدقيقة أو دقيقتين، ثم ذكر أنه فلان حامل شهادة كذا، أظنه قال : دكتوراه ووالدي وأشار إليه يرغب في الحج ولكنه فقير لا يستطيعه وأريدأن تستضيفه الرابطة.

فقلت له : يا هذا، أما كان الأولى بك ألا توقظني من نومي لتذكر ما ذكرته، وقد بقى على الاستضافة للحج عشرة أشهر ؟

فقال : سامحني أنا سوف أسافر في القطار في الثامنة، ولابد أن آتى إليك قبل ذلك، فقلت له : إن اهون الأشياء عندي أن تذهب لسفرك ولا تأتي عندي، فالاستضافة في الحج ليست للجميع لأن الحج لمن استطاع إليه سبيلا، قال: ولكن الرابطة تدعو أناساً للاستضافة والدي أحق منهم، قلت: ما مثلك إلا مثل رجل رأى شخصاً دعا قوماً إلى داره فجاء إليه يقول: إن والدي أحوج إلى دعوتك منهم، لماذا لا تضيفه قبلهم؟ إن الاستضافة لها شروط لا تتوافر في و الدك كما ذكرته.

فقال: إنني أريد أن تضع ذلك في ذهنك للعام القادم، فقلت له: إنه يمكنك أن تقدم للرابطة كتاباً تطلب فيه ما شئت وسوف تبحث الرابطة

أمره وتخبرك بالنتيجة، أما أن تطلب مني شفهياً الموافقة لشيء لن يكون إلا بعد عشرة أشهر فإن ذلك شيء لا أظن أن ذاكرتي تتحمله.

ثم انصرف بعد أن أعطيته ووالده شيئاً من (الكليجا) وهو أقراص كالكعك تصنع في بريدة، وتمثلت بقول القائل وهما يغادران الغرفة بعد أن أفسدا عليَّ نومي:

أبوك إمام الناس في الثقل كلهم وأنت وليٌّ العهد بعد أبيكا

ومن الغريب أنه قال لي كالذي يظهر أنه تحمل مشقة في المجيء إليَّ: لقد طرقت باب غرفتين قبل أن اهتدي إلى غرفتك! فقلت له: إذاً أفسدت نوم اثنين لا تعرفهما، واللائمة تقع على المسؤولين في الفندق الذين لا يمنعونك وأمثالك من الصعود إلى الغرف.

وفي التاسعة والنصف حضر إليّ الأخ الشيخ (شوكت علي القاسمي) المدير العام للشئون الدينية بمركز المعارف الإسلامي في آسام وهو الجهة التي رتبت لي زيارة آسام ووعدتهم بأن يكون ذلك ابتداء من يوم الاثنين القادم، نسافر معاً بإذن الله إلى هناك.

على أن أخصص الأيام الثلاثة وهي الجمعة والسبت والأحد للذهاب إلى منطقة بريللي لحضور الندوة التي ستقام هناك.

وأرسلت جوازي البارحة إلى السفارة السعودية لتحاول الحصول على سمة دخول لي إلى مملكة بوتان الواقعة في أعتاب الهملايا مجاورة لولاية آسام التي سأذهب إليها وكانت المشكلة أنني لن أستطيع أخذ جوازي معي إلى بريللي فسافرت بدونه لأن الإخوة أهل الحديث وخاصة صديقنا الأستاذ عبدالوهاب الخلجي ذكروا أنهم سيتولون حل أية مشكلة

تنشأ في سفارة بوتان حول السمة، وقد اتصلوا بالفعل بسفارة (بوتان) في دلهي هاتفياً فلم يجدوا فيها مسئولاً فأخذ جوازي الأخ خالد الخليفة ليسلمه للسفارة السعودية غداً من أجل أن تكتب معه كتاباً إلى سفالة بوتان، لأنه جواز (دبلوماسي) ولأن المشكلة أنني سأسافر غداً إلى بريللي في القطار الساعة الثانية عشرة والنصف وقد تكفل أهل الحـديث بلسـان الشـيخ عبدالوهاب الخلجي على أنهم أيضاً سيقابلون أية مشكلة تنشأ عن عـدم وجود جوازي معي بالحل.

يوم الجمعة: ١٤١٨/١/١٧هـ - ١٩٩٧/٥/٢٣م:

إلى ولاية إترابراديش:

موعد سفر القطار إلى مدينة (بريللي) في الثانية عشرة والنصف منتصف النهار، ولم يبت في أمر السمة إلى (بوتان) لذا غادرت الفندق الذي أسكن فيه في دلهي، وهو فندق (كانيشكا) في الثانية عشرة إلا الربع في صحبة الشيخ عبدالوهاب الخلجي الذي سيرافقني في الرحلة كلها وهو الأمين العام لجمعية أهل الحديث في الهند وتخرج في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

سرنا في شوارع دلهي المزدحمة إلى درجة تحطم الأعصاب، وكانت هناك مناظر غير سارة من الدراجات الركشاوية سواء منها التي يسيرها راكبها برجليه والتي لها محرك خاص ويسمونها (موتور ركشا) ومنظر الهندوكيات بملابسهن الفضفاضة التي يشعر المرء بأن جزءا منها لا حاجة له إطلاقاً ومن ذلك أسفل الثوب الذي يسمونه (الساري) حيث تعثر به المرأة ولا تفتأ ترفعه بين يديها لئلا تتعثر به قدماها، وجزء منه يكون على الكتف يتدلى فترفعه المرأة فيسقط فتعيد رفعه وهكذا، ومع هذا القماش الفضفاض يكون جزء من بطن المرأة وظهرها أسفل من الصدر عارياً، ولذلك شاع عندهن لباس المسلمات والسيخيات الذي يسميه بعضهم اللباس البنجابي، لأن نساء بنجاب المسلمات والسيخيات يلبسنه وهو سروال واسع يضرب إلى الكعبين فوقه قميص طويل ينزل إلى الركبة يكون من جنس قماش السروال ولونه، وعلى الكتفين منديل خفيف طويل تضعه المرأة على رقبتها ليكون طرفاه خلفها يتدليان خلف

ظهرها وأصل هذا المنديل عند المسلمات أن يكون غطاءً للرأس، ولكن ذلك ترك الآن وصرن لا يغطين رؤوسهن.

وليس في هذا اللباس مما هو غير طبيعي إلا كون طرفي المنديل يتدليان خلف الظهر وليس على الصدر، فيكون في ذلك عناء على المرأة في محاولة تثبيته على رقبتها.

محطة نيودلهي:

وهي محطة القطار الذي سنسافر فيه إلى مدينة بريللي وهي محطة كانت مميزة في عهد الإستعمار الإنكليزي إذْ كان الإنكليز هم الذين كانوا وحدهم في وقت من الأوقات يستعملونها أما الأهالي من عامة الناس فإن لهم محطة أخرى تعرف بمحطة دلهي، وهي أكبر من هذه.

وجدنا الزحام في المحطة كبيراً بل مؤذياً رغم سعة المحطة، وتعوم في المحطة رائحة عفنة بعضها من بول أطفال صغار قد افترشوا هم وذووهم الأرض غير النظيفة.

ويتجلى في المحطة منظر الهنود الأصلاء الذين لا يزالون على حالهم دون تطور وما شبهت جلوسهم على الأرض فيها وازدحام الناس عليها إلا بمنظر الحجاج في بعض الأماكن غير أن أماكن الحجاج ليس لها هذه الرائحة العفنة.

ما كدنا نصل إلى المحطة حتى ابتدرنا جماعة من الحمالين المرخص لهم ويعرفون به لأن لهم زياً خاصاً وعلامة يضعونها على أيديهم، ولكن صاحبي الشيخ عبدالوهاب الخليجي مجرب فقد قال: لابد أن نعرف أجرة حمل الأمتعة، ثم أخذ هو والسائق يتراطنان تراطناً به حدة،

وقال الشيخ عبدالوهاب: إن أجرة الحمل إلى الأرصفة القريبة التي نريدها أقل من الأرصفة البعيدة، وكنت أظن أننا سنقف عند القطار مثلما يفعل الناس في البلدان الأخرى غير أن الحمال فعل ما كنت أنسيته عندما وصلت إلى هذه المحطة منذ سنوات، إذْ صعد إلى درج عالية متعبة، وقد حمل فوق رأسه وليس فوق ظهره أو عاتقه أمتعة تزيد على ٥٠ كيلومتراً، وتبعناه صاعدين وإذا بالدرجة العالية تفضي إلى ممر مسقوف فوق خطوط القطارات سرنا برهة فوقه ثم نزلنا مع درجة عالية أيضاً ولاحظت أن بعض الركاب يحملون أمتعتهم بأيديهم أو على رؤوسهم لكونهم لا يريدون أو لا يستطيعون أن يعطوا أجرة الحمال وبعضهم يجاهد في ذلك فتكاد تسمع لقلبه وجيباً ولصدره نحيباً، وإذا لم تسمع ذلك رأيته ظاهراً على وجهه من لهاث في فمه، وعرق على جبينه، وزفير يخرجه للهواء من فمه.

ولاحظت أن بعض الركاب العاجزين من كبار السن، ومعتلي الصحة يساعدهم ذووهم على السير في الصعود والنزول.

وصرنا بعد النزول إلى الأرض ثانية نخوض وسط زحام أكثر من أصعب ما فيه تجاوز الجالسين على الأرض القذرة ومنهم نساء وأطفال ورجال معهم أمتعتهم، وكل ذلك دون فراش أو وقاءٍ، فضلاً عن أن يكون هناك كرسي أو مقعد.

وعجبت من تقصير الحكومة في شيئين أولهما عدم وجود سلم كهربائي متحرك تستطيع أن تستعيد النفقة عليه من زيادة ضئيلة جداً في التذكرة تكفي لذلك لكثرة الناس المستعملين للمحطة والقليل من الكثير كثير أو تستطيع أن تفرض على من يستعملونه رسماً ضئيلاً جداً مهما

كان ضئيلاً فإنه سوف يغطي تكلفة إنشاء السلم الكهربائي لما ذكرته.

والشيء الثاني: عدم وجود كراس ولو رخيصة في المحطة يستعملها المنتظرون وفيهم نساء وأطفال وكبار في السن وأناس من علية القوم.

وضع الحمّال أمتعتنا في مقصورة في الدرجة الأولى الممتازة عندهم مكيفة الهواء معزولة عن الخارج بزجاج معتم ضيق متطامن بحيث لا يرى المرء من يكون خارج القطار إذا كان واقفاً إلا إذا طأطأ رأسه، وفيها أربعة أسرة متقابلة في كل جهة سريران أحدهما فوق الآخر، تستعمل مقاعد واسعة لشخصين فإذا أراد الراكب النوم صعد أحدهما على السريرين فنام، ونام صاحبه على الثاني الذي تحته، وهذه المقصورة مخصصة لأربعة ركاب فقط.

جلست أنا ورفيقي الشيخ الخلجي في جهة وجلس الراكبان الآخران في الجهة المقابلة وهما زوجان هندوكيان شابان من الأغنياء أو من يسمونهم هنا بالطبقات الراقية.

ولم أر من رقيهما إلا استطاعة الركوب في هذه الدرجة- إن كان ذلك يعتبر رقياً- أما غير ذلك فلا، ومن ذلك أنهما لم يتكلما بكلمة واحدة فيها تحية أو ترحيب مع أنني أرتدي الملابس العربية وظاهر من ذلك أنني غريب وصاحبي الشيخ الخلجي من ولاية البنجاب وهو وجيه المظهر، حسن الثياب، لذلك لم نعرف من اسميهما ولا من أحدهما شيئاً وكان صاحبنا الخلجي قد حمل معه فاكهة وشراباً بارداً من عصير الفاكهة عرض عليهما منه شيئاً فرفضاه فوردت على ذهني عبارة كان قد كتبها البيروني قبل ألف سنة أن الهنود الذين يريد بهم الهنادك، لأنه لم

يكن قد وجد مجتمع مسلم في الهند في ذلك الوقت وهي قوله: إنهم لا يؤاكلوننا ولا يشاربوننا، ولا يقبلون طعامنا، وقد تقدم نقل ذلك عنه في الجزء الأول.

وفي هذه المقصورة حوض للماء رغم وجود حمامين خارجها عند مدخل العربة، ومن الطريف أنهم وضعوا للحوض غطاء فيه سقاط وهو الذي يمسك به في حائط الغرفة إذا ما أراد الراكب ذلك، وقد وضع الحمال الأمتعة كلها تحت المقاعد فبدت المقصورة واسعة ثم جاء خادم بوسائد وأغطية أما الأجرة فإنها تساوي ٣٦ دولاراً أمريكية لمسافة لا تزيد على ٢٥٧ كيلومتراً، هي المسافة بين دلهي العاصمة ومدية (بريللي) الذي يقصدها القطار ورغم ضخامة مدينة (بريللي) وكثرة القرى حولها، بل اتصالها بها فإنه لا يوجد فيها مطار، وإنما على من يريد الذهاب إليها أن يركب القطار أو السيارة ويقضي خمس ساعات أو نحوها إلا إذا كان القطار معتاداً فإنه يحتاج إلى ٧ ساعات ليصلها.

أول ما صعدنا إلى المحطة جاء مفتش وأطلع على التذاكر وطلب من الشيخ الخلجي مبلغاً إضافياً ذكر أنه رسم الحجز لأنه دفع ثمن التذكرة الأصيل بدون دفع شيء للحجز.

ومما يجدر ذكره أن الحجز لا يكون إلاّ على تذكرة فلا يكون بالهاتف أو بالحجز الشفهي المجرد.

من دلهي إلى بريللي:

انطلق القطار في الثانية عشرة والنصف من دون أن يحدث صوتاً تحذيرياً للمودعين أو الذين لهم عمل يتعلق بالقطار ولكنهم لا يريدون

السفر فيه، ومن أولئك خمسة من الذين كانوا معنا من طلبة العلم ونحوهم جاءوا يودعون ويخدمون جزاهم الله خيراً، إلاّ أنهم كـــانوا نزلـــوا قبـــل تحرك القطار.

عندما تحرك القطار صار يسير على خط محجوز بحائط من الآجر الأحمر ما بينه وبين أحياء مدينة دلهي التي يمر بها، وهذا أمر طبيعي، ولكن غير الطبيعي أن يكون ما بين الحاجز هذا وبين قضـــبان القطـــار قذراً مليئاً بالنفايات، وقد بعد عهده بالنظافة.

سار القطار وئيداً يعوم فوقه دخانه ويصل إلى عربتنا على هيئـــة سحابة منخفضة من الضباب إلا أن العربات معزولة عنه.

ومر بعدة أحياء من مدينة دلهي الواسعة ولاحظت أن أكثـــر هـــذه الأحياء تحتاج إلى النظافة والعناية وكلها من أطراف المدينة بمعنى أنها ليست من الحي الجيد في قلبها، وعندما انقطعت عمارة المدينة وصـــار القطار يسير في أرض ريفية كان منظر الأشجار فيها كالصحراوية التي لا تسقى، ومزارع خضراء ضيقة، ورأيت مصانع عديدة تنفث مـــداخنها الدخان في ضواحي دلهي وما قرب منها وهي مصانع عديدة مختلفة.

محطة غازي آباد:

وقف القطار عند محطة تسمى (غازي آباد) من بلدة غـــازي آبـــاد و(آباد) كلمة فارسية دخلت إلى الأوردية بتوسع معناها: بلـــدة أو مكـــان معمور، و(غازي) اسم عزيز على المسلمين كان مما بقـــي لهـــم مـــن علامات العزة الغابرة.

رأينا الناس في هذه المحطة كإخوانهم في محطة دلهي قد افترشوا الأرض، لأنهم لا بساط لهم فيها غيرها وفيهم الأطفال والعاجزون، وتكرر منظر الدرج الذي يصعدونه إلى سطح المحطة ثم يهبط منه إلى موقف القطار.

واللافتات والتعليمات مكتوبة باللغة الهندية المسماة بالهندي، وهي لغة تعتمد على السنسكريتية القديمة وفيها ألفاظ وجمل كثيرة من الأوردية، وكانت لغة مماتة أحياها الهنود، وجعلوها لغة وطنية لهم، ولكن ذلك ليس عاماً في الهند كلها، فطوائف من أهل البلاد لا يعرفون منها حرفاً مثل أهل جنوب الهند الذين لهم لغاتهم الخاصة كالتاملية والكَنرا، ومالايا لم وهي تستعمل اللغة الإنجليزية لغة ثانية بديلة من الهندي.

وكتابتها عجيبة لأن حروفها تبدو مقلوبة كأنما تتفرع من خط من أعلاها مستقيم من اليمين واليسار تنزل منه الحروف قليلاً وتعود إليه.

وقد حلت هذه اللغة محل اللغة الأوردية التي كان بعض الناس يسمونها باللغة الهندية إلى جانب تسميتها بالأوردية لأنها كانت اللغة الأولى في الهند كلها من حيث عدد الذين يفهمونها أو يستعملونها في ولايات الهند كلها. وهذا أمر مؤسف لأن (الأوردية) إسلامية النشأ وتحتوي على ألوف الكلمات من اللغة العربية سواء منها ما دخل إليها مباشرة أو بوساطة اللغة الفارسية، هي لسان الثقافة الإسلامية في الهند، ومستودع أفكار المسلمين وغيرهم لعدة قرون.

استأنف القطار سيره ولاحظت أنه يوجد جندي مسلح بل شاهر سلاحه على باب العربة التي فيها مقصورتنا فذكروا أنه وجد هنا لأن

المقصورة المجاورة لنا في القطار فيها عضو في المحكمة العليا ويعتبر هنا من كبار القوم من حيث المنصب والأهمية، إضافة إلى أن طبيعة عمله تقتضي توفير حراسة كافية له.

وذهب أحدنا إلى الحمام في العربة فوجده اثنين متقابلين أحدهما أفرنجي والآخر يقابله عربي وهو المسمى بالآسيوي، وقد تذكرت نكتة سمعتها في كينيا قبل أكثر من ثلاثين سنة وذلك أن الإنكليز جعلوا في المطار مراحيض كتبوا عليها أنها أوروبية وعربية كتبوا عليها: إنها آسيوية فاحتج الأفارقة أهل البلاد على كونهم لم يجعلوا لهم مرحاضاً إفريقياً، وربما كان ذلك من باب النكتة والهزل.

ولكن الشيء المؤكد الذي رأيته هناك أنه كان يعرض في ذلك الوقت في السينما في نيروبي شريطاً سينمائياً مشهوراً عنوانه (آدم وحواء) ويريدون بذلك أبوى البشر جعلوا ممثلي آدم وحواء من البيض فاحتج بعض الأفارقة بأن هذا فيه تحد لمشاعر الأفارقة لأنه قد يفهم منه أنهم ليسوا في اللون مثل آدم عليه السلام إضافة إلى أن الأمر من ناحية جدية يحتاج إلى دليل بأن لون آدم أبي البشر هو البياض بياض الأوروبيين وليس هو السمرة أو السواد.

أما المنظر من نافذة القطار فإنه ليس من السهل تصويره لما ذكرته من قبل من حال النافذة، وكان من أبرز ما يراه المرء من القطار أكوام الأخثاء التي اسميتها من قبل بأهرام الأخثاء، وهي رجيع البقر أو برازها يجمعونه ويجففونه ثم يضعون بعضه على بعض بطريقة منظمة من أجل أن يجف فيباع للوقود، وهو كثير لأن البقر كثير في بلاد الهند.

وقد أغفيت فوق السرير في راحة جيدة، وعندما انتبهت كان القطار يسير في ريف معمور كله بحقول ضيقة أي صغيرة غير واسعة، وفيه أشجار متفرقة غير كثيفة، وغير نضرةٍ ومنها أشجار (التار) التي تشبه على البعد تخيل التمر إذا كان هزيلاً مهملاً إلا أن فروعها أصغر من فروع النخلة.

أما الحقول فإنها من الأعلاف ومزروعات عالية أظنها الذرة وقد رأيت الحقول التي كانت قد زرعت قمحاً وحصدوه قبل شهر أو يزيد ترعى الأبقار في مكانه لأنه لا توجد أعشاب خضر في الأرض، بسبب موسم الجفاف في هذا الوقت من السنة في شمال الهند، وتكررت رؤية أشخاص قد قعدوا القعدة الهندية كما اسميتها وهي الإقعاء في الفصحى وذلك أن يجلس الشخص على قدميه بحيث تصل مقعدته الأرض أو تكاد.

وبيوت الريف فيها أعداد جيدة تبدو عصرية وربما كانت لمزارعين أو ملاكين أغنياء.

هذا وكان الجلوس في هذه المقصورة من القطار جيداً بل ممتعاً لو لا أنه كانت تهب فيها في بعض الأحيان ريح منتنة ما تكاد تخف حدتها حتى تعاود قوتها ثانية.

وذلك من عادة قديمة في الهند ذكرها الإمام المسعودي قبل ألف عام في كتابه (مروج الذهب) ونقلناها في الجزء الأول.

وقد عجبت من الشابين الفتى والفتاة اللذين عليهما مظاهر الغنى والتعلم ومع ذلك يبدوان مرحين أو مرتاحين في وسط جو الغرفة الذي يصبح خانقاً من جراء ذلك.

هذا ومن الأشياء اللافتة للنظر في إحدى المحطات أن القرود كانت موجودة مع الناس في المحطة، ولم أجد من يبالي بها، أو يعطيها شيئاً تأكله كما يفعل بنو قومنا في القرود العربية عندما يمرون بها في الطريق.

ويذكر أن القرود الهندية هذه تختلف بعض الاختلاف عن القرود العربية المعروفة بهذا الاسم وبقرود البابون في الشكل وأما الطبيعة والتصرف فإنها تختلف عنها اختلافاً كبيراً فقرودنا إذا أخذ أحدها شيئاً وليكن قطعة من الخبز لا يحاول قرد آخر أن يستلبها منه إلاّ إذا كان ذلك قبل أن تستقر في يده، أما هنا فقد لاحظت أن قرداً حصل على قطعة صغيرة من الخبز فصارت عدد من القرود تحاول انتزاعها منه.

عندما رأيت بعض هذه المناظر من نافذة القطار وحالة المرافقين في عربته الممتازة ذكرت آخر مرة ركبت فيها قطاراً وأن ذلك كان في المغرب حيث ركبت من الرباط إلى فاس وبالعكس، ثم من الرباط إلى مطار الملك محمد الخامس في الدار البيضاء، ووجدت في ذهني أن الفرق بين القطارين والمناظر بين البلدين كالفرق بينهما في بعد المسافة.

محطة مراد آباد:

و(مراد آباد) مدينة وقف القطار في محطتها وقد كتبوا اسم المحطة بالأوردية والإنكليزية إلى جانب الهندية، أما التعليمات والمعلومات الأخرى فإنها كلها بالإنكليزية.

وهي مدينة مشهورة بصناعة الأواني، ولكن حدثت فيها اضطرابات بين المسلمين والهنادك تضرر فيها الإخوة المسلمون جرياً على العادة في مثل هذه الأمور التي تحضر فيها الشرطة وهي في أكثرها من الهنادك فتساعدهم على المسلمين أو لا تكف أذاهم عنهم على الأقل.

وقد اشتهرت (مراد آباد) بمكتبة فيها مخطوطات عربية مهمة من نفائس الكتب، ثم وقف القطار في محطة رامبور، ويعني اسمها (بلد رام) وكان حكامها من المسلمين لمدة طويلة.

قال السيد عبدالحي والد السيد أبي الحسن الندوي في كتابه: (الهند في العهد الإسلامي):

رامبور: إمارة مساحتها واحد وأربعون وتسعمائة ميل مربع، ومجابيها نحو ثلاثين (لكاً) (ثلاثة ملايين) ولي عليها فيض الله بن علي محمد خان، كما قدمناه في أيام الأفاغنة، واستقل بالملك مدة، وبنى المدارس والمساجد برامبور، مات سنة ١٢٠٨هـ، ثم ولي ولده محمد علي خان الشيعي، فقتله أخوه غلام محمد خان، فسار إليه آصف الدولة يحيى علي خان الشيعي اللكهنوي بعساكره وقاتله، ثم أخرجه من بلاده، وولى أحمد علي بن محمد علي خان المذكور، وامتدت أيامه خمساً وأربعين سنة، ثم ولي محمد سعيد خان بن غلام محمد خان المذكور، وامتدت أيامه إحدى وثلاثين سنة، مات سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف، ثم ولي ولده يوسف علي خان الشيعي، واستقل عشر سنين، مات سنة إحدى وثمانين ومائتين وألف.

ثم ولي ولده نَواب كلب علي خان الحنفي، وكان عالماً كريماً، محباً لأهل العلم، سافر إلى الحرمين الشريفين فحج وزار سنة ١٢٩٠هـ، وبذل مالاً كثيراً على أهلها، مات سنة خمس وثلاثمائة وألف، ثم ولي ولده نواب مشتاق علي خان، وكان مجهول الكيفية، مات سنة سبع وثلاثمائة وألف.

ثم ولي ولده نواب حامد علي خان، وترك مذهب أهل السنة وصار شيعياً على مذهب جد أبيه المذكور ومات سنة ١٣٤٩هـ= ٢٠ من يونيو ١٩٣٠م، وخلفه ابنه النواب رضا علي خان، ومات سنة ١٣٨٦هـ= ٦ مارس ١٩٦٦م، وألغيت الإمارة في عهده سنة ١٩٤٦م.

هذا وقد دخلنا منذ فترة إلى ولاية (إترابراديش) المعروفة اختصاراً بولاية (يوبي) وذلك منذ أن فارق القطار حدود منطقة العاصمة (دلهي) التي تتألف من مدينة دلهي وأراض وقرى تتبعها، وإن لم تصل إلى درجة الولاية فلا يقال لها (ولاية دلهي).

ثم وقف القطار في محطة (رامبور) ومعنى اسمها: بلد رام (ورام) كبير معبودات الهنادكة.

هذه بريللي:

وصل القطار إلى محطة المدينة التي نقصدها وهي (بريللي) التي هي قاعدة محافظة تسمى (محافظة بريللي) أيضاً تضم مدناً وقرى منها مدينة (ريشا) التي فيها المؤتمر أو الندوة التي جئنا من أجل المشاركة فيها.

وجدنا محطة (بريللي) مزدحمة جداً بالأناسي والحيوان ومنها دراجات الركشا التي يسيرها صاحبها برجليه لأنها الدراجة الهوائية المعتادة قد هيأها لجلوس شخص أو شخصين في مقعد فيها وهو يؤجرها كما تؤجر السيارة للراكبين، ورجل معه مطبخ كامل على عربة يدوية حديدية ضخمة ذات أربع عجلات عليها قدور معدنية تغلي بالطعام يدفع العربه بيده، ويبيع من طعامها الحار على الآكلين.

كان وصولنا إلى (بريللي) في السابعة إلا ثلثاً وقد استغرق سفرنا ٤ ساعات وعشر دقائق في هذا القطار الذي يعتبرونه سريعاً لا يكثر من الوقوف في المحطات، فوجدنا عدداً من الإخوة المستقبلين في المحطة بعضهم كانت بيني وبينهم معرفة سابقة، فاستقبلونا بحفاوة فائقة.

ومنهم الشيخ الحاج عبدالمالك رئيس المعهد الديني في ريشا، والشيخ رضاءالله عبدالكريم المدني أمين المعهد، والشيخ شهاب الدين رئيس هيئة التدريس في المعهد، والإخوة الأعضاء الأخ حضور أحمد، ود. محمد كليم، والأخ المهندس عبدالمجيد عبدالمالك، والشيخ جميل الرحمن، والشيخ حميدالله الندوي، وعدد من كبار المسئولين في المعهد.

وحملوا أمتعتنا معهم إلى سيارتين أعدوهما ثم انتقلنا معهم إلى فندق في مدينة بريللي لقضاء هذه الليلة فيه بعد أن كان مقرراً أن نذهب إلى مدينة (ريشا) مقر المؤتمر، ولكن الإخوة أخبروني أن (ريشا) لا يوجد فيها فندق وأنهم كانوا أعدوا لسكناي فيها غرفة في مكتب لإحدى الشركات التي يملكها المسلمون، إلا أنهم رأوا الآن هذا الرأي وذكروا أن صاحب الفندق مسلم مؤثوق به، وأنه يمكنه أن يقدم الطعام المذبوح ذبحاً حلالاً.

والغريب أنني سمعت منهم جملة (لحم حلال) تتردد في هذه المرة ولم أكن سمعتها من قبل، بل إن الإخوة المسلمين كانوا قالوا إن كل اللحم الموجود في المطاعم والمسالخ الحكومية في الهند هو حلال، لأن الذين يذبحون الحيوان ويأكلون لحمه هم المسلمون وحدهم، أما الآن فقد أكثر الإخوة ذكروا أن الهنادك صاروا يأكلون اللحم، وأن بعض اللحم لا يكون مذبوحاً ذبحاً شرعياً.

والمراد بأكل الهنادك اللحم لحم الغنم والدجاج، وأما لحم البقر فإنهم لا يذوقونه أصلاً، لتعظيمهم البقرة.

كانت المشكلة عند نزول الفندق هو عدم وجود جوازي معي فهو في السفارة السعودية من أجل الحصول على سمة دخول إلى مملكة بوتان كما تقدم.

وقد حل الإخوة هذه المشكلة بأن استأجروا الغرفة باسم أحدهم وأسكنوني فيها، ولما قلت للأخ عبدالوهاب الخلجي: إنني أخشى أن يترتب على ذلك شيء من الضرر، قال: لا يكون ذلك لأننا أخبرنا المباحث والشرطة بقدومك وسفرك معنا، لأن مثلك لا يجوز إلا أن يخبر بوجوده.

وجدت الغرفة جيدة السعة والأثاثات رغم كون الفندق في قاعاته ومظهره هو فندق النجوم الثلاث، ولكن أصحابه جددوه تجديداً وفق ذوق هندي مسلم، وذكروا أن هذا الفندق كان الفندق الوحيد في المدينة في السابق، أما الآن فإنه قد وجد غيره فيها واسمه: (سرن تاور).

هذا وقد جلس معي في الغرفة ثمانية منهم لفترة من الوقت عرفت منهم جهة القبلة، وأكملنا بحث برنامج إقامتي في محافظة (بريللي).

وقد ودعوني مشكورين في الثامنة، فنزلت إلى مطعم الفندق في الطابق الأرضي، وهو مكيف الهواء نظيف الرياش، طلبت منهم لحم غنم بالكاري الخالي من الفلفل اللاذع ومن الدسم الثقيل، ولكنهم جاءوا به ناراً تأجج والأرز لذيذ الطعم، متقن الصنع، وقد انقطعت الكهرباء عن المطعم فبقينا فترة في ظلام دامس، وكان في الفندق جماعات من الهنود المغتربين العائدين لزيارة الهند تبين ذلك من أشكالهم التي تغيرت، ومن ملابس نسائهم وأطفالهم وقد طلبت مع الكاري أرزاً أبيض ساذجاً

وخضرات مطبوخة وماء مما يسمونه معدنياً وهو ماء معتاد مكرر، والله أعلم بحالة من كرروه وادعوا إنه نظيف.

وكانت قيمة هذه الوجبة الجيدة في المطعم النظيف المبرد ١٩٥ روبية أي نحو ٢٠ ريالاً سعودية.

ولاحظت أن بعض العادات المعروفة عند خدم المطاعم والفنادق في الهند لا تزال موجودة الآن مثل الوقوف أمام الآكل، وتركيز النظر عليه لمعرفة كيف يأكل، وكيف يبلع وكيف يستعمل الملعقة وقد يتطفل العامل فيسارع إلى مساعدتك على شيء لم تطلبه منه كان يضع كوب الماء في مكان غير المكان الذي وضعته فيه، ومثل السؤال عن الطعام وهل هو جيد؟ كأن هو قدمه إليك بالمجان، ومثل إسراعه إلى سؤالك عما إذا كنت تريد الزيادة من مثل الخضروات في السلطة الخضراء؟

وكنت أتضايق من ذلك وأبعدهم عني فيكتفون بالابتعاد قليلاً، ولكنهم لا يكفون عن تركيز النظر عليك بغية خدمتك كما يزعمون.

ثم عدت إلى الغرفة التي هي باردة لأن فيها مكيفاً ومروحة تنشر برودته في أنحاء الغرفة.

وفي الحادية عشرة رن جرس الهاتف مرتين فأعدت السماعة ولم أجب، لأن جميع مضيفي قد ذهبوا إلى مدينة (ريشا) وأنا أحمل نقوداً وأريد النوم وظننت أن هذا الذي طرق عليَّ الهاتف هو أحد الثقلاء الذي سيمنعني من النوم، ولكن تبين في الصباح أن الأمر جد أكثر مما ظننت،وأن الذي هتف بي في الليل هو موظف الفندق الذي ألحت عليه الشرطة بأن يخبرهم عن الغريب الذي نزل عندهم ولم يسجلوا جوازه، فتولى أحد الإخوة هذا الأمر بأن أعطاهم بطاقته، ليقدموها للشرطة وأنني تحت ضمانته.

يوم السبت : ١٨ / ١ / ١٤١٨هـ:

صباح بريللي:

لا يزال في النفس شيء عن بريللي بسبب نسبة الفرقة المبتدعة المعروفة بالبريلوية إليها و إن كان ذلك لا يعني أن أهلها كلهم كذلك، بل إن فيهم أناساً من أهل الحديث والمعتقد السلفي النقي ومنهم أصحاب المعهد السلفي في (ريشا) الذي يقيم الندوة التي جئنا من أجلها.

كان المنظر من النافذة وغرفتي في الطابق الثاني يطل بعد شروق الشمس على شارع الفندق الذي هو رئيسي فيه دراجة ركشا واقفة وعربة يجرها حصان سائرة وحافلة ضخمة لم يستيقظ زحامها بعد، وأشجار خضر حدت من النظر البعيد في المنطقة.

ومرَّ بائسون من رجال ونساء لا أدري ماذا يعملون ولكنهم ذووا المظهر الزري الذي لا يكاد يوجد له مثيل في أي مكان من العالم، إلا في بعض الدول الإفريقية جنوب الصحراء.

وقد فكرت في هؤلاء القوم المتخلفين أو لنقل بعبارة أكثر إنصافاً: إنهم فقراء معدمون عاجزون عن الحصول على القوت الطبيعي والسكن الطبيعي والملبس المعتاد.

وقلت: لماذا تتجاهل حكومة الهند وجودهم وهم ملايين عديدة في البلاد والنهوض بهم أو لنقل: إنقاذهم من الحياة المزرية واجب وطني؟

فكان جواب العقل يقول: إن ذلك فوق إمكاناتها ولو ذهبت تحاول ذلك لكانت كما قال المثل العامي النجدي: «أخوك الفَقري يفقرك ولا يغتني»، والفَقري هو المعدم الذي لازمه الفقر طول وقته، نسبوه إلى الفقر،

يقول المثل: إن ذلك الفقير المعدم يفقرك إذا أردت مساعدته ولا يستغني، لذلك تركتهم الحكومات الهندية المتعاقبة على حالهم يعانون ما يعانون وانصرفت إلى أجزاء البحوث والدراسات التي تقوم بها نخبة من المتعلمين الذين يحيون حياة معقولة ومقبولة في الهند فوصلت الهند في هذا الصدد إلى درجة من العلم التجريبي والصناعات الخفيفة والثقيلة لا بأس بها.

من بريللي إلى ريشا:

وريشا مدينة واقعة في محافظة بريللي تبعد عنها بما حدده إخواننا بساعة ونصف بالسيارة وهذه عادة لهم أن يحددوا المسافات بالوقت وليس بالكيلو والميل، مع أن الوقت يختلف باختلاف وسيلة النقل وسرعة سيرها أو بطئه، وقد عرفت أنها تبعد ٤٦ كيلومتراً، غادرنا فندقنا في مدينة بريللي في التاسعة والنصف مع عدد من الإخوة الذين كانوا حضروا من (ريشا) إلى بريللي ليكونوا في صحبتي، وذلك في سيارة مكيفة الهواء من طراز (امبسادور) الذي تصنعه الهند، فسلكنا شارعاً رئيسياً في المدينة يسمى (شارع المحكمة) لوقوع المحكمة عليه.

وعلى ذكر المحكمة أشار الإخوة المرافقون وهم من أهل الحديث السلفيين أن للسلفيين قضية في المحكمة تتعلق بمسجد كانوا يصلون فيه ويتولون شؤونه إلا أن طائفة البريلوية المبتدعة زاحمتهم عليه وادعت أنه لها، وأنها أحق به منهم فرفع الأمر إلى المحكمة التي لم تبت الأمر، وصاروا يصلون فيه بالتناوب والوقت لأن أهل الحديث عادتهم أن يصلوا في أول الوقت فيصلون ويفرغون من صلاتهم وينصرفون منها قبل أن يأتي البريلوية الذي لا يبادرون للصلاة أول وقتها إلا ما كان من صلاة

العشاء فإنهم يصلونها مبكرين ويصلي بعدهم السلفيون، لأنهم يــرون أن تأخيرها أفضل طبقاً لما جاء في الحديث.

وقد صرنا نخوض طوفاناً من دراجــات الركشــا المعتــادة وذات المحرك والعربات التي تجرها الثيران وهي تحتاج إلى جزء كبير مــن الشارع إضافة إلى وجود زحام كثيف من المشاة.

وعربات الثيران مشكلة لأنها تكون في الغالب مؤلفة من ثــورين قويين مقرونين بقرن من أجل أن يحملا حمــلاً ثقــيلاً، وكــذلك البقــر والجواميس التي لا يجعلونها تجر العربات لأن البقرة مقدسة عند الهنادك بخلاف الثور الذي هو أبوها وابنها والسبب في وجودها فإنه ليس مقدساً لذلك يمتهونه في العمل الشاق من الحمل والحرث.

وأما الجاموس فإنها كثيرة في المدينة وتسهم مع البقر في زحام الشوارع وهي كبيرة الأحجام والألوان، غير أنها لا تناسق ولا جمال في مظهرها، بل إنه قريب من مظهر الفيل الذي يفتقر إلى التناسب والجمال.

والشيء الفظيع كثرة الشاحنات الضخمة ومعها الحافلات التي تسد الطريق لضخامتها وكثرتها، وتلوث الهواء بأدخنتها الكثيفة المؤذية.

وأما سيارات الركوب الصغيرة فإنها موجودة ولكنها غير كثيرة في المدينة حسبما رأيناه منها الآن وبعد ذلك.

وإذا وجدت هذه السيارة الصغيرة فإن ميزتها وعلامتها أن صاحبها يطلق لبوقها العنان، فيظل لمناسبة ودون مناسبة نعرفها يطلقــه ليــزعج المارة، ويسهم في الضوضاء، وقال لي أحدهم: إن الناس هنا قد اعتادوا على ألا يخلو الطريق للسيارة الصغيرة إلا إذا سمعوا بوقها.

وقد رأيت المشكلة مجسمة في هذه المدينة وهي مشكلة تضخم المدن من حيث عدد السكان وما يحتاجون من مركبات ووسائل نقل من دون أن يواكب ذلك ما يناسبه من توسعات للشوارع وإيجاد مرافق جديدة مثل المواقف والميادين وأرصفة المشاة والمخازن والمستودعات البعيدة عن مراكز الازدحام.

ومع أن هذه الأمور التي ذكرتها مهمة ولكن تنفيذها صعب لما تتطلبه من نفقات وإمكانات لا تتوافر هنا فإن هناك أشياء تدل على الإهمال وعدم العناية لأنها لا تحتاج إلى أموال كثيرة ولا إمكانات كبيرة مثل ترك القمامات في الأماكن المتسعة في الشارع أو في ميدان عام وعدم رفعها، بل عدم المبالاة بوجودها مع وجود الأيدي العاملة الرخيصة والدواب التي يمكن أن تحملها إذا لم يستطيعوا أن يوجدوا لها العربات والأدوات الحديثة.

وقد مررنا وسط هذا الزحام الذي كثيراً ما تحشر بينه أجساد بشرية نحيلة ذات ملابس مهملة بمعهد ذكروا أنه معهد للبحوث المتقدمة فيما يتعلق بعلم الحيوان، وأنهم يجرون فيه دراسات على الحيوان.

والمعهد ذو مظهر لا بأس به إلا أن العناية بنظافته وتجديد طلائه معدومة، وفي خارج سوره كوم من القش لا أدري ما هو.

هذا وقد صادفنا صفاً ضخماً من الشاحنات الواقفة في شارع تتقابل فيه السيارات والمركبات من الشاحنات حتى دراجات الركشا، أخبرنا الإخوة أن سبب وقوف الشاحنات هنا أن الطريق الرئيسي مسدود الآن لوجود جماعة من العمال المضربين الذين منعوا المرور في الشارع حتى تتحقق مطالبهم. وذكروا أن هذا يحدث كثيراً في الهند، وأن الشرطة قد

حولت السير من ذلك الشارع الرئيسي إلى هذا الشارع الذي نسير فيه لأنه ليس فيه مضربون.

وعرفت من الوقوف وسط هذه الشاحنات وغيرها السبب في كون إخواني أصروا على أن أركب في سيارة مكيفة، لأن الهواء في الخارج حار وملوث بدخان الشاحنات والحافلات ودراجات الركشا ذات المحركات.

وقد كثر مرور الهنود الأصلاء الذين كنا ولا نزال نعرفهم بأجسادهم الهزيلة ومظاهر الفقر الظاهرة عليهم، وليس معنى ذلك أن الشعب كله مثلهم، وإنما المراد أنهم موجودون وأن عامة الشعب ليسوا مثلهم، بل إن حالة العامة قد حسنت بالقياس إلى ما كانت عليه من قبل.

وقد أشفق الإخوة من أن يفوت موعد افتتاح المؤتمر بسبب بقائنا هنا إلا أن الشاحنات ما لبثت أن تزحزحت، وأفلتنا من الرباط.

ولاحظت أن الشاحنة التي أمامنا تحمل شحنة ضخمة من الخشب الثقيل لتوصله إلى مصنع من المصانع.

وعربات تحمل فحماً وأخرى تحمل قشاً ربما كان لعلف الحيوان.

وفي هذا الجو القابض للنفس رأيت باعة في الشارع عرضوا في حوانيتهم أنواعاً جيدة من الفواكه والخضرات التي أكثرها من إنتاج المنطقة، بل رأيت محلاً لبيع الزهور في أحد الشوارع.

وقد استمر سيرنا داخل نطاق مدينة (بريللي) في شوارع تشكو الزحام حتى من عربات الركشا ذات المحرك.

ثم خرجنا منها مع طريق ريفية عليها الأشجار الضخمة من غير رشاقة، وجاء الخيال ليقول: إن ذلك لكي تتناسب مع قوام بعض رجالها

ونسائها من الأغنياء الكسالى الذين تتضخم أجسامهم أكثر فأكثر كلما امتد بهم العمر وأكلوا من الطعام الهندي الشهي الدسم.

ووصلنا منطقة ريفية ذكروا أنها كانت للصين وذكروا أن حدود الصين لا تبعد عنا الآن أكثر من ١٢٥ كيلو متراً.

هذا وقد رأيت شاحنة تسير أمامنا وعلى مؤخرتها لافتة تقول: من فضلك أطلق البوق وهذه عادة رأيتها في الهند منذ سنوات طويلة ولا تزال موجودة وهي تطلب من السائق الذي خلف سيارتك أن يطلق البوق أي أن ينبهك وخاصة إذا أراد تجاوزك.

ووصلنا إلى ريف فيه سكان وقرى متفرقة حتى إن الطريق فيه عليه مشاة لا تدري إلى أين يقصدون إذ ليس بقربهم قرية ظاهرة.

ومع أن السائق في الريف يكون مستريحاً في العادة بالنسبة إلى حالة السواقة في المدن، فإنه في مثل هذا الريف يكون تعباً أيضاً ولا يصبر على قيادة السيارة فيها إلا سائق متمرس صبور.

ومررنا بمنطقة أشار الإخوة إلى وجود مطار حربي سري فيها ذكروا أن نصفه يقع تحت الأرض، وذلك لقرب المنطقة من حدود الصين، وليس فيها مطار مدني.

قرية بوجي فوره:

مر الطريق بقرية اسمها (بوجي فوره) شارعها العام الذي هو طريق السيارات الذي نسير عليه مزدحم بعربات الركشا وبالمشاة وقد بقي على الوصول إلى مدينة (ريشا) ٢٧ كيلومتراً.

واستمر الريف بعدها مزدحماً، والطريق واحد للسيارات المتقابلة المتعاكسة في سيرها وحاله سيئة، إلا أنها أقل سوءاً من الطرق في البلدان الروسية والبلدان التي كانت شيوعية وكنت في رحلة فيها قبل أقل من شهر، إلا أن مظاهر الفقر المدقع مثل النحافة والملابس الرثة لا تكاد توجد في البلدان الروسية وما كان ملحقاً بها.

بلدة ريشا:



مسجد المعهد السلفي في ريشا

قبل الوصول إلى بلدة (ريشا) بأربعة كيلومترات استقبلنا بعض الإخوة بعدد من السيارات والدراجات النارية، ولم يقفوا وإنما تقدموا سيارتنا، وواكبوها حتى وصلنا بلدة (ريشا) فوجدنا الاستقبال الحافل،

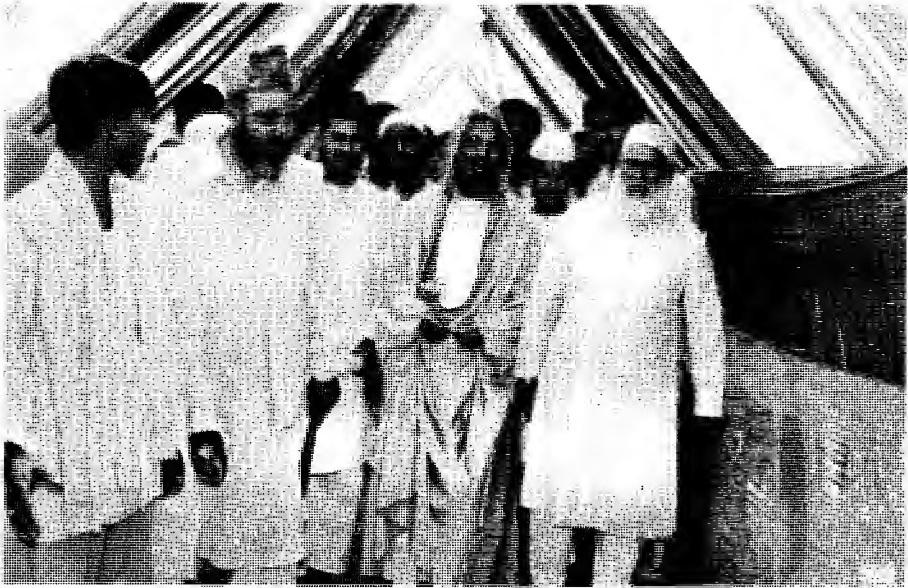
والاستعداد لذلك متمثلاً في الدراجات النارية التي واكبت موكبنا أيضاً، وبجماعات من المسلمين قد قدموا إلى مكان المهرجان مكان الندوة على شاحنات كبيرة ومعهم أطفالهم ونساؤهم وكلهم جاء لحضور الاجتماع وسماع ما قد يلقي فيه من خطب وكلمات.

وصلنا إلى مكان الاجتماع في مقر المعهد السلفي في الحادية عشرة ضحى، فوجدنا صفاً طويلاً من الأجساد المتراصة كانوا أو أكثرهم واقفين فترة في الشمس الحارة ليكونوا في استقبال أخيهم القادم من بلاد الحرمين الشريفين، وغيره من الإخوة المسلمين من سائر أنحاء الهند الذين حضروا لهذا الاجتماع ورأيت أكثرهم يحدق في ملابسي العربية وهم لا يكادون يصدقون أعينهم بأنهم يرون أخاهم وجهاً لوجه حتى إن بعضهم أراد السلام بالمصافحة فنهوهم عن ذلك حذراً من ضياع الوقت واختلال النظام.

لذا لم نقف عند هذه الجموع المنتظرة وإنما مررنا بين الصفوف المتراصة يتقدمون الإخوة المسئولين عن الحفل، حتى دخلنا مبنى المعهد فوجدناهم نصبوا فيه سرادقاً على هيئة ممر مسنم السقف قد زينوه بأشرطة القماش الملونة، وبخاصة الذهبية.

ولم نتمهل في السير حذراً من أن يغمرنا الناس الذين أقبلوا كلهم يريد السلام والمصافحة، فصعدنا إلى الطابق الثاني من المعهد.

الحفل الخطابي:



في الطريق إلى مكان الاجتماع، الشيخ مختار أحمد الندوي على يسار المؤلف

رأينا القوم قد اكتمل عددهم قبل وصولنا بفترة فأجلسونا على منصة رئيسية خصصوا في وسطها مقعداً متميزاً مزيناً أجلسوني فيه على اعتباري راعي الحفل أو ضيف الشرف كما قالوا، يساري الشيخ مختار أحمد الندوي أمير جمعية أهل الحديث المركزية في الهند وعلى يميني الأستاذ عبدالوهاب الخلجي الأمين العام للجمعية ومعنا بعض كبار الجمعية والمسئولين عن المعهد فبدأ الحفل الخطابي بتلاوة آيات بينات من كتاب الله رتلها الشيخ (شكيل أحمد) وقد قرأ قراءة متقنة لو لا أنه كان يحرص على أن يرفع صوته ويمده ببعض الحروف أكثر من بعض.

ويلاحظ أن اسمه (شكيل) من كونه ذا شكل جيد في الفصحى وربما كان لمعنى ذلك علاقة مقصودة أو غير مقصودة بالمعنى العامي للفظة (شكالة) يعني الظهور بالمظهر الحسن والتزيي بالزي الحسن.

كان مكان الاحتفال في قاعة الاجتماعات في المعهد السلفي في (ريشا) وهو المعهد الذي دعا إلى إقامة هذا الحفل وبعده (ندوة التصوف في الميزان) تحت إشراف جمعية أهل الحديث التي يشترك فيها مثل غيره من المؤسسات والجمعيات السلفية في سائر أنحاء الهند.

وقد غصت القاعة وامتلأت عن آخرها بصفوف منتظمة من المقاعد، ومع ذلك لم يكن فيها إلا ما لا يزيد على عشرة بالمائة من الحاضرين، أما الأكثرية منهم فإنهم كانوا يتابعون ما يجري من هذه القاعة عن طريق مكبرات الصوت.

ولاحظت عدم وجود أي عنصر نسائي في الحفل حتى ولا واحدة، وذلك أنهم خصصوا للنساء مهرجاناً خطابياً وحدهن، وعينوا لهن واعظات ومتكلمات منهن.

وبعد تلاوة القرآن الكريم تقدم أحد الإخوة فألقى كلمة بالأوردية تحدث فيها عني ورفع من قدري عند القوم، وتجاوز ما عرفته عن نفسي، وقد أطال في ذلك، تقدم بعده الشيخ عبدالوهاب الخلجي إلى المكبر فترجم تلك الكلمة.



المؤلف يتوسط المنصة الرئيسية

ثم تقدم إلى المكبر الشاعر عبيد الرحمن وفاء الصديقي الأمين العام لجمعية أهل الحديث المركزية في ولاية (إترابراديش)، فألقى قصيدة باللغة الأوردية كان يتغنى بها تغنياً بألحان من القول من دون مصاحبة أية آلة.

ثم ألقى الشيخ رضاءالله عبدالكريم المدني أمين المعهد الإسلامي السلفي وأمين اللجنة العليا المنظمة للندوة والاجتماع كلمة رحب فيها باسمه واسم المعهد الإسلامي السلفي ترحيباً حاراً بجميع الضيوف الذين شرفوا بقدومهم الميمون ولبوا دعوة المعهد في هذه المناسبة الطيبة المباركة.

ثم ألقى ضوءاً على التاريخ في هذه المنطقة كيف نشأت الدعوة ودخل الإسلام في نفوس المسلمين والحالة السيئة العلمية والعقدية والدعوية التي يعتنقها الساكنون في هذه المنقطة خلال الدعوة المضللة

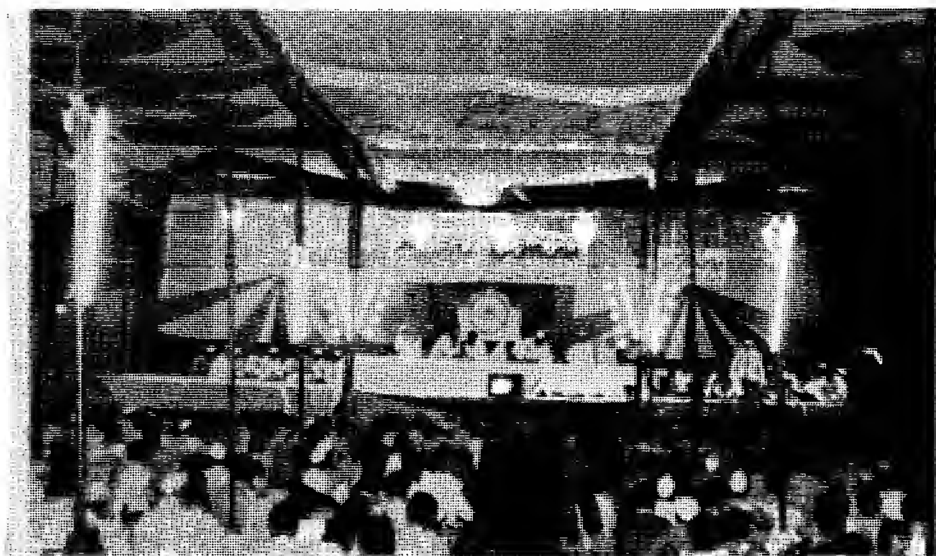
البدعية المسمى بها البريلوية، حيث يتوسلون بالأموات ويـذهبون إلـى القبور ويجصصونها ويبنون عليها القباب الفخمة ويقدسـونها ويعقـدون عليها الحلقات السنوية وذكر الشيخ الجهود الدعوية التي قام بها علمـاء أهل الحديث لتطهير العقائد وتصفية الدعوة وتزكية النفوس والرد علـى جميع الدعوات الباطلة والبدعية بكل معنى كلمة كتابة ومناظرة، وكـان في هذه المنطقة في مقدمتهم تلامذة العلامة السلفي الكبير الشـيخ السـيد نذير حسين محدث الدهلوي الملقب بشيخ الكل في الكل.

ثم سرد الشيخ المدني بعض أسماء العلماء السلفيين أهل الحـديث الذين قاموا بنشاط دعوي في المنطقة ثم ذكر جهود جمعية أهل الحـديث في الولاية، وكذلك أسباب تأسيس المعهد الإسلامي السلفي فـي ريشـا التابعة فرع جمعية أهل الحديث المركزية بالهند في الولاية، وجهود أهل القرية الذين ساهموا مساهمة فعالة، وبذلوا النفس والنفيس فـي تأسـيس وترقية المعهد ورفع مستواه المعنوي والمادي.

ثم ذكر فضيلته ذلك اليوم المشهود الذي عقد فيه الاجتماع لإرساء الحجر الأساسي بأيدي فضيلة الشيخ عبدالوحيد عبدالحق السلفي رحمـه الله أمير جمعية أهل الحديث المركزية بالهند الأسبق وعدد من العلمـاء، وكان ممن ساهموا في إرساء الحجر الأساسي الشيخ الحـاج عبـدالمالك والشيخ الحاج محمد يوسف رئيس الجمعية في الولاية آنـذاك والشـيخ محمد عمر نائب رئيس المعهد والدكتور أسلم حسين الأمين العام للمعهد.

وفي هذه المناسبة لما أعلن عن جمع التبرعات فقد قامـت نسـاء القرية بتقديم المجوهرات الذهبية والفضية، وما يمكن معها من الأمـوال إسهاماً في بناء هذا الصرح العلمي كي يدرس فيها العقائـد الإسـلامية

الصحيحة على منهج الكتاب والسنة، وما كان عليه السلف الصالح، ثم ذكر الشيخ بأنه قبل إنشاء المعهد كانت مدرسة تسمى بالمدرسة المحمدية السلفية بإدارة الأستاذ حضور أحمد بن محمد إسرائيل والتي كانت مدرسة ابتدائية وانضمت فيما بعد إلى إدارة المعهد.



الاجتماع العام للمركز

وقال الشيخ رضاءالله عبدالكريم المدني: إن المعهد بعد إنشائه تطور بالبناء والعمائر، ولقد أرسى دعائمه القوية في التدريس وقد ذكر بأنه يوجد في المعهد الأقسام الدراسية التالية:

١- قسم البنين: فيه الدراسة الابتدائية والمتوسطة والثانوية والعالمية، وعدد الدارسين فيه ما يزيد عن ستمائة وخمس وسبعين طالباً، وعدد المدرسين فيه ثلاثون مدرساً.
٢- قسم البنات: فيه الابتدائية والمتوسطة، وعدد الدارسات فيه ثلاثمائة طالبة، وعدد المدرسات فيه سبع مدرسات.

٣- قسم تحفيظ القرآن الكريم: عدد الطلاب فيه (٥٠) طالباً ويدرسهم ثلاثة من المدرسين.

٤- مركز الخطاطين: في هذا المركز يعلّم الطلاب علم الكتابة وخط نسخ العربي في خارج أوقات الدراسة لهم.

٥- قسم النشر والدعاية: يقوم المعهد خلال هذا القسم بنشر عدد من الكتب العلمية لتصحيح العقائد والمنهج والفكر والرد على ما يوجد من الأوهام والخرافات في هذه المنطقة وقد تمت طباعة أكثر من ستة عشر كتاباً وعدد آخر جاهز للطبع وبعضها تحت الطبع في المطبعة.

٦- قسم الصحافة: تصدر من هذا القسم مجلة دورية تسمى بترجمان السنة عن كل ثلاثة أشهر، وقد قضى من عمرها أربع سنوات، ولكنها توقفت مسيرتها لقلة الموارد المادية، وبعض العوائق الرسمية، ولكن بحمدالله تعالى حصلت إدارة المعهد على إصدار مجلة شهرية علمية دعوية الموافقة الرسمية باسم (الاعتصام) والتي سبتدأ مسيرتها بعد أشهر قليلة.

٧- قسم الدعوة والإرشاد: يقوم هذا القسم بإدارة الشيخ شهاب الدين المدني رئيس هيئة التدريس في المعهد بتنظيم الدروس والجولات الدعوية في مساجد القرية وما جاورها من القرى ويقوم أساتذة المعهد ومدرسوه بهذه المهمة وإلقاء خطب الجمعة في القرى المجاورة.

٨- فروع المعهد: يشرف المعهد على إدارة المنهج التدريسي في عدد من المدارس الملحقة به منها:

أ- المدرسة المحمدية السلفية في قرية ريشا.

ب- مدرسة نور الإسلام في قرية غردهر فور.

جـ- مدرسة ضياءالإسلام في رقية غردهر فور.

د- دار العلوم السلفية جوكهن فور.

هـ- مدرسة دار الحديث في قرية وهوزه تانده.

و- مدرسة دار الهدى في قرية شبش غره.

ز- المدرسة المحمدية السلفية في قرية جعفرفور.

ح- مدرسة خير العلوم في قرية جعفر فور.

ط- المدرسة المحمدية في قرية سيد فور.

بعد هذا السرد السريع ذكر الشيخ أمين المعهد في كلمته الترحيبية أنشطة الطلاب، وممارستهم العلمية وما يقومون به من النشاطات الأدبية والدعوية والإصلاحية والتمارين على تدريب الخطابة وكتابة المقالات.

قبل نهاية كلمته ذكر ما يحتاجه المعهد من أهمه:

بناء الفصول الدراسية والعمائر السكنية، وكذلك سكن الأساتذة، حيث لا يوجد بها المطعم والمطبخ على المستوى الجيد في المعهد وهو في حاجة ماسة إلى التغيير والتجديد، وكذلك ما يمس الحاجة إلى بئر عميق وخزان ماء لاحتياجات طلاب المعهد وغيرهم.

وقال الشيخ رضاءالله عبدالكريم بالإضافة إلى ذلك تمس الحاجة إلى بناية لمدرسة تحفيظ القرآن الكريم وكذلك المكتبة العامة.

ثم ذكر الشيخ العلاقات الوثيقة بين جمعية أهل الحديث المركزية بالهند وفرعها في الولاية وإشرافها على المعهد والتدبير في أموره، وبيّنَ باختصار جهود المشايخ الشيخ عبدالوهاب عبدالحق السلفي، والشيخ عطاءالرحمن المدني، والشيخ الحاج محمد يوسف والشيخ نصير أحمد،

والأخ رفيق أحمد، والشيخ مختار أحمد الندوي، والشيخ عبدالوهاب الخلجي، وقال إن مسجد الجامع للمعهد وعمارته الشامخة تدل على اهتمام الشيخ مختار أحمد الندوي الذي تولى بناءه عن طريق إدارة إصلاح المساجد بمساعدة أحد المحسنين في الكويت، كما أثنى أمين المعهد الشيخ رضاءالله عبدالكريم على جهود الشيخ عبدالوهاب الخلجي الأمين العام لجمعية أهل الحديث المركزية بالهند وتعلقه به وشئون المعهد وإسهاماته المتعددة في رفع مستوى المعهد الإسلامي السلفي في ريشا، وقال إن الشيخ الخلجي أحد زملائي وأصدقائي من الصغر.

وبعد ذلك تقدم الشيخ الخلجي فقدمني للحاضرين بالعربية ثم الأوردية، وذكر بعض مؤلفاتي وما كتبته عن المسلمين في أنحاء العالم، وما سجلته تسجيل مشاهدة وعيان من أحوالهم، وذكر الوظائف التي شغلتها ونوه منها بعملي في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وأنني كنت أول الموظفين فيها.

ثم أبدى رغبة الإخوة الحاضرين في سماع كلمة مني مبسوطة، فألقيت الكلمة التالية، وكنت أعددتها مكتوبة من أجل أن تترجم وينقل منها الصحفيون ما يشاؤون على جاري العادة في ذلك خلاف ما كنت تعودت عليه من عدم كتابة ما ألقيه في مثل هذه الاجتماعات، وأن تكون كلمتي فيها مرتجلة.

ولذلك لم أستطع التقيد بما جاء في الورقة المكتوبة وإنما خرجت عنه في كثير من المواضع مما استدعى مني أن أطلب ما نقله الإخوة منها مما سجلوه من قبل.



المؤلف يلقي كلمته من فوق المنصة الرئيسية في الاجتماع

وقد ترجمها إلى الأوردية بعد انتهائي من إلقائها الأخ الشيخ محمد إشراق السلفي وهو متخرج من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ومتمكن من اللغتين العربية والأوردية.

وهذه كلمتي التي ألقيتها في الاحتفال:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

أيها العلماء الكبار، أيها الإخوة الكرام.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

يسر الأمانة العامة لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة أن تشارك في الندوة العلمية هذه التي تنظمها جمعية أهل الحديث المركزية بالهند في هذه المنطقة.

إن إقامة مثل هذه الندوات العلمية تدل على يقظة القائمين على الجمعية وانتباههم إلى ما يجب أن يقوم به العلماء من محاربة البدع والخرافات التي أدخلت في دين الله القويم ولا شك أن هذا من الاهتمام بإصلاح الأمة وتوعية المسلمين والقيام بعمل الدعوة والإرشاد، ونشر العلم والمعرفة بين المسلمين وتصحيح عقيدة من انحرف عن عقيدة التوحيد، عقيدة السلف الصالح.

أيها الإخوة الكرام:

لا شك أنه من الواجب على كل مسلم أن يقتدي بسيد المرسلين أشرف الأنبياء والصالحين محمد بن عبدالله الذي بعثه الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وذلك باتباع ما صح عنه صلى الله عليه وسلم من الأقوال والأفعال التي هي الأصل الثاني من أصول الإسلام بعد كتاب الله تعالى.

وإذا أشكل على المسلم أمر من الأمور الدينية نظر فيما عليه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخلفاء الراشدين والعشرة المفضلين والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ومن تبعوهم بإحسان فهم حملة الشريعة وهم هداة الإسلام وهم القدوة والأسوة.

ويتمعن المسلم في حال المسلمين في عهد أولئك الصحابة والتابعين والذين تبعوهم بإحسان وما كانوا عليه من عز ومنعة ثم لينظر في حال الأخلاف الذين قالوا: إننا نتبرك بالشيخ الفلاني أو نتوسل بالولي الصالح إلى الله، أو إننا لا نستطيع أن نفهم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجب علينا أن نقلد فلاناً أو نتبع علاناً من الناس.

فكيف أصبح المسلمون على ما هم عليه من حال هي ضد ما عليه السلف الصالح من عز ورفعة وتمكين.

قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله (لن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها) ويروي (لن يصلح آخر الأمة إلا ما أصلح أولها).

فالنجاح الحقيقي أيها المؤمنون هو في العمل بكتاب الله وبسنة رسوله، وفي التمسك بالعقيدة الصحيحة، عقيدة التوحيد، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره من الله تعالى. قال الله تعالى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً**﴾ (النساء: الآية١٣٦).

وعليكم أيها الإخوة المؤمنون بالتضامن والتناصر والتآخي والتناصح والتسامح والتحابب فيما بينكم ﴿**اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً**﴾ (آل عمران: من الآية١٠٣).

ويجب أن يشد بعضكم أزر بعض والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلمه (إلى عدوه) من كان في حاجة أخيه المسلم كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه.

أيها الإخوة الكرام:

إن من البشائر التي نزفها إليكم وقد شاهدناها مشاهدة أو عرفناها باليقين أن الدين الإسلامي ينتشر الآن في الخافقين وفي سائر القارات حتى في البلدان المتقدمة في العلوم المدنية والمعارف الإدارية مثل

أوروبا وأمريكا، فنرى المفكرين وأساتذة الجامعات يدخلون في الإسلام، وترى المساجد تشيد في أحياء المدن الأوروبية حتى بلغ عدد المساجد في أحد أحياء مدينة بروكسل ٢١ مسجداً، وكان أول مسجد بني في ذلك الحي عام ١٩٧٤م.

وقد انتشر الإسلام في أوروبا وأمريكا بحجة الإقناع والاقتناع، وذلك يرد على ما افتراه الأعداء من كون الإسلام انتشر بالسيف وحده، وأنه لولا السيف لما اتبع الإسلام أحد، ونحن نقول لهم أي سيف للإسلام الآن إلاّ الحجة والبيان وسيف النقاء والظهور وسيف مهم آخر وهو تمسك المسلم بإسلامه حقاً، بالقول والعمل، وبالاعتقاد والمعاملة، وأذكر قصة تدل على ذلك خبرني بها أحد إخوتكم المسلمين المغاربة الساكنين في فرنسا قال: أسلم أحد الشبان الفرنسيين مثلما يسلم غيره في كل حين فحسن إسلامه وصار يحضر الصلوات في المسجد ثم إنه قال: سوف آتي بأمي لتسلم، قال: فعجبنا من ذلك لأن الغالب أن كبار السن لا يسلمون مثلما يكون عليه الحال بالنسبة إلى الشبان، فسألناه عن سبب رغبتها في الإسلام فقال: عندما أسلمت صرت أبر أمي وألطف بها، والين لها القول وأحضر لها الطعام و الفاكهة امتثالاً لما أمرني به الله من البر بالوالدين.

قال: ولم أكن اخبرتها بأنني أسلمت لئلا تنكر عليّ وهي عجوز كبيرة فقالت لي: أنا أعرف طبعك وطبع إخوانك الخمسة فلم يكن أحد منكم يبالي بي، ولا يلطف بي وأنت كنت أشدهم في هذا الأمر.

فلما ألحت عليِّ قلت لها: يا أمي أنا أسلمت وديني يأمرني بالبر بك والعطف عليك، ثم قرأت عليها ترجمة معاني الآية الكريمة ﴿**وَقَضَى رَبُّكَ**

ألاَّ تَعْبُدُوا إلاَّ إيَّاهُ وَبالْوَالِدَيْن إحْسَاناً إمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أحَدُهُمَا أوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُلْ لَهُمَا أفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً۞ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ (الإسراء: الآيات ٢٣-٢٤).

قال: فلما سمعت ترجمة الآية الكريمة وعرفت أثر إسلامي على معاملتها قالت: والله يا بني إن الدين الذي غيرك من تلك الحال التي كنت عليها إلى هذه الحال الطيبة لهو الدين الحق، فماذا يفعل من يريد أن يكون مسلماً؟ قلت لها: يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم يذهب إلى الجمعية ليسجل إسلامه رسمياً ويتعلم أمور دينه، فقالت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وسأذهب معك للجمعية الإسلامية كما ذكرت.

أيها الإخوة:

إن هذه قصة واقعية ولنا في حال أصحاب رسول الله صلى الله عليه و سلم أصدق مثال على ذلك: فقد كان العرب في الجاهلية يعبدون الأصنام ويسفكون الدم الحرام ويدفنون البنات ولا يرعون الحرمات ثم صاروا بعد إسلامهم أمثلة بل أروع الأمثلة على النبل والعدل والصدق في القول والإخلاص في العمل وصار الناس يدخلون في دين الله أفواجاً اقتداء بهم وإعجاباً بأخلاقهم الإسلامية الرفيعة.

وإنني أوصيكم ونفسي بهذه المناسبة بتقوى الله تعلى في السر والعلانية وباتباع الحكمة والموعظة الحسنة في الدعوة إلى الله، قال الله تعالى **﴿ادْعُ إلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾** (النحل: الآية ١٢٥). لأن الداعي إلى الله إذا انتهج في أعماله الدعوية هذا الأسلوب الرباني حقق النجاح وتغلب على دعاة الكفر والإلحاد وأدى الأمانة وأفاد الأمة.

كما أوصيكم وأنتم تعيشون بين أكثرية من مواطنيكم غير مسلمة أن تكونوا مثالاً للعمل فيما يصلح حال الأمة كلها وبخاصة فيما يتعلق بالمصالح الإدارية والدنيوية العامة من الطرق والموانئ والمستشفيات والإنشاءات العامة فيجب أن يحافظ المسلم عليها ويجب أن يسهل قضاء حوائج الناس إذا كان موظفاً أو عاملاً في حقل عام فيحرص على إغاثة الملهوف وتفريج كربة المكروب ولو لم يكن مسلماً لأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يقول : (في كل كبد رطبة أجر)، وكذلك الإحسان إلى اليتيم والضعيف والجار والشريك لأن الإسلام جاء بالخير للجميع ويجب أن يكون المسلم خيراً للجميع .

وفقنا اللّه و إياكم للقول الصادق والعمل النافع إنه سميع قريب .

والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته . .

ثم ألقى الشيخ عبدالوهاب الخلجي الأمين العام لجمعية أهل الحديث المركزية في الهند كله مبسوطة تكلم فيها عن جهود جمعية أهل الحديث المركزية وتكلم عن التصوف وهي باللغة الأوردية .

البرنامج يتواصل:

تتابع المتكلمون وتعاقبوا على المنصة أمام مكبر الصوت فكانوا يلقون كلماتهم باللغة الأوردية إلا أن كل واحد منهم يوجه كلامه إليَّ في أول كلمته بالعربية أو بالأوردية على اعتبار أنني ضيف الشرف في هذا الاجتماع جزاهم الله خيراً، وقد كتبوا ذلك في صدر البرنامج الذي طبعوه للاحتفال باللغة الأوردية فذكروا فيه ما نصه: مهمان حرم.. محمد بن ناصر العبودي ومهمان: كلمة فارسية دخلت إلى الأوردية معناه: ضيف، وحرم يراد به الحرم المكي الشريف، ويقصدون بذلك أنني ضيف قادم من الحرم المكي الشريف.

هذا وقد سمعت عريف الحفل يطلب من المتكلمين الاختصار حتى تتاح الفرصة لأكبر عدد من المتكلمين أن يتحدث في هذه الجلسة الافتتاحية التي حضرها صحفيون ورجال دين وفكر من غير المسلمين، وحتى من المسلمين الذين يخالفون أهل الحديث في المنهج كالبريلوية لأنها في الأساس ندوة بحث تتناول (الإسلام والتصوف في الميزان).

هذا وقد اختصر بعضهم الكلمات وتكلم عدد منهم كان آخرهم الشيخ مختار أحمد الندوي رئيس جمعية أهل الحديث الذي تكلم بالعربية موجهاً كلامه إليَّ وأثنى عليَّ ثناء لا أستحقه، ثم واصل كلمته المرتجلة بالأوردية.

ولاحظت أن القوم كانوا يتابعون ما يلقى من كلمات بإصغاء عجيب واهتمام رغم كون البرنامج متصلاً بلا تنويع أو تشويق.

مع رجال الصحافة والإعلام:

انتهى برنامج الجلسة الافتتاحية في الواحدة والنصف، فنزلنا من قاعة الاجتماع في الطابق الثاني إلى غرفة أرضية أغلقوها عن سائر الناس فلم يكن معنا إلا كبار القوم وعدد من الصحفيين.

وكان الصحفيون من المسلمين وغير المسلمين ويمثلون عدة صحف في المنطقة، وكان السؤال الأول عن سبب زيارتي للهند فأخبرتهم أنها استجابة لدعوة كريمة تلقيتها من المعهد السلفي هذا، وأن الدافع لي للزيارة هو حرص رابطة العالم الإسلامي على توثيق الصلات الثقافية مع المؤسسات والجهات الإسلامية في العالم ومنها المؤسسات الثقافية الموجودة في الهند.



أثناء المؤتمر الصحفي في ريشا

وقلت: إننا في رابطة العالم الإسلامي نعتقد أن توثيق العلاقات الثقافية الإسلامية مع الجهات والجمعيات الإسلامية في الهند يسهم إسهاماً كبيراً في توثيق العلاقات العامة، ما بين المؤسسات الشعبية في العالم الإسلامي وبين مثيلاتها في الهند لآن رابطة العالم الإسلامي منظمة شعبية عالمية.

وكان السؤال الثاني عن حال المسلمين في الهند كما شاهدتها، فقلت: إنني لمست أن المسلمين في الهند هم مواطنون مخلصون لوطنهم.

وعن العلاقات العامة ما بين الهند والبلدان الإسلامية قلت: إن العلاقات بين الهند والبلدان الإسلامية قديمة وموجودة حتى قبل الإسلام وتكلمت على أمثلة من ذلك.

ثم سألني أحد الصحفيين المسلمين سؤالاً مباشراً فظاً وهو قوله: هل

صحيح أن السلطات السعودية ألقت بجثث الحجاج المحترقة في الزبالة؟ وما موقف رابطة العالم الإسلامي من ذلك؟ فقلت له: إن هذا غير صحيح، ولم تسجل رابطة العالم الإسلامي أي شيء من ذلك وهي موجودة في منى طيلة موسم الحج ومن ذلك وقت الحريق، بل لم يذكر أحد حتى هذه الإشاعة التي ذكرتها والواجب على أمثالكم من الصحفيين أن يتحرى مصدر هذا الكلام السيء وأمثاله، لأنه لا يعقل أن يحدث هذا في بلد إسلامي، لأن الإسلام يكرم جسد الإنسان كما في القرآن الكريم: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾** ، وهذا يعم المسلم وغير المسلم فكيف يرمي بجسد المسلم في القمامة؟

ثم سألته عن المصدر الذي زعم ذلك، فقال: إنها إشاعة.



أثناء الجولة في أنحاء المعهد السلفي

الغداء في شركة تنقية الأرز:

يؤلف المسلمون أكثرية ساحقة بين سكان مدينة (ريشا) بل إن بعضهم يقول: إنها بلدة مسلمة ولا عبرة بالأقلية الضئيلة من غير المسلمين فيها- ولذلك يملكون الشركات والمصانع فيها ومن ذلك مصانع تنقية الأرز بمعنى تخليصه من قشره وتنقيته بحيث يكون جاهزاً للاستعمال.

وكان الإخوة قد أخبروني قبل ذلك أنه لا يوجد فندق في مدينة (ريشا) يمكن أن أنزل فيه ولذلك خصصوا لنزولي غرفاً في مبنى لشركة من شركات تنقية الأرز يملكها الإخوة المسلمون.

وهكذا توجهنا في الثانية والنصف من المعهد السلفي إلى مقر الشركة المذكورة أو لنقل- كما قالوا-: إنه لإستراحة كبار موظفي الشركة، ورأينا في الطريق عند مصنع آخر يملكه أحد الإخوة المسلمين المحسنين وهو الأخ الشيخ عبدالمالك رئيس المعهد السلفي أكواماً ضخمة من قشور الأرز التي تم استخلاص الأرز منها.

ثم رأينا عند المصنع الذي ذهبنا إليه كومة أخرى كالهرم الكبير من القشور.

وقد جلسنا في الإستراحة المذكورة التي هي مكيفة، وفيها عدة مقاعد وسريران للنوم مع عدد من الإخوة من كبار المسلمين الذين حضروا هذا الاجتماع ومنهم.

الشيخ مختار أحمد الندوي، والشيخ عبدالمتين عبدالرحمن السلفي مدير جامعة الإمام البخاري.

وصلينا الظهر معهم في طابق علوي غاية في النظافة من هذا المبنى يشرف على منطقة واسعة جمعنا نحن المسافرين القادمين من دلهي العصر إلى الظهر، والتقطت صوراً للمنطقة من هذا الطابق ثم نزلنا إلى مكان الاستراحة المكيفة كما قلت فوجدنا الإخوة قد أحضروا طعام الغداء من أحد بيوت المسلمين الأثرياء، فكان شهياً ذكروا أنهم أبعدوا عنه الفلفل من أجلنا، وهذا صحيح بالنسبة لما اعتادوا عليه من مقدار الفلفل في الطعام، لكنه بقي منه فيه ما يلهب الفم وما بعده بالنسبة إلينا.

كان الطعام مكوناً من كاري لحم الغنم ومن لحم الدجاج أكثر من نوع، وسلطة خيار مقشر وخبز حار قد لفوه بمنديل لئلا يبرد، لأن أهل الهند لا يحبون الخبز البارد حتى إنهم في المطاعم المعتادة يخبزون الخبزة لمن يطلبها ويأتون بها إليه حارة، أما إذا اضطروا إلى إرسال الطعام بعيداً عن البيت فإن أهم ما يعملونه في الخبز أن يلفوه لفاً محكماً حتى يبقى على حرارته، ومع ذلك الأرز البرياني الدسم وقد طبخ مع لحم الغنم اللذيذ، ثم جاءوا بلحم من لحم البقر أيضاً، وقال أحدنا متنادراً: كيف تأكلون لحم البقر الذي يقدسه الهنادكة؟ فذكروا أن الهنادكة صاروا يأكلون لحم الغنم والدجاج، وأما لحم البقر فلا، ولم تكن العامة منهم تأكل اللحم أصلاً لأنه محرم في ديانتهم حتى إن المتمسكين منهم بالديانة لا يأكلون السمك ولا البيض أيضاً.

وذكر أحد الإخوة أنه ضمهم اجتماع مرة بعدد من المثقفين الهنود وكان أحضر من بيته (كباباً) معطراً بالبهارات والفلفل كما يفعلون بطعامهم فصارت له رائحة ذكية ولما حان وقت الطعام قالت زميلة لهم هندوكية في الاجتماع: ألا يوجد معكم طعام؟ فقال: نعم، يوجد معي

كباب، ولكنني لا أدري أهو من لحم الغنم أم من لحم البقر، يقول ذلك صادقاً وهو يظن أن ذلك سيصدها عنه، فلما تذوقته أعجبت به وصارت تأكل وتقول: هذا لحم لذيذ، وأرجو ألا تخبرني بأصله؟

وعلق أحد الظرفاء من الإخوة بأنه يجب علينا نحن المسلمين أن نحصل على فتاوى من فقهاء الهنادكة ومتعبديهم بتحريم أكل لحم البقر خاصة واللحم عامة على الهنادكة حتى يتركوه لنا نحن المسلمين، لأنهم صاروا يزاحموننا على لحوم الغنم والدجاج حتى أغلوها.

وهناك شيء آخر تطرق إليه البحث مع هؤلاء الإخوة وكلهم عالم متنور وهو أن المسلمين يزيد عددهم الآن في الهند، بسبب كثرة النسل، وليس بسبب تعدد الزوجات لأن التعدد في الهند محدود ولا يجمع بين أكثر من زوجة من المسلمين إلا عدد قليل، وذلك راجع لعادات وتقاليد وليس إلى رأي ديني إضافة إلى قيود الحياة الاجتماعية والاقتصادية التي لا يتوافر معها لكثير من الناس المعيشة المطلوبة لزوجتين اثنتين وأولادهما.

قالوا: ويجب على المسلمين أن يشجعوا هذه الزيادة لدى المسلمين، وقد انتبه لذلك بعض الهنادكة فذكروا في الصحف ووسائل الإعلام أن عدد المواليد لدى المسلمين هو ضعف عددهم لدى الهنادكة، بل إن بعضهم بالغ حتى بث صورة في التلفاز كما قيل لي أو في الصحف يظهر فيها زوجان هندوكيان ومعهما ولدان لهما وهما يقولان: نحن واولادنا أربعة لا نزيد عدد السكان في الهند، لأن الولدين يكونان عوضاً عن الأبوين، وصورة أخرى لرجل من المسلمين لديه أربع زوجات مع كل زوجة خمسة أطفال وهويقول مع زوجاته نحن خمسة ولكل زوجة منا ٤ أطفال لذا نكون ٢٤ فرداً، وهكذا يزاد عدد السكان في الهند.

وهذا فيه تلبيس ظاهر فالمسلمون في الهند من النادر كما قلت أن يتزوج الرجل منهم بأكثر من زوجة واحدة وأما الزواج بأربع فإنه لا يكاد يوجد.

وحتى لو وجد تعدد الزوجات عند المسلمين فإن ذلك أمر طبيعي لكونهم أقلية عددية تسعى إلى ترسيخ نفسها وتقوية عددها في البلاد، وقد اعترف بهذا المعنى بعض الدول فعلى سبيل المثال حددت حكومة الصين التي يتشابه فيها الوضع السكاني بالوضع السكاني في الهند عدد المواليد للأكثرية من سكانها وهم كفار الصينيين المسمون بالخان بطفل واحد وحيد، واستثنت من ذلك الأقليات القومية، ومنهم المسلمون فسمحت لهم بولدين بدلاً من ولد واحد لكونهم من الأقليات التي تسعى إلى تدعيم وجودها.

ونعود إلى ذكر المائدة فنقول: إن الأخوة أحضروا مقادير كبيرة من أنواع عديدة من الفاكهة منها عنب خالٍ من البزر وفاكهة عرفناها في ماليزيا وتسمى هناك (رامبوتان) ومعناه: الشعري لأن على قشرها زغباً يشبه الشعر، واليوسفي أو المندرين والتفاح والبخارى- بفتح الراء- والظاهر أنه نوع من الإجاص.

وكذلك فاكهة الهند المذكورة بل الموصوفة المشهورة وهي الأنبة، كما يلفظون بها أو الأنبج كما يكتبونها في بعض كتبهم، وهي التي عرفناها في بلادنا باسم (المانقو) مع أن أسلافنا العرب الأقدمين قد عرفوها باسم (أنبا) وذكرها بعض أهل المعاجم اللغوية بهذا الاسم.

وهي مما يذكره أهل الهند من فاكهة بلادهم الجيدة، ولذلك قال شاعرهم:

إن كنت تبغى أفضل اللذات فعليك-صاح-(بأنبه) الثمرات
من حسن مرآى، في نباهة سيرة في لطف ذات في سموٍّ صفات
من طعمها في كل قلبٍ شهوة فكأنها مجموعة الشهوات

مقر شركة تكرير السكر:

انتهى الغداء وما دار حوله من أحاديث مفيدة مع الإخوة العلماء النبهاء ومنهم واحد من الإخوة تبين لي أنه اطلع على كتاب العلامة البيروني عن الهند الذي عنوانه: (تحقيق ما للهند من مقولة، مقبولة في العقل أو مرذولة) وذكر لي أن الذي رأه فيه مما حكاه البيروني عن الهنادكة في ذلك الوقت صحيح، وزاد ما عرفته من قبل وذكرته في بعض كتبي عن الهند وهو أن البيروني ذكر في كتابه عن أمور الهند ما لم يذكر غيره، بمعنى أنه لو لا كتابه لما دوّنه أحد، ولصار نسياً منسياً، مثله في ذلك مثل ابن بطوطة الذي وصل إلى الهند بعد ثلاثة قرون وسجل في رحلته عنها أشياء لم يذكرها غيره.

وكان الإخوة حصلوا على إذن من شركة تكرير السكر بأن أقيم في استراحة لهم واسعة جيدة لمدة يوم أو يومين، بأن خصصوا خمس غرف فيها لهم، أي للقائمين على الندوة إحداها مكيفة تكون لي وحدي والأربع الباقية فيها مراوح بدون مكيفات، وذلك كله بالمجان مجاملة من الشركة للقائمين على هذا الاجتماع الحاشد.

غادرنا مكان الاستراحة في مصنع تقشير الأرز إلى الاستراحة في مصنع تكرير السكر الذي يبعد عن الأول عشرة كيلومترات وهي مسافة قصيرة في بلادنا غير أنها لا تعتبر كذلك في الهند لسوء حالة الطرق وكثرة العوائق فيها من الدواب والحيوان.

كانت غرفتي في استراحة شركة السكر في الطابق الثاني واسعة مكيفة فيها سريران وحمام واسع وخزانة كبيرة وهي هادئة ومريحة، وأذكر أنه كانت معي حقيبتي اليدوية وفيها ما هو عزيز لديَّ من نقود وأوراق، ولم أكن أغلقت باب الغرفة من الداخل فلم أشعر وأنا بين النائم واليقظان إلاَّ بالخادم الهندوكي يقتحم عليَّ الغرفة بدون أي نوع من أنواع الاستئذان مثل قرع خفيف على الباب أو حتى التريث في فتحه أو مثل النحنحة أو إثبات الوجود، وقد أردت أن أوبخه على ذلك إلا أنني ذكرت ما أورده الإمام البيروني في كتابه الذي سبقت الإشارة إليه قريباً من أن أهل الهند اعتادوا على أن يدخل الواحد منهم عليك بدون استئذان ولا يخرج من عندك إلا باستئذان.

وقد أذنت للعامل بالفعل، بل إنني أخرجته إخراجاً ثم أقفلت باب الغرفة ورحت في نوم عميق.

لقد ذكرني اللبث في هذه الاستراحة التي تتبع شركة لغير المسلمين ما صنعه أهل دربنقها في بيهار عندما زرناهم في عام ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م ولم يكن في بلدتهم فندق فانزلوني في دار الضيافة الحكومية التي هي مخصصة لكبار موظفي الدولة الذين يأتون بمهمات رسمية حكومية، مع أنها ليست للمسلمين ولكن غير المسلمين يحترمون المسلمين الضيوف في العادة، وأذكر أنني هذا اليوم في استراحة شركة تقشير الأرز وهي مملوكة للمسلمين ولكن في العاملين فيها من هم من غير المسلمين أنهم كانوا يشيرون إليّ بعلامة الاحترام عندهم وهي ضم الكفين مبسوطتين وجعلهما أمام الوجه، وهذه أيضاً علامة التعبد لأصنامهم،وذلك شبيه بما يفعله أهل تايلند البوذيون أيضاً.

وعندما صحوت من نومي كانت الشمس قد أوشكت على المغيب، ولم يأت الإخوة الذين ذكروا أنهم سيقيمون في المعهد مهرجاناً احتفالياً ساهراً يستمر حتى الثانية والنصف بعد منتصف الليل، ومن أهم الفقرات فيه كما قالوا خطاب مطول لي يتضمن الحديث عن واقع المسلمين في العالم، وما ينبغي أن يكون عليه المسلم.

العودة إلى مصنع الأرز:

الاجتماع الذي جئت إليه عنوانه (التصوف في الميزان) فهو ندوة ولكنهم خصصوا جزءاً منه للاجتماعات العامة الحاشدة لأنهم قدم إليهم عشرات الألوف بشاحنات رأيت بعضها قد ملأ الشوارع، وأهل بلدة (ريشا) قد جاءوا كلهم تقريباً مع العلم بأنهم ذكروا أن عدد سكانها وضواحيها يبلغ مائة ألف نسمة.



جانب من السرادق الكبير للاجتماع الليلي في المعهد السلفي في ريشا

وقد أقاموا سرادقاً ضخماً لهذا الغرض زينوا ممراته بشرائط ذهبية زاهية، لقد عاد إليَّ الإخوة قبل التاسعة فعدت معهم إلى استراحة شركة تقشير الأرز وذكروا أن موعد افتتاح المهرجان الليلي قد تأخر ولذلك يمكننا أن نطلع على عمل مصنع تقشير الأرز هذا الذي يملكه إخوة مسلمون.

رأيت العمل فيه مستمراً بنشاط في جميع أقسامه في هذا الوقت من الليل، وأخبروني أن العمل فيه يستمر ٢٤ ساعة في أوقات حصاد الأرز أو موسم إدراك الأرز مثل هذا الوقت فيتناوب العمال فيه العمل من دون توقف.

أخبرنا ونحن ندخل إلى المصنع أنه واحد من ٣٦ مصنعاً للمسلمين في (ريشا) هذه لتقشير الأرز وتنقيته وتعبئته وبيعه جاهزاً للتصدير لشركات تصدره لأنحاء العالم.

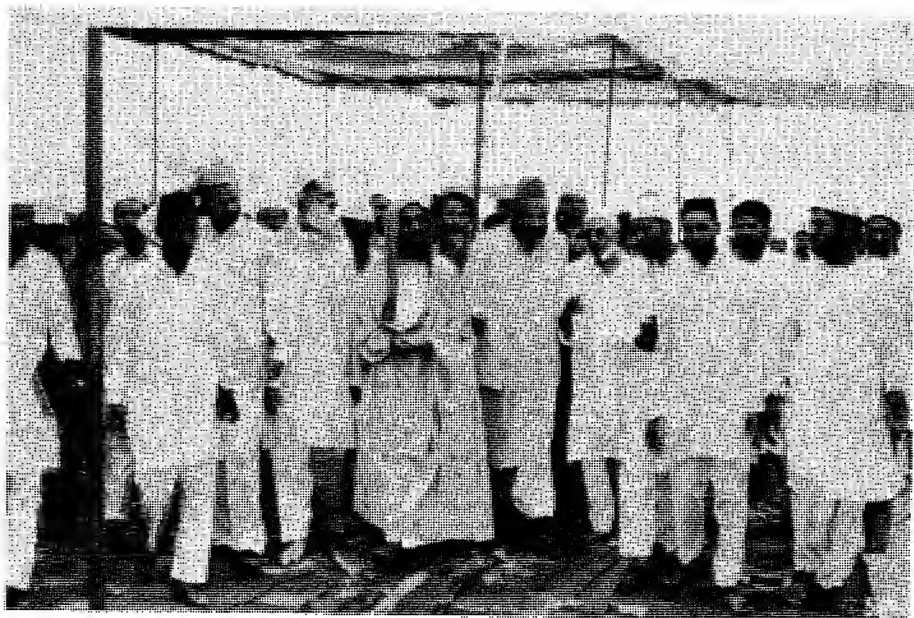
ومن الطريف أننا عندما قربنا من المصنع مع الإخوة بادر سرب من البط الأبيض الكبير بإطلاق صيحات التحذير المميزة، وقال أهل المصنع وكلهم مسلمون: إننا نكره وجود كلاب الحراسة عندنا، لذلك جعلنا هذا البط مكانها فهو ينبه بصيحاته كلما اقترب غريب من المكان، وإن كان لا يهاجمه، وقد ذكرني اتخاذهم البط بما لاحظته في منطقة القوقاز حيث تختلط قرى المسلمين من سكان البلاد الأصلاء، بقرى الروس المهجرين من الكفار فلا يعرف المرء أهل القرية من مظهر قريتهم، لاسيما إذا كانت صغيرة إلا بوجود البط الكثير في قرى المسلمين ووجود الخنازير في قرى الكفار.

دخلنا المصنع فوجدته يعمل على أشده وأروني الأرز بقشوره، وهم يضعونه في جهة من المصنع ثم أروني في نهاية المطاف كيف يخرج

الأرز مقشراً نظيفاً، بل إنهم بعد ذلك يلمعونه فيكون جميل المنظر ثم يعبونه في أكياس مناسبة، كل ذلك يتم بطريقة آلية لا دخل للعمل اليدوي فيها إلا بالمراقبة، وقد شغل المصنع مبنى بل عدة مبانٍ متصلة واسعة.

وأروني الأرز الذي أنجزوا تنقيته في أكياسه، وقد كتبوا عليه العلامة (الماركة) وأنها ماركة (أبابيل) وقالوا: نحن نبيع الأرز صافياً لشركات التصدير التي قد تكون لغير المسلمين وهي تتصرف فيه بأن تختلط الجيد منه في بعض الأحيان بقليل من الرديء ويصدرونه إلى البلدان العربية، ونحن لسنا نعمل في التصدير وإنما نشتري الأرز من الفلاحين ومن الشركات التي تجمعه غير نقي.

العودة إلى المهرجان:



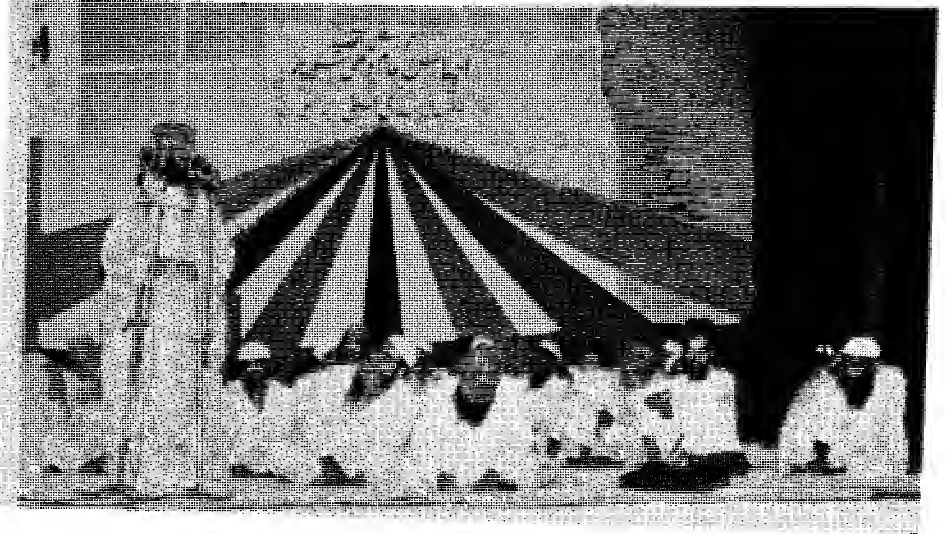
في سرادق المهرجان الليلي في ريشا

عدنا إلى مقر المعهد السلفي حيث سيقام مهرجان خطابي ضخم فيه، فمررنا بمدرسة لجماعة (البريلليويين) يسموها (مدرسة فيض الرسول) اشترى الإخوة أرضاً بجانبها لتكون للمعهد سكناً لطلابه الغرباء الذين يعيشون في داخل المعهد ودفعوا ثمنها من تبرعات أهل الخير المحسنين من أهل المنطقة، ولم يتسلموا من خارج المنطقة شيئاً، وذلك جرياً على عادة حميدة عند إخواننا أهل الهند بأن يتبرع الأثرياء وذووا المال للجمعيات الخيرية وعلى رأسها المعاهد الإسلامية، وما من ثري إلا ويكون له مشروع خيري ينفق عليه أو يسهم في إنفاقه، وقد ضربوا مثلاً على ذلك بالشيخ الحاج عبدالله، وقد جهدت في أن يذكروا لي اسمه كاملاً أكثر من ذلك فلم يعرفوه لأنه شخص معروف بل مشهور باسمه وقد استقبلنا مشكوراً في مدينة بريللي وكان معنا طيلة الاجتماع، قالوا: هو شخص ثري يملك مصنعاً لتقشير الأرز وينفق من دخله على المعهد نفقة سخية، بل وعلى غيره من المشروعات الخيرية.

وهذا ما جعلني أقول في بعض المناسبات لإخواننا العرب وغيرهم: إن عليهم أن يقتدوا بالمسلمين من أهل الهند في الإنفاق على المشروعات الخيرية أو تبني واحد أو أكثر منها.

كانت أنوار المعهد ساطعة، وكانت التزيينات بالأضواء في كل مكان مما جعلني أشفق من أن تنقطع الكهرباء عنه بسبب كثرة الصرف من الكهرباء فأخبرني أهل المنطقة أن خوفي من ذلك في محله في الأوقات المعتادة لأن الكهرباء حسب ما قررته سلطة الكهرباء تنقطع بصفة دورية مبرمجة، عن المنطقة ٨ ساعات في اليوم والليلة ولكنهم اتفقوا مع شركة الكهرباء على أن يستمر وجودها بقوة طيلة أيام الاجتماعات وإن تزيد قوتها لهم، قالوا: وقد دفعنا لذلك نقوداً واستعملنا نفوذنا في المنطقة عند الشركة فوافقت على ذلك، ولذلك لا خوف من انقطاعها الآن.

وأقاموا السرادق ومخيماً بجانبه واسعاً في بهو المعهد الواسع المكشوف ورأيت الناس فيه قد جلسوا الآن على أرضه المفروشة بالسجاد والبسط ولا يزال أناس منهم يدخلون وقد أحضروا صبيانهم معهم لأنهم أحضروا نساءهم أيضاً ولكنهم خصصوا لهن سرادقاً ومخيماً بجانب مخيم الرجال مفصولاً بينه وبين سرادق الرجال بحاجز من القماش، بحيث لا يرين الرجال ولا يرى الرجال حتى أشخاصهن، ولكنهن يسمعن ما يلقى من خطب وكلمات، وذلك على خلاف ما كان عليه الحال في النهار حيث كانوا أقاموا لهن مخيماً منفرداً جعلوا فيه بعض الأخوات المحاضرات يتوجهن بخطاباتهن للنساء ويناقشن معهن ما يردن نقاشه وقد خصصوا- جزاهم الله خيرا- لي كرسياً في وسط المنصة الرئيسية وبجانبه كرسيان أو ثلاثة لعدد من كبار الضيوف، أما وجهاء البلدة والمنطقة، فقد جلسوا على أرض المنصة الرئيسية الأمامية التي تسمى منصة الشرف.



المؤلف يلقي كلمته من المنصة الرئيسية
في المهرجان الثقافي الليلي الذي أقامه المعهد الإسلامي في رشا

وقد ألقيت خطاباً مرتجلاً في هذه الجموع الحاشدة أصغوا إليه باهتمام وانتباه، وذلك أنني تطرقت فيه إلى أشياء مهمة ربما كانوا يسمعون بعضها لأول مرة منها ما هو متعلق بدلائل النبوة حيث وقع ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم وعرفه الناس في هذا العصر ولم يعرفوه قبل ذلك، وبينت لهم أن الإسلام ينتشر الآن ولله الحمد في أنحاء المعمورة.

والغريب أنه كان بين الحاضرين أعداد من الشبان والصبيان فلم يقلقوا ولم يتحركوا من أماكنهم وإنما اقتصر الأمر بالنسبة إليهم على كونهم يتمددون بمعنى يستلقون إذا تعبوا من الجلوس لأنهم جالسون على غير كراس، وحتى كبار السن كانوا يمددون أرجلهم إذا تعبوا من الجلوس.

وهذا نص الكلمة- كما أستخرجها أحد الإخوة من المسجل دون ترجمتها- بطبيعة الحال إلى الأوردية:

أيها الإخوة:

لو رأى إخوانكم في مكة المكرمة والمدينة المنورة ما أراه الآن من هذه الوجوه الطيبة الطاهرة لسروا سروراً عظيماً، واعتبروه يوماً تاريخياً يحدث به الآباءُ أبناءهم، إنكم لم تجتمعوا لأمر دنيوي ولم تحبوا إخوانكم القادمين إلى هذا الاجتماع لمصالح شخصية، ولكن لمحبتكم في دينكم ولمحبتكم بما يقربكم عند الله زلفى.

أيها الإخوة الكرام! أريد أن أشير إلى نقطة مهمة حدثت في هذا الزمان وربما كانت الآية القرآنية الكريمة تشير إليها أقول: ربما- وهي قوله تعالى ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقّ**﴾ (فصلت: الآية ٥٣).

وكثير من النصوص القرآنية والنصوص من السنة المطهرة لم يظهر تفسيرها إلا في هذا الزمان مثلاً روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم ما معناه (لا تقوم الساعة حتى تهجر القلاص) والقلاص جمع القلوص وهي الناقة، والمراد من الحديث حتى تهجر الإبل، قال الإمام النووي في شرح صحيح مسلم: هذا الحديث ليس على ظاهره لأنه إذا تركت الإبل فعلى ما يحج الناس؟ وكيف يغزون، وإنما المراد كما قال الإمام النووي أن الإبل تكثر حتى يستغنى الناس ببعضها عن بعض فيكتفون ببعضها عن بعض وهذا معنى الترك، وهذا الذي أدّاه إليه اجتهاده في الشرح.

لكن نحن الآن نرى أن الإبل قد تركت في بلاد الإبل في بلاد الجزيرة العربية، الإبل لا تستعمل الآن لشيء- لماذا لأن الله سبحانه وتعالى قد أبدل الناس بها السيارات والطيارات والقطارات، فربما يكون بعد ذلك شيء آخر كما قال الله تعالى: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ (النحل:٨).

وقوله تعالى: ﴿**وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ ربما يدل على أن المراد بذلك يخلق ما لا تعلمون من المركوبات، وإن كانت الآية عامة لأنه سبحانه وتعالى خلق بما نشاهد نحن اليوم في هذا الزمان ما لم يره الناس من قبل.

وورد حديث آخر رواه الإمام الحاكم في مستدركه، وقد قرأت نصه في الطبعة التي طبعتها دائرة المعارف العثمانية في حيدر آباد، الحديث ما معناه (إذا خرج الدجال صاح صيحة في المشرق يسمعها من في المغرب وصاح صيحة في المغرب يسمعها من في المشرق.؟

كيف يكون هذا؟ وكيف يفهمه الناس في ذلك الوقت نحن نرى الآن أن الدجال وغير الدجال إذا صاح صيحة في المشرق في الإذاعة والتلفاز، بل إذا تنفس يسمعها من في المغرب أليس هذا من المعجزات؟ أليس هذا من دلائل النبوة؟ ثم نحن نرى أن العلوم الحديثة قد أثبتت سعة هذا الكون الذي خلقه الله ففي الحديث:

إنَ أدنى أهل الجنة منزلة يوم القيامة من يكون له مثل الدنيا أو ما هذا معناه، كيف يفهم المسلم هذا في ذلك الوقت القديم؟

يقول الله تعالى: **﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾** ثم إن كثيراً من أعداء الإسلام الذين يتهمون الدين الإسلامي كانوا يقولون كيف يكون اللوح المحفوظ؟ كيف يكفي لهذه المخلوقات منذ أن وجد الإنسان إلى الآن؟ كيف يستطيع اللوح المحفوظ أنه يحتوي أعمال الناس؟ وبعض الملحدين يتخذ من هذه وسيلة إلى الطعن في الإسلام، لكن نحن نقول له: الآن رأيت المشاهد أنظر إلى ما يسمى الآن بالكمبيوتر أو بالعربية الحاسب الآلي تجد أن في أمريكا حاسباً آلياً واحداً فيه ملايين الملايين من أعمال الأمريكيين.

نحن لا نقول إن اللوح المحفوظ مثل الكمبيوتر، حاشا وكلا، ولكن نقول: إنه إذا وجدت آلة مخلوقة صنعها مخلوق، والله خلقكم وما تعملون وفيها هذا الأمر المعجز يعني العجيب، كيف يكون ما صنع الخالق سبحانه وتعالى؟ إن عند الله من العلم ما لم يخطر ببال بشر.

وكل واحد منا يعلم أن له روحاً حتى الملحدين يعرفون أن لهم أرواحاً **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ**

الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الإسراء: الآية ٨٥) أنظر إلى قول الله تعالى: **﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾** وهذا في غاية الإبهام، ولكن المراد أنه أمر من أمر الله لم يطلع الله الناس على حقيقته ولذلك قال: **﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾** .

ونحن نرى بني آدم كل يوم يعلمون علماً جديداً ومع ذلك العلم عند الله كثير **﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾**.

لذلك نرى أن هذا الوقت هو وقت التدين بالدين الصحيح، هذا الوقت هو وقت الدعوة الإسلامية بالحكمة وبالموعظة الحسنة وباستعمال الأدوات الجديدة المكتشفة التي لم تعرف إلاّ في هذا الزمان.

أيها الإخوة الكرام ليست الدعوة مقصورة على العلماء وعلى رجال الدعوة، ولكنها واجبة على كل مسلم بقدر طاقته واستعداده، يقول الله سبحانه وتعالى مخاطباً الرسول صلى الله عليه وسلم: **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾** (يوسف: الآية١٠٨)، فكل مسلم متبع لرسول الله، فإن سبيله هو أن يدعو إلى الله على بصيرة، لكن إذا كانت ليست لديه قدرة علمية أو جسدية أو مالية فيدعو بقدر ما يستطيع، والخطاب في القرآن وفي السنة إذا أطلق فإنه يشمل الذكر والأنثى، يشمل المرأة والرجل، والله سبحانه يخاطب المؤمنين والمؤمنات، والمقصود المؤمنات في بعض المواضع لكن كل ما ورد مبهماً أيضاً فهو خاص بالرجل والمرأة.

فالأخت المسلمة عليها واجب أن تبين للناس ما تعرفه من أمور الإسلام عليها واجب أن تبيّن لأطفالها ثم ولدها إذا كبروا، وتبين لجيرانها ولغيرهم، أن الدين الإسلامي هو الدين الحق وهو الدين الذي ظهرت

دلائله في هذا العصر أكثر مما ظهرت في العصور السابقة، الدلائل المحسوسة التي تسمى الدلائل الحسية.

يجب على كل مسلمة أن تكون داعية إلى الله بقدر ما تستطيع، ويجب عليكم أنتم أيها الإخوة أن يحاسب كل واحد منكم نفسه ماذا عمل للدعوة إلى الله؟وماذا يستطيع أن يقدم للدعوة إلى الله؟ إذا كان لا يستطيع أن يقدم العلم لأنه لا يعلم فإنه يستطيع أن يقدم المال، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (من جهز غازياً فقد غزا).

لآن النفقة في سبيل الله من أشرف العبادات، وقد حرض الله سبحانه على الجهاد بالمال والجهاد بالنفس، وقدم سبحانه وتعالى الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في جميع الآيات التي ورد فيها المال مقروناً بالنفس إلا في آية واحدة، وذلك لأهميته، وليس المراد من الجهاد بالمال أنه لابد أن يكون الإنسان غنياً حتى يصرف شيئاً كثيراً، بل إن الله سبحانه وتعالى قال: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ۞ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾** (الزلزلة: الآيات: ٧-٨).

ويروى أن امرأة تصدقت بتمرة وقالت: كم مثقال ذرة في هذه التمرة؟ فلا ينبغي للمرأة أن تحقر شيئاً، أنتم ولله الحمد عندكم مواقع للإنفاق في سبيل الله كثيرة، ومن أهمها هذا المعهد الإسلامي السلفي يجب أن تساعدوه، يجب أن تعاونوه بقدر ما تستطيعون، وأعلموا أن النقود التي تقدمونها الآن سيكون ثوابها عند الله عظيماً، وسيستمر لكم ثوابها.

لأنه له ثواب جميع من تعلموا في هذا المعهد الإسلامي السلفي إلى يوم القيامة ما دام هذا المعهد باقياً من دون أن ينقص ذلك من ثوابهم

شيئاً، ثم أنه يجب علينا جميعاً أن نتخلق بالأخلاق الإسلامية ونكون صادقين منصفين نظيفين ونكون خيراً لجيراننا، ولمن يتعاملون معنا، لماذا؟ لأن الإسلام هكذا يجب أن يقول الناس للمسلم هذا هو المسلم وهذا هو الإسلام الذي جعله في هذه المكانة من الخلق الرشيد، ولا ينبغي أن يقول القائل ماذا نعمل؟ فيجب أن نعمل ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها إذا استطاع خيراً كبيراً عمله، وإن استطاع خيراً قليلاً عمله، وربما عمل قليل إذا صحبته النية الحسنة، وكان جهد المقل، ربما كان خيراً كبيراً أكثر مما يبذله بعض الناس ولو كان مادياً أقل مما يبذله على غني.

أيها الإخوة! أكرر شكري لله سبحانه وتعالى الذي قدر لنا هذا الاجتماع المبارك، وأكرر شكري للقائمين على هذا المعهد الإسلامي السلفي بريشا، وعلى رأسهم أخونا الشيخ الحاج عبدالمالك، وإخوتنا الآخرون المساعدون والعاملون والمدرسون في هذا المعهد، وكذلك أكرر شكري للإخوة الكرام في جمعية أهل الحديث المركزية وعلى رأسهم صاحبنا وصديقنا الشيخ مختار أحمد الندوي أمير جمعية أهل الحديث، وكذلك الشيخ عبدالوهاب الخلجي الأمين العام للجمعية الذين أتاحوا لي هذه الفرصة المباركة الطيبة التي تفوق الأمنية، ولكن الله إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وله الحمد والمنة، ونعدكم أيها الإخوة إن شاء الله بأن ندعو الله في الحرم الشريف لكم جميعاً رجالاً ونساءً الذين حضروا في هذا المجلس، ونسأل الله سبحانه وتعالى أن يجمع قلوبنا على ما يرضيه، وأن يجعل محبتنا خالصة لوجهه الكريم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

العودة إلى مدية بريللي:

غادرت مقرالمهرجان في الثانية عشرة (منتصف الليل) عائداً مع الإخوة بسيارة واحدة إلى مدينة بريللي التي تبعد ٤٦ كيلومْتراً عن مكان الاحتفال في بلدة (ريشا) تاركاً المهرجان يواصل نشاطه الذي ذكروا أنه استمر حتى الثانية والنصف بعد منتصف الليل، وحضره حتى آخر فقراته عشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال.

كانت العودة إلى مدينة (بريللي) سهلة في هذا الوقت من الليل، بسبب اختفاء الحيوان والمشاة من الطريق وقلة مرور السيارات فيه.

وقد وصلناها في الواحدة بعد منتصف الليل، ويذكر أنه لم يشعر أحد من المرافقين ولا غيرهم بالخوف من السير في هذه الساعة المتأخرة من الليل، لأن البلاد آمنة والطرق الهندية في هذه المنطقة لا خوف على من يسلكها.

وودعني الإخوة الذين حضروا معي بالسيارة عائدين إلى (ريشا).

يوم الأحد: ١٩/١/١٤١٨هـ:

البريلليون:

الطائفة المشهورة بالبريلوية، نسبت إلى رئيسهم الذي عاش في مدينة (بريللي) هذه، ولكن النسبة إلى (بريللي) المدينة ليست دقيقة فهناك أقوام وطوائف في مدينة (بريللي) مركز المحافظة وفي المحافظة نفسها ليسوا على مشرب هذه الفرقة، بل هناك أناس فيها يناقضونهم، ويدعون إلى عكس ما يدعون إليه، وهم أهل الحديث على سبيل المثال، ومنهم الذين أقاموا هذا المهرجان وندوة البحث في التصوف التي قدمنا إلى المنطقة من أجلها، ولذلك رأيت أن نسبتهم إلى (بريللي) ليست دقيقة، وبعضهم يسمونهم الفرقة الخرافية البريلوية- نسبة إلى الخرافة التي تناقض الحقيقة، ولكن ما يفعلونه حقيقة واضحة، وليس خرافة من الخرافات، وهم من أكثر أهل الهند ولعاً بالمقبورين وإظهار قبور من يعتقدون فيهم الصلاح، والبناء عليها وأحياناً الخضوع لها، كما هو معروف عنهم، ولا ينافسهم في هذا الأمر المتعلق بالقبور إلا الشيعة بالنسبة إلى رموز قبور أهل بيت الرسول، لذلك كان نعتهم بالقبوريين وتسميتهم به وصفاً صادقاً ليس فيه تجنٍ عليهم، ولا ذكرهم بما ليس فيهم، هذا والتعريف بهم وبيان تاريخهم، وتفصيل أحوالهم مذكور في كتاب العالم السلفي المحدث الأستاذ إحسان إلهي ظهير رئيس جمعية أهل الحديث في باكستان فقد ألف كتاباً حافلاً في بيان ذلك واستشهد عليه بشواهد من كتبهم، وما على من أراد الاستقصاء في أمرهم إلا أن يرجع إلى ذلك الكتاب المطبوع رحم الله مؤلفه.

وقد رأيت أنه ينبغي لي وقد وصلت إلى مدينة (بريللي) حيث منطلق دعوتهم، وقبر زعيمهم أن أزور مقرهم زيادة استطلاع ومعاينة، ولما كان لابد من الحديث مع من يقتضي الأمر أن نتحدث معه منهم، وذلك يكون باللغة الأوردية بطبيعة الحال فقد طلبت من الأخ الشيخ عبدالوهاب الخلجي أن يصحبني في الزيارة على أن نتنكر تنكراً سلبياً لئلا يرانا من لا يعرف اتجاهنا فيظن أننا جئنا إلى قبر زعيمهم من باب الاقتداء بهم أو التقليد لهم، لذلك خلعنا القلانس (الطواقي) التي نلبسها، وعلقت مصورتي في يدي وسرنا مع دليل من أهل المدينة بعد أن أنهينا علاقتنا بالفندق الذي نسكنه.

طريق حضرة الأعلى:

وصلنا شارعاً متفرعاً من الشارع العام الذي يقع في قلب مدينة (بريللي) وإن لم يكن واسعاً السعة المطلوبة فقرأنا لافتة صغيرة على شارع منه مكتوبة بالأوردية ذات الحروف العربية: (راه أعلى حضرت) و(راه) هي طريق ويراد بها هنا: شارع، وأعلى حضرت معناها: حضرة الأعلى، وهو لقب شيخ (البريلوية) وقد سمي هذا الشارع بأسمه واسمه الكامل هو (رضا أحمد خان بريلوي).

دخلنا هذا الشارع الفرعي الذي هو طويل جداً ولكنه ضيق جداً بحيث أن سيارتنا لا تستطيع السير فيه إلا بصعوبة بسبب زحام الدراجات الهوائية والركشاوية وعربات الركشا ذات المحرك وأحياناً السيارات- على قلة- مع مرور كثيف من المشاة.

وقد وقفت السيارة فيه عدة مرات، إذْ عطلها الزحام.

وأكثر من يراهم المرء هنا هم من المسلمين سواء أكانوا من أصحاب الحوانيت التي تقع على هذا الشارع أو من المارة مع وجود طائفة من أهل البلاد الهنادك لا يخطئها النظر.

وأكثر ما يلفت الانتباه هو الحجاب غير الكامل على النساء وهو الذي يستر كل البدن ما عدا الوجه والكفين، وبياض نسبي على بعض الوجوه وبخاصة وجوه المسلمات سببه عدم بروزهن للشمس مثلما تفعل الهندوكيات.

وعجبت من كثرة الدراجات النارية التي كثيراً ما يكون على الواحدة منها أكثر من راكب مثل واحدة عليها أسرة بكاملها مؤلفة من الأب وهو السائق والأم وطفلين وعلى جانبي الشارع مجاري المياه المستعملة على هيئة قناة ضيقة مفعمة بالمياه، مياهها تسير بانتظام مبعدة عن الشارع.

مررنا بلافتة تقول: جامعة رضوية.. وهي منسوبة إلى رضا أحمد خان شيخ البريلوية.

كما مررنا بزقاق مكتوب عليه اسمه: منظر إسلام رضا نقر، ونقر: معناها: حي أو محل.

وصلنا إلى زقاق ضيق، أفضى إلى زقاق أضيق منه فوجدنا فيه مقبرة الشيخ (رضا أحمد خان بريلوي) وابنيه، وذلك في بناء أشبه بالمنزل الواسع عندما وصلناه استرعى انتباهنا شيئان أولهما: رجل خرج بطفل له صغير مريض يحمله بين يديه كأنه جاء به إلى قبر (البريلوي) استشفاءً، ورجل مريض هزيل أيضاً منظره كذلك وإن لم يذكر لنا أحد قصته.

ورجل أمرنا عندما أردنا دخول البيت أن نخلع نعالنا في الخارج أي عند مدخل البيت مما يلي الزقاق،وقد صدعنا بالأمر، وخلعنا أحذيتنا

كما يفعل من يدخل إلى المسجد، وذلك لمجرد عدم الخلاف مع هؤلاء القوم- سرنا بعد الدخول في ممر قصير أفضى إلى المقبرة حيث وجدنا بهواً واسعاً معتنى به فيه قبر الشيخ البريلوي وابنيه أحدهما اسمه (محمد مصطفى رضا خان) وقبره على يمين قبر الشيخ، والثاني (محمد ريحان رضا خان) وهو على يسار قبر الشيخ.

ولاحظت قلة الموجودين عند القبر رغم احتفائهم به، وملاحظتهم لنظافته والعناية به، ومن ذلك أنهم نثروا زهوراً وردية كثيرة على قبر الشيخ وعلى القبور الثلاثة في بناء فخم عالٍ وسط رواق واسع معتنى به.

ورأينا بعض طلبة العلم أظنهم اثنين أو ثلاثة يطالعون في كتاب وهم يتجهون لقبر الشيخ وامرأة تتجه إلى القبر بخشوع.

كما رأيتهم يفعلون عندها ما يفعلون عند قبر نظام الدين في دلهي، وذلك بكونهم لا يستدبرون القبر عندما يريدون الخروج منه، والابتعاد عنه فيظلون يسيرون القهقرى حذراً أن يولوه ظهورهم احتراماً له، وفوق القبر قبة كبيرة مزينة بكتابات عربية ولوحات عديدة.

وبينما كنا نتأمل القبر وما حوله دخل رجل زيه زي طلبة العلم سألناه عن اسمه فقال: (محمد شاهد نوري) قال لنا وقد رآنا ليس على رؤوسنا شيء: لماذا لا تضعون على رؤوسكم شيئاً وكنا ثلاثة، فقلنا: إننا تخففنا منها فنادى فتى وكلمه بشيء لم نسمعه، وقلنا له: متى توفي الشيخ فأشار إلى لوحة هناك، وإذا بها عليها تاريخ وفاته في عام ١٩٠٢م.

ونظرنا إلى تاريخ الفراغ من بناء القبة التي على القبر والأبنية الأخرى وقد كتبوا عليها أنها بنيت قبل خمس عشرة سنة، فقلت له: إن

هذا يدل على أنها بنيت بعد وفاة الشيخ بزمن طويل، فقال: هذا صحيح، قلت: وهذا يدل على أن الشيخ ربما لا يكون علم أنه سيبنى فوق قبره قبة، فهل تعتقد أنه يرضى بهذا المبنى الذي منه القبة على قبره؟ فقال: أعتقد أنه لا يرضى بذلك.

وقد سنحت الفرصة للبحث معه في بعض الأمور غير أن الفتى الذي كان قد تكلم الرجل معه بشيء عاد ومعه ثلاث قلانس (طواقي) فأعطانا إياها وأمرنا أن يضع كل واحد منها واحدة على رأسه احتراماً للشيخ- كما قال- فقلت له: إنه لا حاجة لذلك.

وهنا غضب غضباً شديداً، وقال: كيف لا تحترمون الشيخ؟ فتدخلون عليه ورؤوسكم حاسرة؟ وقد احتد إلى درجة أنه لم يستطع أن يبادلنا الكلام وقطع ما بيننا وبينه من حوار.

والمفجع أننا عندما فرغنا من تأمل المكان وهو واقف لا يتكلم مددت إليه يدي بصفة آلية مثلما يفعل من يمد يده إلى من كان معه في مكان عندما يريد أن يغادره فقبض يده، ولم يصافحني.

وذلك من أجل عدم احترام الشيخ كما يقول.

أما نحن فإننا لم نفهم أن يكون رجل مات قبل ٩٥ سنة يغضب أو يهان إذا دخل شخص المكان الذي قبر فيه حاسر الرأس.

وقلت في نفسي: لو كان هذا الشيخ حياً سوياً لما احتشمنا منه إلى درجة أن نغطي رؤوسنا إذا رأيناه فكيف به وهو ميت قد اشتغل بما قدمه من عمل عن مثل هذه الأمور.

وعندما امتنع الرجل عن مصافحتنا تركناه وخرجنا من المقبرة إلى الزقاق الضيق الذي يقع عليه مدخلها، وذلك الرجل يتبعنا على بعد فوجدنا في الزقاق مكتبة حافلة بالكتب ومعها تمائم و تعاويذ تباع على الذين يحضرون إلى القبر، فطلبنا من البائع في المكتبة أن يعطينا كتاباً عن الشيخ (البريلوي) يكون بالعربية أو الإنكليزية، فذكر أنه لا يوجد عنده شيء عنه بالعربية، وإنما أكثر الكتب هي بالأوردية وذلك ظاهر ماعدا كتاباً واحداً بالإنكليزية اشتريناه منه.

لقد حزنت لهذه البدعة التي يعظمونها وينكرون على من يزعمون أنه ينتقصها وهي بدعة البناء على هذه القبور التي هم عندها عاكفون كما رأيتهم اليوم، وكما عرف عن عامتهم في غير هذا المكان.

ورأينا الزقاق الضيق قد زينوه بأشرطة ملونة من أشرطة لا أدري لأية مناسبة وضعوها إلا أن يكون ذلك لمناسبة رأس السنة الهجرية.

ومثلما أنه توجد في سماء الزقاق أشرطة ملونة بهيجة فإنه يوجد في أرضه مما يلي الحيطان قناة المجاري للمياه المستعملة ولكنها أضيق من تلك القناة الموجودة في الشارع المسمى (راه أعلى حضرت).

عاد الرجل الذي لم تكن معاملته كريمة، بل لم يكن فيها شيء من الكرم لأنه يعلم أننا غرباء، وقد جئنا للإطلاع والمعرفة، فكان أولى به ألا يعاملنا بمثل هذه المعاملة وواصلنا التجوال في الأزقة الضيقة القريبة من المقبرة فرأينا مركز البريلوية فيها عليه لافتة "ضخمة مكتوبة بالأوردية ذات الحروف العربية، وأخرى عليها كتابة بالأوردية نصها الذي يفهم منه المقصود بالعربية هو (دار الإفتاء نوري رضوي قطب

عالم مفتٍ أعظم مولانا مصطفى رضا خان رحمه الله)، بنى على ذكراه.. وذلك أن ابنه محمد ريحان هو الذي بنى هذه الدار وجعلها داراً للإفتاء لذكرى أخيه (مصطفى رضا خان).

ولم نحاول دخول هذه الدار حذراً مما لقيناه عند القبر، كما أننا لم نجد على بابها ما يدل على أنها مفتوحة، وإلا فإنها نظيفة معتنى بمظهرها رغم كون الزقاق الذي تقع فيه بعكس ذلك فهو غير نظيف.

مغادرة المدينة:

عدنا إلى سيارتنا في الشارع الطويل الضيق (راه أعلى حضرت) فكان السير فيه مرهقاً حتى أشفقت من أن يخرج سائقنا سالماً منه دون أن يصيب أحداً أو يصيبه أحد.

وذلك أن الشارع ضيق منذ تأسيسه قبل أن تكثر السيارات والمركبات ويزيد سكان المدينة، وقد استمر على ذلك دون توسعة وعناية به بحجة عدم الإمكانات المالية، وهي حجة واضحة في ظاهرها ولكنها غير صحيحة في واقع الأمر، لأن الدولة من واجبها رعاية المرافق العامة كالشوارع والميادين،وألا تنتظر بها حتى تعجز عن استيعاب المارة بها أو تكاد كما هو حاصل الآن.

إضافة إلى أن أي صاحب سيارة أو مركبة يفضل أن يدفع رسماً تافهاً على أن يتعطل في سيره، أو يصاب بأذى في مركبته جراء الزحام.

وقلت في نفسي: ألا يصح أن يقال في حقهم ما قاله أحد الظرفاء من سكان بريدة وهو (الحمدلله على الفقر وقل الدراهم) وقل الدراهم: قلتها عنده.

وذلك أن أهل هذه المدينة وأشباهها من المدن الهندية لو فرض أنهم أصابوا حظاً من الغنى فجأة فإن معنى ذلك أن توجد عندهم سيارات ومركبات إضافية ومعنى هذا أنهم لا يستطيعون التحرك في شوارع مدنهم ذات الشوارع الضيقة التي تضيق الآن بمرورهم.

ومررنا بقبر عليه بناء مجدد وبجانبه قوس ومناراتان اصطناعيتان ذكروا أنهم أقاموه احتفالاً بالقبر والدفين فيه وأنهم يسمون مثله (عُرساً) بمعنى الاحتفال.

وعندما أفلتنا من زحام المرور في داخل المدينة وقف أصحابنا بالسيارة عند مقصف يبيع الأشربة الباردة في شارع عام يسمى (نانتال رود) بمعنى الطريق إلى (نانتال) وهو مصيف مشهور عندهم يقع في مكان جبلي مرتفع، والتقطت صورة له.

وقبر العروس:

والأقرب لأذهان قرائنا الكرام أن نكتبها (العريس) لأن العامة في البلدان العربية اصطلحوا على أن كلمة عروس تعني الرجل الزوج وعروس تعني الزوجة غير أنها في الفصحى تستعمل أيضاً للرجل.

وقبر العروس أو العريس بلغة العامة هو قبر عليه بناء يسمونه (دولها شاه ميان) ودولها معناها: عريس، وشاه: ملك- بكسر اللام، ذكروا أنهم لا يعرفون من أمره إلا أنه مات قبل أن يتم زواجه، وقال أحد الإخوة: ربما كان أحد الصوفية فقد قبر وحده وبنى عليه القبوريون بناء صار يزار ويتبرك به.

وفي ضواحي المدينة وقفنا قليلاً مع غيرنا من السيارات في انتظار قطار يمر في طريقه الذي يعترض طريق السيارات.

وبعده كان الزحام بالغاً وكانت أبواق السيارات الصغيرة وعربات الركشا ذات المحرك تزعج الراكبين والراجلين.

ومررنا بحفرة من الحفر الكبيرة المنتشرة في أكثر الولايات الهندية وهي التي تحفر في الأصل من أجل أن يجتمع فيها الماء في موسم الامطار، ثم يبقى فيها الماء ينتفع به الناس والدواب حتى يحين موعد الأمطار فتمتلي يمنعها من الجفاف قرب مستوى الماء في جوف الأرض وتكرار مواسم المطر، ولكنها تكون في العادة كدرة متغيرة اللون، وقد رأيت واحدة منها رمادية اللون في منطقة رمادية التربة لذلك صار لونها رمادياً، وفيها جواميس رمادية اللون أيضاً، كأنما أجسامها مغبرَّة مع أن الماء ليس فيه غبار.

ثم مررنا بمستنقع يزرع فيه الأرز فيه فلاحون شديدو السمرة حتى تكاد تصل بهم السمرة إلى لون الرماد.

وذكروا أن هذه المنطقة ليس فيها نهر وإنما فيها مياه جوفية غزيرة بحيث أن كثيراً من الناس يكتفون بحفر بئر ارتوازية تكفي للري في أوقات الجفاف.

العودة إلى (ريشا):

وصلنا(ريشا) عائدين إليها من مدينة (بريللي) في الساعة الواحدة فقصدنا المعهد السلفي في جولة على أقسامه، وصلينا الظهر والعصر جمعاً في مسجده الواسع النظيف.

وضع حجر الأساس:

كان البرنامج يشتمل على الاحتفال بوضع حجر الأساس لبناء فصول جديدة للمعهد السلفي زيادة على الفصول الموجودة، وذلك لكثرة الطلاب وضيق الفصول الحالية عن استيعابهم.

وجدتهم أعدوا لبناً من الآجر، وخلطة من الأسمنت فبدأت بوضع اللبنات ثم وضعت بعض الأسمنت عليها قائلاً: بسم الله وعلى بركة الله، والحمد لله الذي يسر البدء بهذا المبنى المبارك بإذن الله نسأل الله تعالى أن يعين إخواننا الكرام على إتمامه، وأن ينفع به المسلمين في هذه البلاد.



عند وضع حجر الأساس في المعهد السلفي

ثم أخذ وجهاء القوم يضعون بعدي شيئاً في ذلك الأساس، وقد جعلوا وضع حجر الأساس في البرنامج انطلاقاً مما ذكروه من وصفهم

لي بأنني الضيف القادم من الحرم الشريف، ومن أجل شيء آخر لم يذكروه وهو أن أكون شاهداً على البدء في المشروع حتى إذا احتاج إلى مساعدة من الرابطة أو غيرها على إتمامه ساعدهم ذلك.

وقد استكملنا الطواف على المعهد بطابقيه وأعجبني ما رأيته فيه من عناية ومنها أنهم خصصوا مساكن أسمنتية صغيرة للمدرسين وأسرهم في جانب من المعهد، إضافة إلى مساكن للطلبة الذين يعيشون داخل المعهد حيث يسكنون ويأكلون ويتعلمون، وأرونا مطبخاً واسعاً يعد وجبة الغداء للطلبة.

مسجد أهل الحديث:

غادرنا المعهد السلفي متجهين إلى داخل بلدة ريشا فزرنا مسجد أهل الحديث في منطقة من المدينة تعتبر ضاحية إلا أنها بازقتها الضيقة ولة النظافة فيها تبدو كوسط قديم مهمل.

زرنا فيها المسجد الذي ليس فيه مدرسة وإنما تقع في جانبه المدرسة السلفية المحمدية وهي مدرسة جيدة، ومما يجدر ذكره أن في مدينة (ريشا) ١٨ مسجداً ٦ منها لأهل الحديث، و ١٢ للبريلويين، وكلية المدينة المنورة للبنات.

غير بعيد من المسجد تقع (كلية المدينة المنورة للبنات) وهي مدرسة واسعة المبنى جيدة الاستعداد تضم (٣٠٠) طالبة يدرسن فيها من دون أن يسكن،وذلك لأنهن من بنات هذه البلدة المسلمة اللائي يمكنهن الحضور إلى المدرسة والانصراف بعد الدراسة إلى منازلهن دون مشقة.

وذلك خلاف طلاب المدرسة المحمدية السلفية حيث يعيش بعض

الطلاب فيها من الذين يأتون من أماكن بعيدة وعددهم ١٧٥ طالباً وهؤلاء هم الذين يعيشون داخل المدرسة.



في كلية المدينة المنورة للبنات

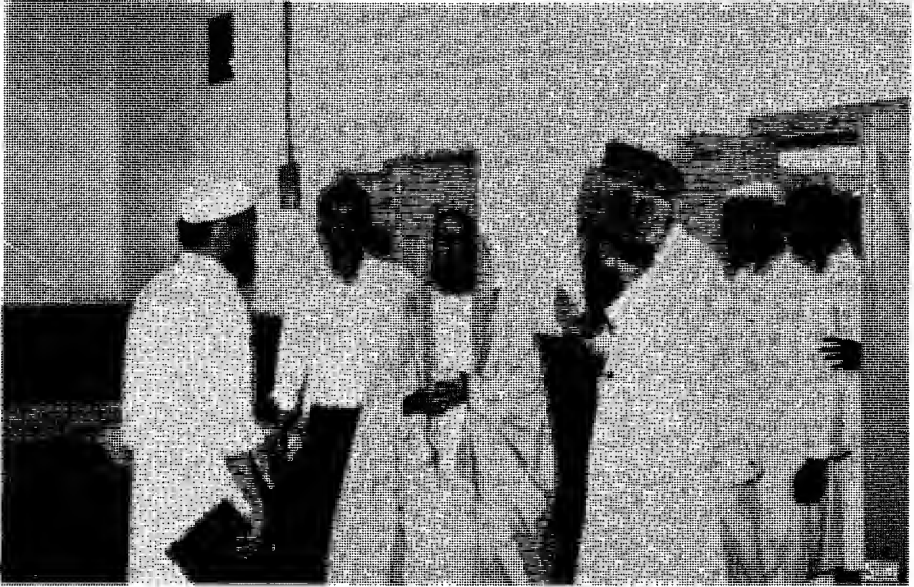
وهذا من العجب العجاب من أمر إخواننا المسلمين في الهند كيف يستطيعون إيجاد هذه المؤسسات الخيرية ثم تسييرها على الوجه المطلوب لهم لسنوات عديدة، مع أنها كلها قائمة على التبرعات.

وتتألف كلية المدينة المنورة للبنات من ثلاث طبقات مبنية بالأسـمنت المسلح القوي ويطل عليها مسجد أهل الحديث ببنائه الشامخ الجيد أيضاً.

ثم عدنا مع أزقة البلدة في هذه الضاحية التي هي ضـيقة مـع أن القياس أن لا تكون كذلك لأنها ضاحية قريبـة مـن الخـلاء والأرض الفارغة حولها واسعة.

ونزلنا عند بيت أخ كريم من أهل الحديث في هذه المدينة عرفتـه بنشاطه في بدنه، وببذله ماله في العمل الإسلامي، وهـو الأخ (محمـد أسلم) وفقه الله وزاده من العمل الصالح.

فقد أخبرنا الإخوة أن جزءاً كبيراً من تنظيم هذا المهرجان وقع على عاتقه حتى وجدناه يكاد يفقد صوته من كثرة كلامه في التدبير والعمل.



داخل أحد الفصول الدراسية لكلية المدينة المنورة للبنات في ريشا

كانت أزقة الحي الذي يقع فيه بيته مهملة أكثرها ليس فيه زفت وبعضها فيها مياه ساربة متغيرة، ومع ذلك فإن بيته خلاف ذلك فكان نظيفاً مرتباً مؤثثاً بأثاث جيد، وكانت الغرفة التي قدم فيها الطعام معتمة بحيث لا يوجد فيها ذباب واحد.

وجدناه قد مدّ السماط على الأرض وجلس عليه معنا نحو عشرين.

وجاءوا بالطعام الحار حساً ومعنى فهو حار من حرارة النار وحرارة الفلفل ولكنه شهي لذيذ الطعم، وعماده لحم الدجاج الذي طبخ على أكثر من وجه، ومعه الخبز الذي يأتون به ملفوفاً في خرقة لئلا يفقد حرارته، والأرز والفاكهة.

مغادرة ريشا:

غادرنا بلدة ريشا في الثالثة والنصف قاصدين بلدة (هلدواني) التي ذكروا أنها تبعد عنها ساعة ونصفاً بالسيارة، وذلك لركوب القطار منها إلى دلهي لأن قطار (بريللي) المكيف قد فات موعده، وسيكون طريقنا غير الطريق الذي سلكناه ما بين (ريشا) و (بريللي).

كان الطريق مزدحماً بالقرى التي ترى منه أو يرى الذاهبون إليها أو الآيبون منها فيه وشاحنات ضخمة تسد الطريق في بعض الأحيان أو تكاد.

قرية البئر الحمراء:

وصلنا قرية اسمها (لال كوان) ومعناه البئر الحمراء، لأن (لال) أحمر أو حمراء، بالأوردية وكوان: بئر، ذكروا أن عدد سكان هذه القرية هو

عشرة آلاف نسمة ٧٥./. منهم مسلمون، وفيها مصنع للورق كبير حتى قال بعضهم: إنه من أكبر مصانع الورق في القارة الآسيوية، وفيها مسجد واحد.

هذا واللافتات في الطريق كلها مكتوبة باللغة الهندية لا لغة معها غيرها.

كان سيرنا جهة الشمال وجبال من الجبال المتصلة بالهملايا تسايرنا من جهة اليمين.

وقد مر الطريق بعدة قرى حيث الريف كله أو أكثره مسكون حتى وصلنا بلدة هلدواني.

وذلك في الرابعة والنصف، ويبلغ عدد سكانها ١٢٠ ألف نسمة ٢٥./. منهم مسلمون طبقاً لما ذكره لنا الإخوة المرافقون.

كنا نسير مع شارعها العام الذي هو الطريق الرئيسي الذي جئنا معه فكان مزدحماً ازدحاماً شديداً، وكان من الأشياء اللافتة للنظر فيه أكوام أواني الفخار الأحمر الذي صنع صناعة رثة يعجب المرء لوجود من يستعمله في هذا الزمان لأنه ثقيل ويصعب تنظيفه تنظيفاً تاماً لخشونته، وأكوام الفاكهة التي أنتجت في المنطقة مثل البطيخ الأخضر (الحبحب) والأصفر (الشمام) والمندرين وهو المسمى في مصر باليوسفي، وبسطات كثيرة في السوق وهي التي ينشر فيها أهل البضائع بضاعتهم خارج الحوانيت على الأرض، وعلى عربات اليد، وآثار مطر كان قد نزل قبل فترة مخلفاً حماة سوداء أثارتها الدواب السائبة من الأبقار والجواميس فزادتها سوءاً على سوء ودراجة ركشاوية قد ركبت فيها أسرة كاملة وسائقها يجاهد في تحريكها، هذا والشارع كله حوانيت (دكاكين) متصلة متلاصقة.

وتركنا شارعها الرئيسي إلى شارع آخر ريفي رديف له في وسط البلدة من أجل أن نذهب إلى محطة القطار فوجدناه مستقيماً لا بأس بسعته إلا أنه لا أثر فيه للنظافة فهو أقل بكثير في هذا الأمر من الشارع العام،وزاد على ذلك أن كان مزدحماً بالشاحنات التي كانت واقفة فيه يكاد بعضها يلتصق ببعض، ويعجب المرء من كثرة الشاحنات الضخمة في الهند ووجودها ظاهرة في أي مكان ذهب إليه من الهند وأكثرها إن لم تكن كلها صنع الهند ومن صنع شركة واحدة هي (شركة تاتا لصناعة السيارات).

ووصلنا محطة القطار بعد أن سألنا أكثر من واحد عنها عند وصول قطارنا بالضبط فأسرعنا نعدو إلى العربة التي حجزنا فيها في الدرجة الأولى، ولو كنا تأخرنا ٣ دقائق أو أكثر لفاتنا القطار.

ومن عجب أن هذا القطار أسبوعي يعني إن هذه الرحلة فيه إلى دلهي لا توجد إلا مرة واحدة في الأسبوع هي هذه التي تقوم في يوم الأحد مثل يومنا.

وليس المراد أنه لا توجد قطارات إلى دلهي غيرها فهي موجودة ولكنها ليست قطارات مكيفة جيدة.

من هولدواني إلى دلهي:

وجدنا القطار كله مكيف الهواء كما ذكروا لنا من قبل، وهو أحسن من القطار الذي جئنا به من دلهي إلى (بريللي) إلا أن الاول كانت فيه أسرة للنوم وأما هذا فإنه ليس كذلك وإنما العربة فيه تشبه داخل الطائرة من حيث التكييف وكون مقاعدها متحركة حسبما يريد الراكب، وزجاجها معتم من أجل إراحة النظر.

هذا وقد أخبرونا أن مدينة (هولدواني) هذه تبعد عن دلهي (٣١٠) كيلات يقطعها هذا القطار في خمس ساعات ونصف.

بادرنا عامل عندما استقرينا في القطار بأن بسط موائد كانت في ظهور المقاعد كما يكون في الطائرة وأحضر وجبة طعام خفيف فيها فطيرة صغيرة وخبزة وقطعة من الحلوى وحلوى مغلفة أيضاً من (الشوكولاتة) وشاي على صفة شبيهة بما يكون في الطائرة.

والقطار نظيف وهادىء والركاب في الدرجة التي ركبنا فيه قليل، وهم من أغنياء الهنود ويبدو ذلك ظاهراً عليهم.

وقد بادر سائق القطار بتحريكه بسرعة دون أن يسمع لذلك صوت تنبيه كالمعتاد.

وسار بأرض معمورة بالزراعة ليس فيها فراغ إلا فراغ أرض أعدت للزراعة ولم تزرع، أو حرثت وتركت فترة لكي تخصبها الشمس والريح، ولم أر أنهاراً أو قنوات وإنما معظم الري فيها من آبار ارتوازية رأينا بعضها يتدفق منها الماء، ولا شك أن الأمطار الموسمية الغزيرة تعوض ما يسحب من هذه الآبار في جوف الأرض، ورغم عدم وجود أنهار فإن في الأرض مستنقعات عديدة ضيقة وهي من صرف المياه المستعملة في الزراعة ومن بقايا موسم الأمطار الذي ذكرته.

وهناك الحفر التي فيها الماء التي ذكرتها فيما سبق ويستفيدون منها بالانتفاع بمائها رغم كونه كدراً وغير نظيف كما أخبرت أنه يعيش في بعضها نوع من السمك.

ولاحظت أن المزارع هنا ضيقة بمعنى أنها قطع صغيرة كما لاحظت أن الجواميس هنا أكثر من البقر والهنادك لا يعظمونه كما يعظمون البقرة، بل إنهم لا يعظمون الثور، بل يهينونه ويحملونه الشاق من العمل بخلاف البقرة.

مواصلة الضيافة:

إضافة إلى ما قدمه القطار لنا من طعام فور صعودنا إليه قدم لنا في الساعة السابعة حساء جيداً حاراً ذا فلفل معتدل الحرارة ومعه عصا قصيرة من الكعك، وهذه أول مرة أرى فيها من يقدم الحساء (الشربة) وحدها في طيارة أو قطار أو نحوها فالعادة أن يقدم الحساء في أول الطعام كما يفعل الأوروبيون الفرنسيون ومن تابعهم أو في آخر الطعام كما يفعل الصينيون أما أن يقدم منفرداً فلا.

وكان لتقديمه وقع لذيذ في النفس فهو حار نوعاً والحرارة كانت مطلوبة داخل القطار لأنه كان مكيفاً تكيفاً جيداً حتى إن الركاب طلبوا أغطية يتقون بها البرد.

هذا وقد غربت الشمس قبيل السابعة وما زال في الوقت بقية قبل الوصول إلى دلهي على حين أنه يمكن قطع هذه المسافة في نصف ساعة بالطائرة مع توفير المشقة والتعب، ولكن لا يوجد في المنطقة مطار.

وكأنما ابتليت بعدم وجود طيارات بين المدن التي زرتها في هذه الرحلة وبين المدن التي زرتها في الرحلة التي سبقتها وهي الرحلة التي سميتها (رحلة الشمال) من الأرض لأنها كلها في أقطار شمالية بدأت

بجمهورية أذربيجان ثم ثنت بجمهورية روسيا وبخاصة جمهورية داغستان ذات الحكم الذاتي داخل روسيا ثم أوكرانيا تلك البلاد الواسعة الخصبة ثم جمهورية (مالدوفا) بعدها جمهورية إرمينيا.

وقد تنقلت في مدن عديدة داخل أوكرانيا فكان العجب يتملكني أنا ورفيقيَّ في الرحلة تلك، من عدم وجود مطارات في عواصم الأقاليم ومدنها الكبيرة فكان لابد من السفر بالقطار الذي هو بطئ أكثر بطأ من هذا القطار الهندي، أو استئجار سيارة خاصة وهي الاسهل والأسرع، وقد ذكرت ذلك مفصلاً في الكتب الثلاثة التي كتبتها عن تلك الجولة وعناوينها هي: (الرحلة الشمالية)، و(خلال اوكرانيا بحثاً عن المسلمين) و(مواطن إسلامية ضائعة).

لم يشغل الركاب من هذا القطار الهندي الجيد إلا نحو ١٠./. من مقاعد العربة وأخبروني أن السبب في ذلك هو غلاء أجرته، ومع ذلك كانت تهب من الراكبين بين الفينة والأخرى ريح سفلية عفنة.

هذا وبعد ساعة قدموا وجبة خفيفة لمن يريدها ولم أردها لكوني تغديت جيداً في بيت الأخ الكريم (محمد اسلم) في ريشا.

وبعد أن غربت الشمس لم يكن هناك ما يمكن عمله فالقطار لا تمكن الكتابة فيه لتمايله وعدم اتساق حركته وخارج القطار ظلام لا ترى منه إلا أضواء خافتة، في بعض الأحيان، وكثيراً ما يقابل قطارنا قطاراً آخر فيحدثان صوتاً مزعجاً لا شك في أنه سيكون أكثر إزعاجاً لولم تكن نوافذ قطارنا محكمة الإغلاق إلى درجة تحد من نفاذ الصوت الهادئ منها.

الوصول إلى دلهي:

وصلنا إلى محطة القطارات (نيو دلهي) في العاشرة والنصف ليلاً بعد لبث في القطار قارب ست ساعات، وصعد حمالان إلى القطار كل واحد يريد أن يحمل أمتعتنا إلا أن موظفين أثنين نافذين أوقفاهما فهرب أحدهما أي الحمالين، وبقي الآخر فكان الموظف يريد معاقبته على كونه لم يضع على يده علامة حمالي القطار المميزة.

ثم صعد الحمال مع الدرجة العالية المتعبة وهو يحمل على رأسه قطعتين من الأمتعة لا يقل وزنها عن أربعين كيلو غراماً ثم سرنا في الممر الطويل الذي تسير من تحته القطارات حتى هبطنا مع درج عال أيضاً إلى رصيف المحطة مما يلي المدينة، فوجدنا إحدى السيارات تنتظرنا حسب ترتيب سابق، فذهبنا توا إلى فندق (كانيشكا) الذي كنت فيه من قبل، وكان مما سرني أن وجدت مع السيارة التي كانت تنتظرني جوازي قد أرسلته السفارة السعودية بدون الحصول على سمة الدخول إلى مملكة (بوتان) لأن سفارة بوتان تقول حسبما ذكروه: إنه لابد من الحصول على الإذن لمنح السمة من حكومة بوتان نفسها، وذلك يستغرق أسبوعين على الأقل.

وكنت سمعت بعد أن قدمت جوازي للسفارة السعودية لترسله إلى سفارة (بوتان) أن الوجود الإسلامي فيها ضعيف جداً حتى اختلف أهل الهند فيما إذا كان يوجد في عاصمتها مسجد، وإنما ديانة عامة الناس فيها هي البوذية، إضافة إلى ما ذكره لي أهل الهند من أنهم لا يحتاجون إلى سمة دخول إلى نيبال، وباتان، ومع ذلك لا يذهبون إليهما وهذا يدل على أن (بوتان) بلد فقير متخلف لم يجد أهل الهند على وجود الفقراء العاطلين فيه مغنماً.

لذلك لم آسف عندما عرفت أنه لا يمكنني السفر إليها في هذه الرحلة ووضعت في نفسي السفر بعد آسام إلى إحدى الولايات الهندية البعيدة المجاورة لها، على أمل أن أحاول الدخول إلى بوتان فيما بعد إذا تيسر ذلك.

يوم الاثنين ٢٠/١/١٤١٨هـ- ٢٦/٥/١٩٩٧م:

مغادرة دلهي:

غادرت مدينة دلهي متوجهاً إلى (جوهاتي) عاصمة ولاية آسام الهندية الشرقية البعيدة في رحلة قصصت أمرها في كتاب (على اعتاب الهملايا).

وسوف أعود إلى دلهي بعد زيارة آسام وولاية هندية أخرى نائية هي (مني فور) بإذن الله، وله الحمد والمنة.

ملاحظات أخيرة وتوصيات:

في ختام حديثنا عن هذه الرحلة في شمال الهند أحببنا تسجيل بعض الملاحظات والاقتراحات حول وضع الإخوة المسلمين في الهند:

١- إن المسلمين في الهند يشكلون أقلية تختلف نسبتها في بعض الولايات عن البعض الآخر فقد تصل نسبة المسلمين في بعض الولايات إلى ثلاثين في المائة وقد تنخفض في بعض الولايات الأخرى إلى عشرة في المائة إلا أن المتوسط العام لوجودهم في الهند يقارب ١٥٪. وذلك حسبما أكده لنا مجموعة منهم ممن لهم مزيد اهتمام بشؤون المسلمين في الهند، مع أننا كنا نفهم أنه في حدود ١٢٪..

٢- إن الوضع العام للمسلمين في الهند يؤكد ضرورة العناية بهم والاهتمام بتحسين أحوالهم الفكرية والمادية والاجتماعية والاقتصادية فلئن كانوا مسلمين فلهم مذاهب مختلفة واتجاهات يصعب التقاؤها ما لم تبذل مجهودات في سبيل ذلك وفرص العمل بكافة مستوياته متاحة لغيرهم أكثر من اتاحتها لهم ومستواهم العلمي دون مستوى غيرهم.

٣- نتيجة لتدني الوضع العام للمسلمين في الهند فقد استشعر المثقفون منهم واجبهم فتسابقوا في سبيل إيجاد كيان قوي للمسلمين يستطيعون فيه أن يأخذوا مكانهم اللائق بهم في بلادهم في مختلف جوانب الحياة، وكان من نتيجة ذلك أن انتشرت المؤسسات التعليمية والجمعيات الخيرية وجادوا بالكثير من أموالهم وجهودهم الشخصية حتى أوجدوا من مؤسساتهم التعليمية ما ألزم الدولة بالاعتراف بها ومساندتها.

٤- إن في الهند من المسلمين من هم في مستوى علمي وفكري يؤهلهم لأعمال قيادية في بلادهم ولهذا نجد البعض منهم يغامر بإنفاذ مشروعات تعليمية وصحية ليس لديه من الأسباب المادية لنجاح المشروع إلا العزم والتضحية والإيمان بضرورة ذلك وإنفاذه ثم التوكل على الله فيأتي الله بالخير من حيث لا يحتسب ونستطيع أن نذكر مثلاً لذلك وما أكثر الأمثلة. ذكر القائمون على كلية الحسنات للبنات في مدينة بنقلور في ولاية (كرناتك) بجنوب الهند عزمهم على إيجاد مبنى يتفق مع متطلبات الحياة الدراسية بعد أن شعروا بالضيق والحرج في مبنى الكلية القديم،ولم يكن لديهم من المال ما يبني لهم غرفة فضلاً عن إقامة مبنى مكتمل وبمجرد بدئهم في البناء تسابق أهل الخير وتجار المسلمين وأعيانهم إلى تمويل المشروع فرأيناه وقد اكتمل غالبه بتصميم متقن وبناء متين.

٥- مسح الولايات الهندية للتعرف على النشاطات الإسلامية ونوعية كل نشاط، وذلك عن طريق الإيعاز إلى الجهات المعنية في بلادنا بانتهاز فرص إقامة المؤتمرات العلمية في الهند لبعث وفود منا يكلفون بحضورها ثم زيارة ما يتيسر زيارته من المؤسسات ذات الأنشطة الإسلامية في مختلف جوانب الحياة وتقديم تقارير عن كل مؤسسة تتم زيارتها يشتمل كل تقرير على نوعية النشاط ونتائجه ووسائل تطويره وإسناده.

٦- تشجيع هذه المؤسسات بمختلف وسائل التشجيع ونذكر من ذلك ما يلي:

(أ) مدهم من المال بما يكون عوناً لهم على إنفاذ وتطوير مشاريعهم الخيرية.

(ب) الإكثار من المنح الدراسية في جامعات بلادنا لأبناء المسلمين في الهند ممن يتخرجون من المعاهد الإسلامية في بلادهم وتخصيص عدد من المنح الدراسية في العلوم العصرية كالطب والهندسة وغيرهما.

(ج) تشجيع التعامل التجاري مع أبناء المسلمين في الهند، حيث إن كثيراً من تجار المسلمين في الهند وممن هم في مستوى الشعور بمسؤلياتهم الإسلامية تجاه الاهتمام بالمسلمين في بلادهم يرغب أن يكون له تعامل تجاري مع بلادنا، وقد أبدت لنا مجموعة منهم هذه الرغبة وألحوا بإبلاغها لولاة أمورنا، وفقهم الله.

ونعتقد أن التعامل معهم بعد تذكيرهم بواجب الأمانة والنصح والإخلاص في المعاملة يعطيهم مزيداً من الدعم والقوة وفي ذلك تمكين وتقوية للكيان الإسلامي في الهند.

(د) إعطاؤهم الألوية في استيراد الخبرة واليد العاملة عن طريق رؤساء جمعياتهم بعد تذكيرهم بواجب حسن الاختيار لمن تتوافر فيه صفات الأمانة والنصح والإخلاص والتأكيد عليهم بأن التساهل في ذلك يعطي الفرصة لتزعزع الثقة فيهم ثم الاستغناء بغيرهم عنهم.

(هـ) إيجاد تعاون وثيق بين المعاهد والجامعات في المملكة العربية السعودية والجامعات الإسلامية في عموم الهند وذلك بتبادل الخبرات والمشورات والتوصيات.

(و) تشجيع دور الصحف والنشر والطبع الإسلامية فيها كجزء من الإطار العام للتوعية الإسلامية والجانب الإعلامي لبلادنا ونعتقد أن ذلك يتم بمجموعة عوامل منها المساعدات المالية واستقدام وفود صحفية تتاح لهم فرصة الإطلاع على مختلف جوانب الأنشطة التقدمية في بلادنا ليقوموا بنقل مشاعرهم إلى أمة تعتبر من أكثر الأمم عدداً وأحوج الناس إلى أن يعرفوا ما يجري في البلدان العربية عامة وفي مهبط الوحي ومنطلق الرسالة المحمدية.

ومن عوامل التشجيع شراء ما يتيسر شراؤه من المؤلفات العلمية ليتم توزيعها بين المسلمين فيهم وفي مواسم الحج ومواقيت المؤتمرات.

(ز) ضرورة استقدام بعض المسؤولين عن التعليم الجامعي في المؤسسات التعليمية الإسلامية في الهند عن طريق الجامعات في البلدان الإسلامية ليتم التشاور معهم في تنشيط هذه الأجهزة التعليمية وتزويدهم بالكتب والخبرات وما يلزم لذلك.

(ح) إيجاد ملحق ديني وآخر ثقافي يكون مقرهما العاصمة الهندية دلهي يشرفان على سير النشاط الإسلامي من جانبي الدعوة والتعليم ويراقبان نتائج الدعم لذلك ويقومان بتقديم المشورة فيما يتعلق بشؤون الدعوة والتعليم.

وينبغي أن يعرف أثرياء المسلمين أن مائة ريال تنفق على المشروعات الإسلامية في الهند من افتتاح المدارس وإقامة المؤسسات الاقتصادية لأبناء المسلمين تعادل نتيجة ألف ريال ١٠٠٠ تقدمها الدولة لمساعدة مؤسسة إسلامية

في بلاد أخر ى مثلاً، ذلك أن في الهند رجالاً يجعلون من الريال عشرة بينما لا نجد ذلك الصنف من الناس في غالب البلدان الأخرى.

إننا بذلك لا نقلل من النتائج لمساعداتنا في تلك البلدان ولكننا نؤكد أن في الهند تربة خصبة للمساعدة تعطي أجمل النتائج وأشهي الثمار.

فضلاً عما في ذلك من تنمية قاعدة للتضامن الإسلامي تعتبر من أقوى قواعده.

ونكرر القول بضرورة العن بالهند وأنها تربة خصبة ستعطي العناية بها نتائج إيجابية تدعم التسامن الإسلامي والرد على المفتريات والتشكيكات الموجهة ضد الإسلام إضافة إلى أن في ذلك قياماً بواجب الدعوة إلى الله بقدر الاستطاعة.

وأمر موجه إلى المسلمين من أهل البلاد:

وهو أن يجتهدوا في تيسير الحصول على العلم والمعرفة، لأبناء المسلمين في الهند، سواء أكان ذلك لمعرفة الأمور الشرعية كما هو حاصل أم للتزود من العلوم التجريبية والمواد العلمية المادية كالطب والهندسة والصيدلة والمحاسبة وحتى علوم الذرة والحاسب الآلي.

ويجب أن يضعوا نصب أعينهم أن ذلك واجب لا ينبغي أن يفرطوا به، لأنه سبيل قوي إلى مزاحمة غيرهم على الوظائف الحكومية، والجامعية، وبالتالي سبيل لمشاركة المسلمين في الأمور المهمة لبلادهم، كما أنه سبيل لمعرفة كيفية إنشاء الشركات والمؤسسات المالية إنشاء عصرياً يكفل الربح والمكانة لمن يسهمون فيها من المسلمين.

أما تعلم العلوم الشرعية فإن ذلك مهم لجميع المسلمين غير أن

المطلوب التبحر فيها لطائفة من المسلمين كما قال تعالى : ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢]

أما الطوائف الأخرى بعد أن تعرف العلم الضروري من التربية الدينية فإنها تتجه إلى العلوم المدنية الأخرى مسلحة بما عرفته من أمر الدين لتكون مسلحة أيضاً بما تستطيع الحصول عليه من علوم الدنيا .

وقد رأيت طريقة حميدة للإخوة المسلمين في عدد من البلدان ومنه استراليا وبعض الدول الاسكندنافية وحتى البرازيل في أمريكا الجنوبية وهي إنشاء المدارس المدنية الدينية إن صح التعبير وهي أن يتفق القائمون على المدرسة مع السلطات الحكومية المسؤولة عن التعليم على أن يتضمن منهاج الدراسة في المدرسة الأشياء المهمة من البرنامج الحكومي غير الديني بنسبة ٦٠٪ مثلاً وأن تخصص نسبة ٤٠٪ أو ٣٥٪ للموضوعات الإسلامية وذلك نظير أن تشرف الحكومة على سير الدراسة في المدرسة ، وعلى تعيين الأساتذة المؤهلين فيها وأن تعترف بشهاداتها فتقبل المتخرجين فيها في مراحل الدراسة التي هي أعلى منها .

وهذا لا يقصد منه – بطبيعة الحال- أن يلغي المدارس الدينية القائمة أو أن يقلل من أهميتها وإنما هو رافد لها يغني أبناء المسلمين عن الالتحاق بالمدارس المدنية الحكومية والمدارس المدنية التي تتبع الطوائف الأخرى.

مع التمسك بالمدارس الدينية التي كانت ولا تزال العاصم القوي بإذن الله لأبناء المسلمين عن نسيان ثقافتهم الإسلامية وتربيتهم الدينية.

آخر الدواء:

يقول العرب (آخر الدواء الكي) أي إذا لم ينفع الدواء في مرض أو

نحوه فإنه ينبغي أن يصار إلى الكي بالنار.

وقال بعض زعماء المسلمين في الهند: هل يبقى المسلمون في الهند يمدون رقاربهم لمتعصبي الهنادك حتى يقطعوا رؤوسهم ولا يكتفون بذلك حتى يخرجوهم من بيوتهم ويحرقوا متاجرهم ويضيقوا عليهم في معاشهم؟

وبطبيعة الحال كان الجواب: لا.

وإذاً ما العمل؟

والجواب: أنه إذا استمرت العصابات الهندوكية في تعصبها وإيذائها المسلمين فإنه لابد للمسلمين من أن يقابلوا ذلك مستهدين بالآية الكريمة (**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ**)(البقرة: الآية١٩٤).

وهذا يتطلب أن تتدرب طائفة من شباب المسلمين تدريباً جسدياً قوياً وتدريباً عسكرياً على السلاح والقتال، بما في ذلك معرفة مكافحة أعمال التخريب التي تقوم بها عصابات الهنادكة التي لا تفهم إلاّ لغة القوة.

ويجب على زعماء المسلمين في هذه الحال ألا يستعملوا ما يفعلونه من ذلك إلاّ في الدفاع المشروع عن النفس والمال والعرض.

ولدى المسلمين من المثّل والتضحية بالنفس ما ليس عند غيرهم، ويجب أن يشعر متعصبو الهنادك وغيرهم أن المسلمين ليسوا شياهاً تذبح، ولا حيواناً يضغط عليه فلا يكون لذلك رد فعل عنده.

ويجب أن يحذر علماء المسلمين وعقلاؤهم زملاءهم في الوطن من زعماء الهنادك والمفكرين منهم ألا يلجئو المسلمين إلى ذلك بتصرفاتهم الرعناء التي تعتمد القوة دون القانون، وتعتدي على المسلمين دون أن تحسب حساباً لما لذلك من رد فعل مدمر للجميع.

الفهرس

ولاية إتربراديش ٣
معلومات عن ولاية (إترابراديش) ٥
اليوميات في شمال الهند ٩
من بنارس إلى دلهي ١١
عرس سيخي ١٣
جولة في دلهي الجديدة ١٥
وصف مدينة دلهي ١٧
من دلهي إلى أقرا ٢٦
فريد آباد ٢٦
مدينة تغلق آباد ٢٧
ومدينة بَلْوَل ٢٩
أبراج البريد ٢٩
وأبراج أخرى ٢٩
حدود الولايات ٣١
مدينة أقرا ٣٢
مقبرة السلطان أكبر ٣٣
طوق من الحيات ٣٤
فتح بورسكري ٣٥
هذه فتح سكري ٣٦
قصر الشاه ٣٧
المسجد الجامع ٣٨
مُغُلْ هوتيل ٤٢
القلعة الحمراء ٤٥
العودة إلى دلهي ٤٩
في مقر الجماعة الإسلامية ٥٠

قطب منار	٥٠
أسطونة السعادة	٥٢
قطب الدين أيبك	٥٤
مغادرة الهند	٥٦
عَوْدٌ إلى شمال الهند	٥٧
من بتنة إلى لكنو	٥٩
في مطار لكنو	٦١
ندوة العلماء	٦٤
من مثل هؤلاء فلنتعلم	٦٧
الطعام المبارك	٧٠
يمسحون الرصيف بأجسامهم	٧٢
جولة في ندوة العلماء	٧٤
المجمع العلمي	٧٧
مواصلة الجولة	٧٩
عيد القرد	٨٠
إلى حديقة الحيوان	٨٢
بين القرد الذي عبدوه، والقرد الذي قيدوه	٨٤
الطاووس بدون ألوان	٨٥
دور الحيات غير الحيّة	٨٧
جلسة عمل	٨٨
إمام بارا	٨٩
إلى الطابق العلوي	٩٢
إلى جامع بير محمد	٩٤
النصب التذكاري للجنود	٩٦
مساء لكنو	٩٦
ليلة قطارية أخرى	١٠٠
ذكريات في لكنو	١٠١

التعريف بندوة العلماء ١٠٤
ندوة العلماء تاريخها ونشأتها ١٠٤
العودة إلى الواقع ١١١
غازي آباد ١١٥
هذه دلهي ١١٥
إلى سرنقار عاصمة كشمير ١١٩
عَوْدٌ أخير لشمال الهند ١٢١
من الرياض إلى دلهي ١٢٣
في مطار دلهي ١٢٨
مأدبة أهل الحديث ١٣٢
الوثنية المجسمة ١٣٤
جمعية التبليغ ١٣٦
الاجتماع بأهل الحديث ١٣٧
الثقيل وأبوه ١٤٢
إلى ولاية إترابــراديش ١٤٥
محطة نيودلهي ١٤٦
من دلهي إلى بريللي ١٤٩
محطة غازي آباد ١٥٠
محطة مراد آباد ١٥٤
هذه بريللي ١٥٦
صباح بريللي ١٦٠
من بريللي إلى ريشا ١٦١
قرية بوجي فوره ١٦٥
بلدة ريشا ١٦٦
الحفل الخطابي ١٦٨
البرنامج يتواصل ١٨١
مع رجال الصحافة والإعلام ١٨٢

الغداء في شركة تنقية الأرز ١٨٥
مقر شركة تكرير السكر ١٨٩
العودة إلى مصنع الأرز ١٩١
العودة إلى المهرجان ١٩٣
العودة إلى مدينة بريللي ٢٠٢
البريلليون ٢٠٣
طريق حضرة الأعلى ٢٠٤
مغادرة المدينة ٢٠٩
وقبر العروس ٢١٠
العودة إلى (ريشا) ٢١١
وضع حجر الأساس ٢١٢
مسجد أهل الحديث ٢١٣
مغادرة ريشا ٢١٦
قرية البئر الحمراء ٢١٦
من هولدواني إلى دلهي ٢١٨
مواصلة الضيافة ٢٢٠
الوصول إلى دلهي ٢٢٢
مغادرة دلهي ٢٢٣
ملاحظات أخيرة وتوصيات ٢٢٤
وأمر موجه إلى المسلمين من أهل البلاد ٢٢٨
آخر الدواء ٢٢٩
الفهرس ٢٣١